

انتصار السعادة

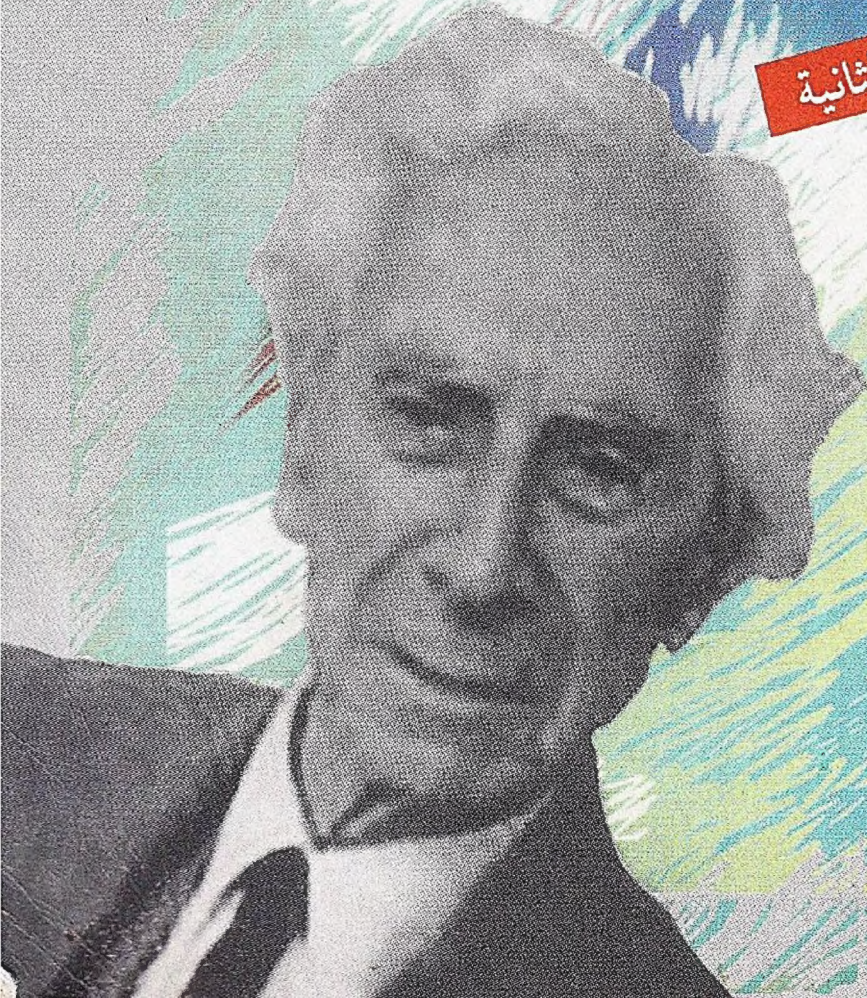
تأليف : برتراند راسل

ترجمة : محمد قدرى عمارة

مراجعة : إلهامى جلال عمارة

الطبعة الثانية

2/409



انتصار السعادة

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٢ / ٤٠٩

- انتصار السعادة

- برتراند راسل

- محمد قدرى عمارة

- إلهامى جلال عمارة

- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة

The Conquest of Happiness
by: Bertrand Russell

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

انتصار السعادة

تأليف: برتراند راسل

ترجمة: محمد قدرى عمارة

مراجعة: إلهامى جلال عمارة



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٩ / ١٠٦١٩
الترقيم الدولي: 2 - 277 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع مصر للطيران

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	مقدمة
9	الجزء الأول : مسيات التعاسة
11	الفصل الأول : ما الذى يجعل الناس تعساء ؟ ...
25	الفصل الثانى : التعاسة البيرونية
45	الفصل الثالث : التنافس
59	الفصل الرابع : الملل والإثارة
73	الفصل الخامس : الإعياء
89	الفصل السادس : الحسد
103	الفصل السابع : حاسة الإثم
119	الفصل الثامن : هوس الاضطهاد
135	الفصل التاسع : الخوف من رأى العام
151	الجزء الثانى : مسيات السعادة
153	الفصل العاشر : ألا تزال السعادة ممكنة ؟
171	الفصل الحادى عشر : التلذذ
191	الفصل الثانى عشر : الحب
203	الفصل الثالث عشر : الأسرة
227	الفصل الرابع عشر : العمل
239	الفصل الخامس عشر : الاهتمامات غير الشخصية
251	الفصل السادس عشر : المجهود والاستعفاء
263	الفصل السابع عشر : الإنسان السعيد

مقدمة

هذا الكتاب ليس موجهًا للعلماء أو لأولئك الذين ينظرون للمشكلة العملية على أنها مجرد موضوع للحديث، ولا توجد فى الصفحات القادمة فلسفة متبحرة أو براعة عقلية عميقة، فهدفى ما هو إلا أن أضع بعض الملاحظات التى من الممكن إدراكها عبر ما يعرف بالحس المشترك. وكل ما أدعيه بالنسبة للوصفات المقدمة للقارئ هو أنها مؤيدة بتجربتى ومشاهداتى الشخصية، أن سعادتى الذاتية قد ازدادت اينما كان سلوكى متوافقًا معها. وعلى هذا الأساس فلئننى أجازف بالأمل فى أن يجد البعض - من بين الكثيرين من الرجال والنساء الذين يعانون التعاسة - أن حالاتهم قد شُخصت وأن طريقة للنجاة قد اقترحت. ولقد كتبت هذا الكتاب مبوقنا بأن الكثيرين من التعساء بإمكانهم أن يصبحوا سعداء عن طريق مجهود جيد التوجيه.

« أعتقد أن باستطاعتى الاتجاه للعيش مع الحيوانات

فهى مسألة للغاية.. ومتماثلة لأنفسها..

إننى أقف وأنظر إليها طويلاً وطويلاً

هى لا تعرف الأسى والعويل على أحوالها

ولا تستلقى مستيقظة فى الظلام.. تبكى من خطاياها

ولا تجعلني مشمئزاً بمناقشة واجبها تجاه الله
فلا واحد منها ساخط ، ولا واحد منها مصاب بهوس تملك
الأشياء .

ولا أحدها يركع لآخر أو لواحد مثله عاش منذ آلاف السنين
ولا واحد منها محترم أو تعيس على وجه الأرض كلها .

«والت ويتمان»

الجزء الأول

مسببات التعاسة

الفصل الأول

ما الذى يجعل الناس تعساء؟

(1)

الحيوانات سعيدة طالما كانت بصحة جيدة ولديها ما يكفيها من الطعام ، ورغم أن البشر يجب أيضاً أن يكونوا كذلك، إلا أنهم فى عالمنا الحديث ليسوا سعداء، على الأقل فى الغالبية الغالبة من الحالات. فإذا لم تكن أنت سعيداً، فقد توافقنى على أنك لست الاستثناء فى ذلك، أما إذا كنت سعيداً، فاسأل نفسك كم من أصدقائك هم الآخرون سعداء، وعندما تراجع أحوال أصدقائك، علم نفسك فن قراءة الوجوه، واجعل نفسك مستقبلاً لأمزجة أولئك الذين تقابلهم عبر يوم عادى ، فكما يقول بلاك: «هناك علامة فى كل وجه أقابله، علامات ضعف وشقاء». فرغم تباين نوعياتها، ستجد التعاسة تقابلك فى كل مكان، ولنفترض أنك فى نيويورك، أكثر المدن الكبرى

تحدثًا في العالم، قف في شارع مزدحم خلال ساعات العمل أو في أحد الشوارع الرئيسية في عطلة نهاية الأسبوع، أو في مرقص في إحدى الأمسيات، وأفرغ عقلك من إحساسك بذاتك ودع شخصيات الغرباء حولك تستحوذ عليك واحدة تلو الأخرى، وسوف تجد أن كل مجموعة من هذه المجموعات من البشر لها مشاكلها الخاصة. ففي ساعات العمل سوف تلاحظ على الناس القلق، التركيز الشديد، سوء الهضم، انعدام الرغبة في أى شىء عدا الصداق، وعدم الإحساس بأقرانهم من البشر.

بينما فى أحد الشوارع الرئيسية فى عطلة نهاية الأسبوع، سوف ترى رجالا ونساءً ميسورين - وبعضهم شديد الثراء - منهمكين فى نشدان المتعة، وهذا مسلك يتم بخطوة منتظمة، هى خطوة أبطأ سيارة فى الموكب. فمن المستحيل رؤية الطريق من السيارات، أو رؤية المناظر المحيطة لأن النظر جانبًا قد يؤدي إلى وقوع حادث، ويندمج كل ركاب السيارات فى الرغبة فى تجاوز السيارات الأخرى، ولا يمكنهم تحقيق هذه الرغبة نتيجة الازدحام. وإذا ما تجاوزت عقولهم هذا الانشغال كما قد يحدث أحيانًا للركاب الذين لا يقودون السيارة بأنفسهم فسيستولى عليهم ملل عظيم يصبغ ملامحهم بالسخط. وقد يحدث أن توجد فى الطريق حمولة عربية من الملونين الذين يظهرون متعة حقيقية، ولكنهم يتسببون فى خنق الآخرين نتيجة السلوك غير المنضبط، ويقعون فى النهاية فى أيدي الشرطة نتيجة لحادث، فالمتعة فى يوم الإجازة أمر غير مشروع!!

أوراقب الناس في ليلة مريح، فالكل يجيء مصممًا على أن يكون سعيدًا، بإصرار يشبه إصرار الذي يذهب إلى عيادة طبيب الأسنان مصممًا ألا يبدو متوترًا. فمن المعتقد أن الخمر والمراهنات هما أبواب المرح، لذا يسكر الناس بسرعة، ويحاولون ألا يلاحظوا مدى كراهية رفاقهم لهم وهم في هذه الحالة وبعد كمية مناسبة من الشراب يبدأ الرجال في العويل ويندبون كيف أنهم لا يستحقون ولاء أمهاتهم وتفانيهن، فكل ما يفعله الخمر لهم هو أن يطلق شعورهم بالإثم وهو ما يكتبه العقل في أوقات صحوهم.

(٢)

ومسببات هذه الطرز المختلفة من التعاسة تعود جزئيًا إلى النظام الاجتماعي وجزئيًا إلى الحالة النفسية الفردية والتي هي بالطبع نتاج للنظام الاجتماعي إلى حد كبير.

لقد كتبت من قبل عن التغيرات المطلوبة في النظام الاجتماعي للارتقاء بالسعادة، ففيما يختص بتحريم الحرب، وتحريم الاستغلال الاقتصادي وتحريم التعليم المبني على القسوة والخوف، فكلها أمور ليست من مقاصد هذا الكتاب. فاكشف نظام لتجنب الحروب هو حاجة ملحة لحضارتنا، ولكن مثل هذا النظام لن تكون له فرصة طالما البشر في تعاسة بالغة، مما يجعل الإبادة المتبادلة تبدو لهم أقل سوءا من التحمل المستمر للحياة اليومية. ومنع تفاقم واستمرار

الفقر أمر ضرورى إذا ما كانت فوائد الانتاج الآلى سوف تتجه لؤلئك الذين هم فى ميس الحاجة لها، ولكن ما فائدة جعل كل انسان غنياً إذا كان الأغنياء أنفسهم تعساء؟

والتعليم بأسلوب تسوده القسوة والخوف أمر سىء، ولكن لا يوجد طراز آخر من التعليم من الممكن أن يقدمه أولئك الذين هم أنفسهم عيب لهذه العواطف، وتقودنا هذه الاعتبارات إلى مشكلة الفرد، فما الذى يمكن للفرد، رجلاً كان أو امرأة، هنا والآن وسط مجتمعنا المريض، أن يفعل ليصل إلى السعادة؟ عند مناقشة هذه المشكلة سوف أقصر اهتمامى على أولئك غير المعرضين لآى سبب خارجى قوى للتعاسة، فلسوف أفترض وجود دخل كاف يؤمن الغذاء والمأوى، وصحة كافية تجعل الأنشطة الجسمية العادية طبيعية، ولسوف لا أضع اعتباراً للكوارث الكثيرة مثل فقدان الفرد لكل أطفاله أو تعرضه للمهانة العامة، فهناك ما يقال عن مثل هذه الأمور وهى أمور مهمة أيضاً ولكنها تختلف عما أود الحديث عنه. ففرضى هو اقتراح علاج للتعاسة العادية التى تحدث كل يوم والتى يعانىها معظم الناس فى البلدان المتحضرة، والتى لا يمكن تحملها لأنها نظراً لانعدام مسبباتها الخارجية تبدو وكأنها لا يمكن تجنبها، وأعتقد أن هذه التعاسة ترجع بدرجة كبيرة إلى النظرة الخاطئة للعالم والأخلاقيات الخاطئة والعادات غير السليمة، مما يؤدى إلى اندثار الجذوة الطبيعية للاستمتاع والشهية الطبيعية للأشياء المتاحة والتى تعتمد عليها السعادة سواء

للإنسان أو الحيوان، وهذه أمور تقع فى متناول قدرة الفرد، وإنى لأنوى اقتراح التغييرات التى بواسطتها يمكن تحقيق هذه السعادة إذا ما توافر قدر مناسب من الحظ المواتى.

(٣)

ربما كان أفضل تقديم للفلسفة التى أرغب فى طرحها، بضع كلمات عن واقع تجربتى الشخصية، فأنا لم أولد سعيداً، كطفل كانت ترينمى المفضلة هى «سئمت الدنيا، وثقلت ذنوبى»، وفى سن الخامسة، تأملت فى أننى لو عشت لأبلغ السبعين فأنا قد تحملت حتى الآن جزءاً واحداً من أربعة عشر جزءاً من حياتى كلها، وشعرت بأن الملل الذى ينتظرنى يمتد طويلاً ولا يمكننى احتماله. وعند البلوغ، كرهت الحياة وكنت دائماً على حافة الانتحار، وما معنى من ذلك سوى رغبتى فى معرفة الرياضيات أكثر، أما الآن فأنا على النقيض من ذلك، استمتع بالحياة وربما قلت أنه مع كل سنة تمر من حياتى يزداد استمتاعى بالحياة أكثر وأكثر، ويرجع ذلك جزئياً إلى أننى اكتشفت الأشياء التى أرغبها بشدة وأننى حصلت تدريجياً على كثير من هذه الأشياء، وجزئياً إلى أننى تمكنت بنجاح من أن أطرد من ذهنى بعض الرغبات مثل الحصول على معرفة يقينية عن أمر ما، لأن ذلك بالضرورة أمر غير ممكن، ويعود أيضاً بالدرجة الأكبر إلى اضمحلال استغراقى فى ذاتى. وكغیرى من الذين تلقوا تعليمًا دينيًا. كانت

عادتي التأمل في ذنوبي وطيشي ونواقصي وبدوت أمام نفسي بلا شك عينة وضيفة، فتعلمت تدريجياً ألا أهتم بنفسي وبنواحي قصوري، وبدأت أركز انتباهي باطراد على موضوعات خارجية مثل حال الدنيا وفروع مختلفة من المعرفة، وعلى أفراد أحسست تجاههم بالحب، وفي الحقيقة فإن الاهتمامات الخارجية يحمل كل منها احتمالات الألم، فالعالم قد يكون في أتون الحرب، والمعرفة في بعض الاتجاهات تكون صعبة المثال، كما أن الأصدقاء قد يموتون، ولكن الآلام التي هي من هذا النوع لا تدمر الخاصية الأساسية للحياة، كما قد يفعل الاشتزاز من الذات، كما أن لها اهتماماً خارجياً يحفز النشاط والذي طالما ظل حياً فإنه يوفر وقاية كاملة من الضيق والملل.

وعلى التقيض من ذلك، فالانغماس في الذات لا يؤدي إلى أي نشاط تقدمي، فقد يؤدي إلى أن يحتفظ المرء بمذكرات، أو أن يقوم بعمل تحليل نفسي أو ربما يصبح المرء راهباً، ولن يصبح الراهب سعيداً إلا إذا جعله نظام الدير ينسى ذاته نفسها. والسعادة التي قد يرجعها مثل هذا الشخص إلى الدين كان يمكنه الحصول عليها بأن يصبح كناساً شريطة أن يكون مرغماً على أن يظل كذلك، فالانضباط الخارجي هو الطريق الوحيد للسعادة لأولئك غير المحظوظين الذين لا يمكن علاج انغماسهم في ذواتهم بأي أسلوب آخر.

والانغماس في الذات له طرز عديدة، ولتأخذ المذنب، والرجسي، والمصاب يجنون العظمة كطرز ثلاث شديدة الشيوخ.

(٤)

عندما أتحدث عن المذنب، فإننا لا أقصد الرجل الذى يرتكب ذنباً، فالذنوب يرتكبها الجميع أو لا يرتكبها أحد وفقاً لتعريفنا للكلمة، وإنما أقصد الرجل الذى يستحوذ عليه الإحساس بالذنب، فمثل هذا الرجل دائماً ما يشعر بعدم الرضا عن نفسه، وهو ما يترجمه، إذا كان متديناً، إلى عدم رضا الله عنه. فلهذه تصور عما يجب أن تكون عليه نفسه، وهذا التصور يظل فى تناقض مستمر مع ما يعرفه عن نفسه على ما هى عليه. فإذا ما كان بفكره الواعى قد أهمل المثل التى لُقِّنَهَا وهو فى حجر أمه، فإن الشعور بالذنب قد يكون دفيناً فى أعماق اللاشعور، ويظهر فقط عندما يكون مخموراً أو نائماً، فهو لا يزال فى أعماقه مؤمناً بكل المحظورات التى تعلمها فى طفولته، فالسباب شر، والخمر شر، والاجتيال فى التجارة شر، وفوق كل شئ، فالجنس شر. وهو بالطبع لا يمتنع عن أى من هذه المتع، ولكنها سممت له لإحساسه بأنها تهبط به وتشينه، والمتعة الوحيدة التى يرغبها بكل كيانه هو أن تحتضنه أمه مؤيدة لسلوكه وهو يتذكر دائماً تجربته لذلك وهو فى طفولته، ولأن هذه المتعة ليست متاحة له الآن، فإنه يشعر بأن شيئاً لا يهم، فظالماً فرض عليه أن يأثم، فليأثم إذن بشدة.

فعندما يقع فى الحب، فإنه يبحث عن مشاعر الأمومة، ولكنه لا يستطيع قبولها نتيجة للصورة الأم، فهو لا يشعر بأى احترام لامرأة

يكون له علاقة جنسية معها، وبالتالي ونتيجة لخيبة الأمل تلك، يصبح قاسياً، ثم يندم على قسوته، ثم يبدأ مرة أخرى من جديد فى الدائرة الجهنمية من تخيل الإثم والندم الحقيقى عليه. هذه هى الحالة النفسية لكثير من القانطين، فالذى يؤدى بهم إلى الدمار الكامل هو الولاء لشيء لا يمكن الحصول عليه (الأم أو بديل الأم) نتيجة تلقينه قيما بالية فى سنوات عمره الأولى، والتحرر من طغيان المعتقدات والعواطف المبكرة هو أول الخطوات فى اتجاه السعادة لضحايا «الفضيلة» الأموية.

(٥)

أما النرجسية، فهى عكس الإحساس الدائم بالإثم، فهى الإعجاب بالذات، والرغبة فى أن يعجب بها الآخرون. هذا الإحساس يكون طبيعياً ولا غبار عليه إذا ما توقف عند حد معين، ولكنه يكون شراً مستطيئاً عندما يتجاوز هذا. وبالنسبة لكثير من النساء، وعلى وجه الخصوص، نساء الطبقة الغنية، فإن القدرة على الإحساس بالحب تكون قد جفت تماماً وحلت محلها رغبة قوية فى أن يعشقهن كل الرجال. وعندما تتأكد إحدى نساء هذا الطراز من أن رجلاً يحبها، فإنها لا تجد فى نفسها حاجة أخرى إليه، ونفس الشيء يحدث وإن كان بمعدل أقل مع الرجال، والمثل التقليدى على ذلك بطل رواية «علاقة خطيرة»، وعندما يصل الغرور إلى هذا الحد لا يمكن أن يكون هناك اهتمام حقيقى بأى فرد آخر، وبالتالي لا يمكن أن يؤدى

الحب إلى أى رضا حقيقى، كما أن الاهتمامات الأخرى تفشل فشلاً ذريعاً، فالنرجس مثلاً، الذى يعجب بالحفاوة التى يتمتع بها الرسامون العظام قد يصبح دارساً للفن، ولكن لأن الرسم ما هو إلا وسيلته لغاية معينة، فإن أسلوبه لا يصبح متميزاً أبداً، ولا يمكنه رؤية أى موضوع ما لم يكن له علاقة بذاته، وتكون النتيجة فشله وخيبة أمله والسخرية بدلاً من الحفاوة، وينطبق نفس الشئ على الروائيات اللاتى يجعلن من أنفسهن بطلات لرواياتهن، فكل نجاح حقيقى فى عمل ما يعتمد على الاهتمام الخالص بالمادة التى يتجه إليها هذا العمل، ومأساة السياسى الناجح أو مأساة السياسيين الناجحين واحداً تلو الآخر، هو الحلول التدريجى للنرجسية محل الاهتمام بالمجتمع وللقيم التى يناضل من أجلها. فالرجل الذى لا يهتم إلا بنفسه لا يمكن الإعجاب به، ولا يمكنه أن يشعر بذلك، وبالتالي الرجل الذى هدفه الوحيد فى الحياة هو أن يعجب به العالم لا يمكن أن ينال غرضه وحتى إذا نال هذا الغرض، فلن يكون سعيداً تماماً، لأن الغريزة الإنسانية ليست ذاتية بصورة كاملة.

والنرجسى يحدّ من منطلقات نفسه تماماً مثل الرجال الذى تسود مشاعره أحاسيس الإثم، فالرجل البدائى قد يفخر بكونه صائداً متمرساً، ولكنه يستمتع أيضاً بعملية المطاردة والقتل، ولكن الغرور عندما يتجاوز نقطة معينة يقتل المتعة فى كل نشاط، وبالتالي يؤدى حتماً إلى الفتور والملل. وعادة ما يكون مصدر ذلك هو انعدام الثقة

فى النفس وعلاجه يكون فى زىادة احترام النفس؁ ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بالنشاط الناجح والمستلهم من الاهتمامات الموضوعية .

(٦)

والمصاب بجنون العظمة يختلف عن النرجسى فى أنه يود أن يكون قويًا لا فائقًا؁ ويود أن يهابه الآخرون؁ لا أن يحبوه؁ وينتمى لهذا الطراز كثير من المجاذيب وأغلب الرجال العظام فى التاريخ؁ فحب القوة مثله فى ذلك مثل الغرور؁ يعد عنصرًا قويًا فى الطبيعة البشرية السوية وبالتالى يتحتم قبوله ولكنه يكون مكروهًا فقط عندما يزيد عن حده أو يرتبط بإحساس غير كاف بالواقع . وعندما يحدث ذلك؁ فإنه يجعل الإنسان تعيشًا أو أحرق إن لم يكن كليهما معًا . والمجذوب الذى يعتقد أنه أمير متوج؁ قد يكون بمعنى أو بآخر سعيدًا ولكن سعادته ليست من الطراز الذى يمكن أن يحسده عليه أى إنسان عاقل . فالإسكندر الأكبر كان من الناحية السيكلوجية من هذا الطراز من المجاذيب رغم أنه كان يملك موهبة تحقيق حلم المجذوب؁ فهو لم يستطع تحقيق حلمه الخاص الذى اتسعت مراميه باضطراب انجازاته؁ فعندما بات واضحًا أنه أعظم الغزاة وأكثرهم شهرة؁ قرر أنه إله؁ فهل كان سعيدًا كإنسان؟ إن سكره وفوران غضبه وعدم ميله إلى النساء وادعاءه بالآلوهية؁ كل ذلك يشير إلى أنه لم يكن سعيدًا؁ فلا يمكن أن يصل الإنسان إلى الرضا إذا ما اهتم بعنصر واحد من عناصر

الطبيعة البشرية على حساب كل العناصر الأخرى، ولا فى النظر إلى العالم كمادة خام لعظمة الذات .

والمصاب بجنون العظمة سواء كان عاقلاً أو غير عاقل هو فى العادة نتاج للهوان الفائق؛ فنبوليون عانى فى المدرسة من وضاعة أصله بالنسبة لرفاق الدراسة الذين كانوا أرسقراطيين أغنياء، بينما كان هو صبيًا معوزًا حاصلاً على منحة دراسية، وعندما سُمح بعودة المهاجرين كان مما يتمتع رؤية رفاق الدراسة السابقين ينحنون أمامه، فى لها من نشوة!! ولكنها أدت إلى رغبته فى أن يحصل على نفس النشوة على حساب القيصر، فقاده ذلك إلى معتقل سانت هيلانه، فحيث أنه لا يمكن لأى رجل أن يكون قادراً على كل شىء، فالحياة التى يسودها حب القوة لا بد وأن تواجه عقبات لا يمكن تجاوزها، ولا يحول دون إدراك ذلك إلا سيطرة الجنون على الشعور رغم أن الرجل إذا ما كان عظيمًا بدرجة كافية أمكنه اعتقال أو إعدام أولئك الذين يوضحون له ذلك. فالقمع يتلازم معناه السياسى مع معناه النفسى، وعندما يقع القمع النفسى بأى شكل جوهرى لا يمكن أن توجد سعادة حقيقية، فالعودة إذا ما وضعت فى إطارها المناسب قد تضيف إضافة عظيمة للسعادة ولكن وضعها كغرض وحيد للحياة يقود إلى كارثة داخلية إن لم تكن خارجية.

(٧)

ومن الواضح أن المسببات النفسية للتعاسة عديدة ومختلفة، وإن كانت لها خصائص مشتركة، فالإنسان التعس هو الذى إذا ما حرم بعض المتع الطبيعية فى شبابه، أصبح يولى هذه المتع أهمية خاصة أكثر من أى شىء آخر عندما يكبر، وبالتالي يعطى حياته اتجاهاً وحيداً بتركيز غير منطقى على الهدف مقابل الأنشطة المتعلقة به .

(٨)

وفى هذه الأيام هناك تطور آخر شائع، فالإنسان قد يشعر بالإحباط لدرجة أنه لا يسعى لأى شكل من أشكال الإشباع، ولكنه ينشد فقط الذهول والنسيان، وبالتالي يصبح طريداً من المتعة، بمعنى أنه يريد أن يجعل الحياة محتملة بأن يكون أقل حياة، فالسكر مثلاً، عبارة عن انتحار مؤقت، والسعادة التى يؤدى إليها سلبية، فهى انعدام مؤقت للتعاسة، والنرجسى والمصاب بجنون العظمة كلاهما يعتقد أن السعادة ممكنة، رغم أنهما قد يتبنيان أساليب خاطئة للوصول إليها، ولكن الإنسان الذى يرغب فى تسميم نفسه بأى أسلوب يكون قد تخلى عن أى أمل فيما عدا النسيان، وفى هذه الحالة، فإن أول شىء يجب عمله هو إقناعه بأن السعادة مرغوبة، فالتعساء - كأولئك الذين يعانون من سوء النوم - عادة ما يكونون فخورين بذلك، وربما كان

اعتزازهم هذا مثل اعتزاز الشعب الذى فقد ذيله، فإذا كان الأمر كذلك، فعلاج هذه الحالة يكون بتوضيح أن بإمكانهم تكوين ذيل جديد، وقليل جداً من الناس فى اعتقادى سوف يختارون التعاسة إذا كان بإمكانهم أن يكونوا سعداء، وأنا لا أنفى وجود مثل هؤلاء الناس، ولكنهم ليسوا بالكثرة التى تجعل لهم أهمية، ولسوف أفترض أن القارئ يود أن يكون سعيداً لا تقيساً، ولا أدرى إن كنت أستطيع أن أساعده فى تحقيق هذه الرغبة، فهذا ما لا أعرفه ولكن المحاولة على أية حال لا يمكن أن تكون ضارة.

الفصل الثانى

التعاسة البيرونية

(1)

من الشائع فى أيامنا هذه، كما كان شائعاً فى فترات كثيرة من تاريخ العالم، افتراض أن الحكماء من بيننا قد عركوا كل حماسات الفترات المبكرة وأصبحوا مدركين أنه لم يعد هناك شئ باق يعيشون من أجله، والرجال الذين يعتنقون هذه النظرة هم تعساء بحق ولكنهم معتزون بتعاستهم تلك التى يرجعونها إلى طبيعة الكون ويعتبرونها المسلك المنطقى الوحيد للرجل المستنير. واعتزازهم بتعاستهم يجعل أولئك الذين هم أقل منهم تعقيداً يتشككون فى حقيقة هذه التعاسة، فهم يعتقدون أن الرجل الذى يستمتع بكونه تعيساً ليس بتعيس، وهذه النظرة بسيطة للغاية، فبدون شك هناك تعويض ضئيل فى الإحساس بالتمعالى وعمق الإدراك الذى يحسه أولئك الذين يعانون ولكنه غير كاف لتعويض فقدان المتع البسيطة، فأنا شخصياً لا أعتقد أن هناك إدراكاً متعالياً فى أن أكون تعيساً، فالرجل الحكيم سوف يكون سعيداً

ما سمحت الظروف بذلك، فإذا ما وجد أن التفكير فى الكون مؤلم، فإنه سوف يفكر فى شئ آخر بدلاً منه، وهذا ما أود إثباته فى هذا الباب، فأنا أود إقناع القارئ انه مهما كان الجدل، فالمنطق لا يضع قيوداً على السعادة، والأكثر من ذلك، فأنا مقتنع أن هؤلاء الذين يرجعون أحزانهم بأمانة إلى أفكارهم عن الكون يضعون بذلك العربة أمام الحصان، فالحقيقة أنهم تعساء لأسباب لا يدركونها، وهذه التعاسة تقودهم إلى التفكير فى الخصائص الأقل قبلاً للعالم الذى يعيشون فيه.

وبالنسبة للأمريكيين المحدثين، فإن وجهة النظر التى أود تناولها قد وضعها السيد جوزيف وود كرتش فى كتاب عنوانه «المزاج الحديث»، بينما بالنسبة لجيل الأجداد فقد وضعها بيرون، ولكل الأزمان وضعها كاتب سفر الجامعة بالتوراة. فالسيد كرتش يقول : «إن هدفنا ضائع، ولا مكان لنا فى الكون الطبيعى، ولكننا لسنا رغم كل ذلك آسفين على كوننا بشراً، فنحن نفضل أن نموت كرجال على أن نعيش كحيوانات».

ويقول بيرون : «لا توجد متعة فى هذا العالم تعطى مثلما تأخذ، عندما يتضاءل وهج الفكرة الباكورة إلى التحلل الخامل للإحساس».

ومؤلف «سفر الجامعة» بالتوراة يقول «لذلك مجّدت الموتى الذين ماتوا أكثر من الأحياء الذين لا يزالون يعيشون، ولكن الأفضل من الاثنين ذلك الذى لم يوجد بعد، الذى لم ير الشر المصنوع تحت الشمس».

(٢)

كل هؤلاء المتشائمين الثلاثة وصلوا إلى هذه النتائج الكئيبة بعد مراجعتهم لمتع الحياة، فالسيد كرتش عاش فى أرقى المستويات الفكرية بنيويورك، ويبرون عبرَ الدردنيل وكانت له علاقات غرامية لا حصر لها، ومؤلف سفر الجامعة بالتورا كان أكثر تنوعاً فى طلبه للملذات، فقد جربَ الخمر، وجرب الموسيقى، وشيئاً من كل شيء» وبنى فسقيات المياه وكان له خدام من الرجال وقيان من الجوارى وخدم مولودون فى منزله، وفى كل هذه الأحوال لم تفارقه حكمته قط، ورغم ذلك، فقد رأى أن كل ذلك باطل حتى الحكمة:

«فقد أعطيت قلبى لمعرفة الحكمة ولمعرفة الجنون والحمق: وأدركت أن ذلك أيضاً ما هو إلا تكدير للروح.. ففى الكثير من الحكمة كثير من الأسى، ومن يزداد علمه يزداد أساه».

فحكيمته يبدو أنها تضايقه ويبدل مجهودات غير ناجحة للتخلص منها: «فقلت فى قلبى: اذهب الآن، فسوف أغمرك بالغبطة، وبالتالى تستمتع باللذة ولكن احذر.. فهنا أيضاً باطل».

ولكن حكمته ظلت معه: «ثم قلت فى قلبى: إن ما يحدث للإله يحدث لى أيضاً فلماذا كنت أنا أكثر حكمة؟ فقلت فى قلبى: إن هذا أيضاً باطل وبالتالى كرهت الحياة، فالعمل الذى تم تحت الشمس يصيبنى بالأسى، فكل شيء باطل وتكدير للروح».

(٣)

ومن خط الأدباء أن الناس لم يعودوا يقرءون أى شىء كُتب قديماً، حيث إنهم إذا فعلوا فسوف يصلون إلى استنتاج أنه مهما قيل عن فسقيات المياه، فإن عمل كتب جديدة عنها هو بالتأكيد باطل. فإذا أمكننا إيضاح أن كتاب «سفر الجامعة» بالتوراة ليس هو الكتاب الوحيد المتاح للرجل الحكيم فلا يوجد مبرر لإرهاق أنفسنا كثيراً بالكتب الأحدث التى لها نفس النهج والمزاج. وفى جدل من هذا الطراز يجب أن تميز بين المزاج وتعبيره الفكرى، فلا يوجد جدل مع المزاج، فالمزاج يمكن تغييره بحدث موات أو بتغيير فى حالتنا الجسمية ولكن لا يمكن تغييره بالجدل، فكثيراً ما جربت أنا شخصياً المزاج الذى شعرت معه أن كل شىء باطل، وقد خرجت منه ليس بواسطة أى نوع من الفلسفة ولكن نتيجة ضرورة لازمة للفعل، فإذا كان طفلك مريضاً قد تكون غير سعيد ولكنك لن تحس بأن كل شىء باطل، وإنما ستحس بأن استعادة طفلك لصحته أمر يجب عليك الاهتمام به دونما النظر لما إذا كانت هناك قيمة قصوى للحياة الإنسانية، أم لا. فالرجل الغنى قد يحس - وغالباً ما يفعل - بأن كل شىء باطل ولكن إذا حدث وخسر ماله، فلن يحس بأن وجبته التالية هى بأى صورة من الصور أمر باطل، فذلك الإحساس هو وليد الإشباع شديد السهولة للاحتياجات الطبيعية. فالحيوان الإنسانى كغيره من الحيوانات متأقلم على كمية معينة من الصراع من أجل الحياة، وعندما يتمكن الإنسان بواسطة

الثروة الكبيرة من إشباع كل رغباته دونما مجهود، فإن مجرد غياب الجهد من حياته يزيل مكوناً رئيسياً من مكونات السعادة منها. فالإنسان الذى يمتلك بسهولة الأشياء التى يحس تجاهها برغبة متوسطة يستنتج أن الوصول إلى تحقيق رغباته لا يحقق السعادة. فإذا كان من ذوى الميول الفلسفية، فإنه يستنتج أن الحياة الإنسانية هى بالضرورة بائسة، حيث إن الإنسان الذى لديه كل ما يحتاجه لا يزال غير سعيد وينسى أن افتقار الإنسان لبعض الأشياء التى يحتاجها يعد جزءاً لا غنى عنه من السعادة.

كل ذلك كان عن المزاج، ولكن هناك أيضاً جدلاً فكرياً فى سفر الجامعة بالتوراة :

«النهر يصب فى البحر ولكن البحر ليس بملآن

لا جديد تحت الشمس

والأشياء التى مرت لا ذكرى لها

كرهت كل عملى الذى قمت به تحت الشمس، لأننى

يجب أن أتركه للإنسان الذى سيأتى من بعدى».

(٤)

فإذا ما حاول أحد أن يضع هذه المجادلات على النسق الفلسفى الحديث، فستصبح على النحو التالى: الإنسان فى كد مستمر، والمادة

فى حركة مستمرة ولا شىء يتوقف رغم أن الأشياء الجديدة التى تأتى لاحقاً لا تختلف بأى صورة من الصور عن الأشياء التى حدثت من قبل ، فالرجل يموت ويجمع وريشه فوائد عمله ، والأنهار تصب فى البحار ، ولكن ماءها غير مسموح له بالبقاء هناك ، والكرة تلو الكرة فى دائرة عديمة الغرض لا نهاية لها ، يولد الإنسان والأشياء ويموتون دونما أى تحسن ، دونما أى إنجياز دائم ، يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام ، فالأنهار لو كانت حكيمة لمكثت فى مكانها ، وسليمان إذا كان حكيماً لم يكن ليزرع أشجار الفاكهة التى منها سيحصل ابنه على الثمرة .

ولكن كيف تبدو كل هذه الأمور مختلفة بمزاج آخر؟ ماذا عن ناطحات السحاب ، الطائرات ، وخطب الساسة المذاعة؟ ماذا كان سليمان(*) يعلم عن هذه الأشياء؟ فإذا كان قد تمكن من سماع خطبة ملكة سبأ لرعاياها فى الإذاعة عند عودتها من ممالكه ، أما كان فى ذلك تغزية له وهو بين أشجاره وفسقياته؟ إذا كانت لديه وكالة إعلامية تجعله يدرك ما قالته الصحف عن بديع عمارته وراحة حريمه واندحار أنداده فى محاوراتهم معه ، أكان سيذهب للقول بأنه لا جديد تحت الشمس! ربما لم تكن هذه الأشياء ستشفيه تماماً من التشاؤم ولكنها كانت لابد أن تعطيه تعبيراً جديداً . وبالتأكيد ، فإن إحدى شكاوى السيد كرتش من زماننا هذا هى أنه يوجد الكثير من الأشياء الجديدة تحت

(*) سفر الجامعة بالتوراة ليس بالطبع من وضع سليمان ، وإن كان من الملثم الإشارة إلى المؤلف بهذا الاسم (المؤلف) .

الشمس، فإذا كان غياب أو وجود الحديد كلاهما مزعج بنفس الدرجة، فإنه من الصعب أن يكون أحدهما هو السبب الحقيقي لليأس. ومرة أخرى، أنظر إلى الحقيقة: «كل الأنهار تصب في البحار ولكن البحر لا يزال غير ملىء، إن الأنهار لتعود مرة أخرى إلى المكان الذي جاءت منه». فبغض النظر عن أنها سبب للتشاؤم، فإن ذلك يفترض أن السفر غير ممتع، فالناس تذهب للمنتجات في الصيف ولكنها تعود مرة أخرى إلى المكان الذي جاءت منه ولا يبرهن ذلك على عدم جدوى الذهاب إلى المنتجعات في الصيف، فلو وهبت المياه القدرة على الإحساس، فغالبًا ما كانت ستستمتع بدورة المغامرة على غرار «سحابة» شيلسى.

(٥)

أما عن ألم ترك الأشياء لوارث فهذا الأمر يمكن النظر إليه من زاويتين، فمن وجهة نظر الوارث فهذا الأمر بالتأكيد يعد أقل ضررًا، وحقيقة أن كل الأشياء تزول لا تشكل سببًا للتشاؤم، فلو أن الأمور تبعثها أمور أسوأ فقد يكون ذلك مبررًا للتشاؤم، ولكن لو تبعثها أمور أفضل فإن ذلك يعد مبررًا للتفاؤل، فماذا ترانا نظن إذا ما كانت الأمور تتبعها أمور مماثلة لها تمامًا كما كان يعتقد سليمان؟ ألا يجعل ذلك كل هذه العملية عديمة الجدوى؟ بالطبع لا، ما لم تكن المراحل المختلفة مؤلمة في حد ذاتها.

وعادة النظر إلى المستقبل والتفكير قى أن كل معنى للحاضر يكمن فيما سوف يأتى به هى عادة ضارة فلا يمكن أن تكون هناك قيمة للكل ما لم تكن هناك قيمة للأجزاء، والحياة لا يجب النظر إليها كما ينظر الميلودراما التى يمر فيها البطل والبطلة بمأسى مفاجئة ثم تعويضهما عنها بالنهاية السعيدة، فأنا أعيش ولدىّ يومى وابنى سيخلفنى وسيكون له يومه وابنه بدوره سيخلفه، فعلى العكس، إذا عشت إلى الأبد فإن مباحج الحياة لا بد وأن تفقد طعمها فى النهاية، أما على حالتها الراهنة فهى متجددة عامًا بعد الآخر.

«إنى لأدفىّ كلتا يديّ أمام نار الحياة

هى تذوى وأنا مستعد للرحيل»

هذا السلوك منطقى بنفس الدرجة كالسخط من الموت، فإذا ما كانت الأمزجة تتحدد بالعقلانية فستوجد مميزات للتفاضل مساوية لتلك الخاصة باليأس.

(٦)

وسفر الجامعة بالتوراة مأساوى وكتاب «المزاج الحديث» للسيد كرتش متشائم، فالسيد كرتش فى أعماقه حزين لأن يقين الأزمان القديمة قد تهاوى، وتهاوى أيضًا بعض اليقين الذى له أصول أحدث. «أما عن هذا الزمن الحالى التعس، الذى تنوشه أشباح عالم ميت،

ولم يصل بعد إلى موقعه الخاص به ، فمأزقه لا يختلف عن مأزق الشاب البالغ الذى لم يتعلم بعد توجيه نفسه دوماً الرجوع إلى الدين الذى عرفه خلال مرحلة طفولته». هذه الجملة صحيحة تماماً إذا طبقت على قطاع معين من المثقفين وهم الذين - لأنهم قد تلقوا تعليمًا أدبيًا - لا يعلمون شيئاً عن العالم الحديث ، ولأنهم خلال شبابهم تم تدريبهم على تأسيس معتقداتهم على عواطفهم ، لا يمكنهم تخليص أنفسهم من هذه الرغبة الطفولية فى السلامة والحماية والتي لا يمكن لدينا العلم أن تشبعها . فالسيد كرتش شأنه فى ذلك شأن معظم المتأدبين ، تستحوذ عليه فكرة أن العلم لم يف بوعوده وهو بالطبع لا يخبرنا ما هذه الوعود؟ ولكن يبدو أنه يعتقد أنه من ستين سنة كان رجال مثل دارون وهكسلى يتوقعون شيئاً من العلم لم يعطه- وأنا أرى أن ذلك وهمٌ كاملٌ أوجده أولئك الكتاب ورجال الدين الذين لا يريدون أن يُنظر إلى ما تخصصوا فيه على أنه قليل القيمة . صحيح أن العالم فى اللحظة الحالية يوجد به كثير من المتشائمين ، فدائماً ما وجد كثير من المتشائمين أينما وجد أناس تضاءلت دخولهم ، والسيد كرتش أمريكى ، والدخول الأمريكية على وجه الإجمال زادت نتيجة الحرب ولكن الطبقات المتعلمة عبر قارة أوروبا عانت بشدة ؛ لأن الحرب فى حد ذاتها أعطت كل فرد إحساساً بعدم الاستقرار مثل هذه المصائب الاجتماعية ، فهى لها أيضاً علاقة كبيرة بمزاج حقبة زمنية كاملة عما لنظرية طبيعية الكون ، فقليل من العصور كان أكثر يأساً من القرن الثالث عشر رغم أن هذا الإيمان الذى يأسف السيد كرتش عليه

كثيراً كان موجوداً لدى كل فرد فيما عدا الإمبراطور وقليل من النبلاء الإيطاليين العظام، لهذا يقول روجر بيكون «لأن الخطايا التي توجد في أيامنا هذه هي أكثر من أى عصر مضى، والخطيئة لا تتوافق مع الحكمة، دعنا ننظر إلى كل الأحوال في العالم ونولها الاعتبار في كل مكان، فسنجد فساداً لا حدود له، وبالدرجة الأولى في الرأس، فالعُهرّ دنس البلاط بكامله، والنهم هو سيد الجميع. فإذا كان ذلك ما حدث في الرأس فكيف يكون حال باقى الأعضاء؟ وننظر إلى التعاليم الدينية، وأنا لا أستعيد شيئاً مما أقول... أنظر كيف تسقط واحدة وجميعاً من مكانتها الحقّة كما أن التعاليم الجديدة اضمحلت بالفعل بصورة مفزعة عن سابق وقارها، فالكهنوت الكنسى بكامله مولى بالاستعلاء والعُهرّ والشح وما اجتمع رجال الكهنوت معا سواءً بياريس أو أوكسفورد إلا وفضحوا الكنيسة بحروبهم وصراعاتهم وغير ذلك من الآثام... لا أحد يهتم بما يتم عمله أو كيف يتم طالما تمكن كل منهم من إشباع شهوته». وفيما يتعلق بالحكماء الوثنيين بالآزمان الغابرة، يقول: «كانت حياتهم بكل المعايير أفضل من حياتنا، سواء في لياقتهم أو في احتقارهم للعالم بكل مباهجه وِغناه وفخامته، فكما قد يقرأ الناس في أعمال أرسطو، وسينيكّا، وتللى، وابن سينا، والفارابى، وأفلاطون، وسقراط، وغيرهم، فقد توصلوا إلى أسرار الحكمة وأوجدوا كل المعرفة».

(٧)

روجر بيكون يرى أنه من بين كل معاصريه من المثقفين لم يحب أحدهم العصر الذى وجد نفسه فيه، وأنا لا أعتقد للحظة، أن هذا التشاؤم له أى سبب فلسفى، بل كانت أسبابه الحرب والفقر والعنف.

ومن الفصول المحزنة جدا فى كتاب السيد كرتش ذلك الفصل الذى يتعرض فيه لموضوع الحب، فيبدو أن أرباب العهد الفكتورى كانوا يولونه قيمة عظيمة، ولكننا «بتعقيدنا الحديث علينا أن نبلوه إدراكاً» فالأكثر التحفظيين فى العهد الفكتورى، كان الحب يقوم ببعض وظائف الإله الذى فقدوه، وعندما واجهوا ذلك، تحول كثير من المتعصبين - بصورة مؤقتة - إلى صوفية فقد وجدوا أنهم فى حضرة شيء يوقظ فيهم الإحساس بالاحترام وهو ما لم يفعله أى شيء آخر، شيء أحسوا تجاهه حتى فى أعماق وجودهم، بولاء غير محدود. فبالنسبة لهم كان الحب كالإله، يطلب كل التضحيات ويجزى المؤمن بأن يعطى يعطى معنى لمظاهر الحياة التى لم يتم فهمها بعد، ونحن قد نشأنا معتادين أكثر منهم على كون بلا إله، ولكننا لم نعتد بعد على كون بلا حب، وعندما نعتاد ذلك أيضاً فلسوف ندرك ما يعنيه الإلحاد حقيقةً.

(٨)

من الطريف أن يبدو العهد الفيكتورى مختلفا لشباب زماننا هذا عما يراه واحد من عاشوا فيه، فأنا أذكر اثنتين من السيدات العجائز،

كلتاهما مطابقة لخصائص معينة من خصائص ذلك العهد، وكنت اعرفهما جيداً في صباى، الأولى كانت تأسف كثيراً لأن معظم الشعر عن الحب الذى تعتقد هى أنه موضوع غير ذى بال، أما الأخرى فقد أبدت هذه الملاحظة «رغم أن أحداً لا يستطيع أن يقول شيئاً ضدى، فأنا أقول دائماً أن كسر الوصية السابعة مثله مثل كسر الوصية السادسة ليس أمراً بالغ السوء، لأن ذلك يتطلب على أية حال موافقة الطرف الآخر»، ووجهتى النظر هاتين ليستا مماثلتين لما أورده السيد كرتش على أنه النمط الفيكتورى، فأفكاره من الواضح أنها مشتقة من كتاب بعينهم لم يكونوا على وفاق مع الوسط المحيط بهم، وأفضل مثال هو روبرت براوننج، فأنا لا أستطيع مقاومة الإحساس بأن رؤيته للحب بها شيء مقبض:

«الحمد لله، فأدنا مخلوقاته

يتباهى بأن له نفسين، نفس يواجه بها العالم

وأخرى يريها للمرأة عندما يطارحها الغرام» .

وهذا ما يجعل الشراسة هى السلوك الوحيد فى مواجهة العالم على اتساعه، لماذا؟ لأن العالم قاس كما يقول براوننج، بل لأنه لن يقبلك وفقاً لتقييمك الخاص، كما يجب أن نقول نحن. فقد يكون اثنان، كما كون الثنائى براوننج، إعجاباً متبادلاً، فمن الممتع حقاً أن يكون فى متناول يدك شخص من المؤكد أنه سيمتدح عملك سواء كان

عملك يستحق أم لا . ولقد كان براوننج، بلا شك، يحس أنه شخص رفيع التكوين ورجل عن حق عندما قام بالتشهير بفيتزجيرالد بصورة غير مسبقة لأنه تجراً ولم يعجب بأورورا لايه .

ولا يمكننى الإحساس بأن تعطيل القدرة النقدية عند كلا الطرفين أمر يستحق الإعجاب لأنه يتخلله الخوف والرغبة فى اللجوء إلى ملاذ من لسعات النقد غير المتحيز الباردة، وكثير من العزاب المسنين يتعلمون كيف يحصلون على نفس الإشباع من جانب المدفأة الخاصة بهم .

(٩)

ولقد عشت طويلاً فى العهد الفكتورى إلى الحد الذى لا يمكن معه القول وفقاً لمعايير السيد كرتش أننى محدث، فأنا لم أفقد إيمانى بالحب، لأن الحب الذى أؤمن به حب مغامر، مفتوح العينين، وهو بينما يعطى معرفة الخير لا يشتمل على نسيان الشر، ولا يدعى الطهر ولا القداسة . وإرجاع هذه الخصائص إلى نوع الحب الذى كان مفضلاً فى ذلك الوقت كان مرده تحريم الجنس، فالفرد فى العهد الفكتورى كان شديد الاقتناع بأن معظم الجنس شر، وكان عليه أن يضع شروطاً مبالغاً فيها لنوع الحب الذى يقره ويرضاه، ولقد كان الجوع الجنىسى فى ذلك الوقت أكثر مما هو عليه الآن مما دفع الناس بلا شك إلى المبالغة فى أهمية الجنس كما يفعل الرهبان دائماً .

ونحن نمر فى أيامنا هذه بفترة متخبطة، حيث تخلّص كثير من الناس من القيم القديمة دون أن يكتسبوا قيمًا جديدة، وقد قادهم ذلك إلى مختلف المتاعب. ولأن عقلهم غير الواعى لا يزال يؤمن بالقيم القديمة فإن متاعبهم عندما تحدث تؤدى بهم إلى اليأس والندم والزهد. ولا أعتقد أن عدد الناس الذين يحدث لهم ذلك كبير جدًا، ولكنهم من بين أكثر الناس حديثا فى زماننا هذا، وأعتقد أنه إذا أخذنا أواسط الناس صغار السن، والمقتدرين ماديا فى هذا الزمن وفى العهد الفكتورى، فسنجد أن السعادة المتصلة بالحب هى الآن أكبر كثيرًا وأن الاعتقاد فى قيمة الحب هى الآن أكبر كثيرًا عما كانت عليه منذ ستين عامًا.

(١٠)

والأسباب التى تدفع بعض الأشخاص إلى الزهد مرتبطة بطغيان المثل العليا القديمة على العقل غير الواعى، وبغياب الرشد الأخلاقى الذى يمكن عن طريقه لأهل زماننا الحالى تنظيم سلوكهم، والعلاج لا يكمن فى التحسر والحنين للماضى ولكن فى القبول الشجاع للنظرة الحديثة والتصميم على اقتلاع كل الخرافات المهمة من كل أماكن اختفائها الغريبة.

وأن تقول باختصار : لماذا يضع الفرد قيمة للحب؟ ليس بالأمر السهل، ورغم ذلك فسوف أحاول، فالحب يجب أن تكون له قيمة منذ الوهلة الأولى لأنه فى حد ذاته مصدر للفرحة ورغم أن ذلك قد لا يكون أعظم قيمة للحب، فإنه يعد أساسيًا لكل القيم الأخرى.

«آه يا حب، يخطئون فيك كثيراً

عندما يقال أن حلوك مرّ

رغم أن ثمارك الغنية

لا شئ أكثر منها حلاوة» .

والكاتب المجهول لهذه الأبيات لم يكن ينشد حلاً للإلحاد، أو مفتاحاً لفهم الكون، بل كان يُمتّع نفسه فحسب، والحب ليس فقط مصدراً للفرحة، ولكن غيابيه مصدر للألم. وفي المقام الثانى، فإن الحب يجب أن تكون له قيمة لأنه يضخم كل وأفضل المتع مثل الموسيقى وإشراق الشمس على الجبال ومنظر البحر تحت القمر الطالع. والرجل الذى لم يستمتع مطلقاً بالأشياء الجميلة عندما يكون بصحبة المرأة التى يحبها لا تكتمل معرفته بالقوة السحرية لهذه الأشياء. ومرة أخرى، فالحب قادر على تخطيط القشرة الصلبة للذات، وحيث إنه نوع من التعاون الحيوى تكون فيه عواطف كل طرف ضرورية لإشباع الأغراض الغريزية للطرف الآخر. ولقد وجد فى العالم فى أوقات مختلفة فلاسفة متفردون عديدون، بعضهم كان شديد النبل وبعضهم كان أقل من ذلك. والرواقيون، والمسيحيون الأوائل اعتقدوا أنه بإمكان الإنسان الوصول إلى أفضل ما يمكن أن تحقّقه الحياة بإرادته وحدها أو على أية حال دونما أى مساعدة بشرية، والبعض اعتبروا أن القوة هى غاية الحياة، وإن كانت لا تزال بالنسبة للبعض مجرد متعة شخصية.

(11)

كل هذه عبارة عن فلسفات انفرادية، بمعنى أن الخير من المفروض أن يكون شيئاً يمكن تحقيقه في كل فرد بمفرده وليس فقط في مجتمع صغير أو كبير من الأفراد، كل هذه الآراء بالنسبة لتفكيرى، زائفة ليس فقط فيما يختص بالنظرية الأخلاقية ولكن كتعبيرات عن أفضل ما فى غرائزنا. فالإنسان يعتمد على التعاون، وقد أوتى الطبيعة وإن كانت بدرجة ما غير كافية هذا صحيح، وكذلك أوتى الجهاز الغريزى الذى يمكن أن تنبع منه الصداقة اللازمة للتعاون، والحب هو أول وأكثر صور العاطفة التى تقود إلى التعاون شيوعاً، وأولئك الذين جربوا الحب بأية درجة لن يقنعوا بفلسفة تفترض استقلال خيرهم عن خير أولئك الذين يحبونهم، وفى هذا الخصوص فالأحاسيس الأبوية تكون حتى أشد قوة ولكن الأحاسيس الأبوية فى أفضل صورها هى نتيجة للحب الذى وجد بين الوالدين، ولا أدعى أن الحب فى أقصى صورته شائع، ولكننى لا أزال أعتقد أن الحب فى أقصى صورته يكشف عن قيم كان لابد - فى غير هذه الحالة - أن تظل غير معروفة، وأنه فى حد ذاته له قيمة لا يعتورها الزهد رغم أن الزاهدين الذين لا يستطيعون الحب قد يرجعون عدم قدرتهم على الحب بطريقة زائفة إلى الزهد:

«الحب الحقيقى نار خالدة

تحترق دومًا فى العقل
لا تضعف، لا تموت ولا تبرد
ولا تتحول عن نفسها أبدًا» .

(١٢)

وأعود مرة أخرى إلى ما قاله السيد كرتش عن المأساة . فهو مقتنع ، وأوافقه على ذلك ، أن «الأشباح» لإيسن ، أردأ من «الملك لير» ، «لا توجد قوة تعبيرية زائدة ، ولا موهبة عظيمة مع الكلمات يمكنها تحويل إيسن إلى شكسبير . فالمادة التى صاغ منها الأخير أعماله ، وإدراكه لكرامة الإنسان ، وإحساسه بأهمية عواطف الإنسان ورؤيته لتنوع الحياة الإنسانية ، لا يمكن ببساطة أن تكون لإيسن كما أنها لم تكن لأى من معاصريه ، فالله والإنسان والطبيعة قد تضاءلوا خلال القرون التى مرت بين شكسبير وإيسن ، ليس لأن المدرسة الواقعية للفن الحديث جعلتنا نتطلع إلى بشر حقراء ، ولكن لأن حقارة الحياة الإنسانية قد فرضت علينا فرضًا نتيجة لنفس المراحل التى أدت إلى تقدم النظريات الواقعية للفن والتى بها يمكن تبرير رؤيتنا» . وهذه بغير شك هى قضية أن طراز المأساة القديم الذى تعامل مع الأمراء وأحزانهم ليس مناسبًا لعصرنا . وعندما نحاول أن نتعامل بنفس الأسلوب مع أحزان فرد شاذ فلن يؤدى ذلك إلى إحداث نفس الآثار ، وليس السبب هو تدهور نظرنا للحياة ولكنه نقيض ذلك ، إذ يرجع

فى الحقيقة إلى أننا لا نستطيع الآن اعتبار أن بعض الأشخاص هم
عظماء الأرض ولهم الحق فى العواطف المساوية، بينما الباقون يجب
أن يكدوا ويتعبوا ليتتجوا عظمة هذه القلة.

فشكبير يقول:

«عندما يموت الشحاذون لا تظهر مُدَبَّبات

ولكن السموات ذاتها تلتهب معلنة موت الأمراء».

ففى أيام شكسبير كانت هذه العاطفة تعبر عن نظرة تكاد أن
تكون كونية، رغم أن أحداً لم يصدقها حرفياً، وقد قبلها شكسبير
نفسه. لهذا كان موت الشاعر كوميدياً بينما كان موت قيصر وبروتس
وكاسيوس مأساوياً.

(١٣)

والأهمية الكونية لموت شخص، غير معروفة لنا لأننا أصبحنا
ديمقراطيين، ليس فقط فى أشكالنا الخارجية ولكن فى أعماق معتقداتنا
أيضاً. فالمأساة المفجعة فى أيامنا هذه يجب عليها الاهتمام بالمجموع
وليس بالفرد، ولسوف أعطى مثلاً لما أعنيه بكتاب «المجموع والإنسان»
لآرنست مولر، ولا أدعى أن هذا العمل بنفس مستوى جودة أعمال
العصور الماضية، ولكنى أعتقد أنه نظير لها بدرجة عادلة، فهو نبيل،
شامل وواقعى، ويتعلق بأعمال بطولية، و«يظهر القارئ عبر التقلب

بين الإشفاق والرهبة»، كما طلب أرسطو في العمل أن يكون، وهناك قليل من الأمثلة لهذا الطراز الحديث من المأساة حيث إن الأسلوب القديم والعادات القديمة كان يجب تركهما دون أن يحل محلها أمر تعليمي معتاد. فلكى يكتب فرد ما مأساة يجب أن يحس بالمأساة، ولكن لكى يحس بالمأساة يجب على الفرد أن يكون مدرّكاً للعالم الذى يعيش فيه، ليس فقط بعقله، ولكن بدمه وأعصابه. والسيد كرتش يتحدث عبر كتابه وعلى فترات متلاحقة عن اليأس، وأنه لمؤثر للغاية قبوله البطولى لعالم كئيب، ولكن الكآبة ترجع إلى حقيقة أنه هو ومعظم المثقفين لم يتعلموا بعد أن يحسوا بالعواطف القديمة كاستجابة لمنبهات جديدة، فالمنبهات موجودة ولكن ليس فى الحلقات العلمية، فالحلقات العلمية ليس لها اتصال حىّ بحياة المجتمع رغم أن مثل هذا الاتصال يعد ضرورياً إذا ما كان لأحاسيس الرجال الجدية والعمق اللذين بهما تتصاعد المأساة أو السعادة الحقيقية.

(١٤)

ولكل الشباب الموهوبين الذين يدورون حول الأحاسيس بأن العالم ليس فيه شىء مهم ليعملوه، يجب أن أقول : «دعوا محاولة الكتابة وبدلاً من ذلك حاولوا ألا تكتبوا، اذهبوا إلى العالم، ولتصبحوا قراصنة، أو ملوكاً فى بورنيو، أو عمالاً فى روسيا

السوفيتية، وامنحوا أنفسكم وجودًا يستحوذ فيه إشباع رغباتكم
الجسدية الأولية على كل طاقاتكم».

ولا أقترح هذا المسار لكل فرد ولكن فقط لأولئك الذين يعانون
من المرض الذى يشخصه السيد كرتش، وأعتقد أنه بعد عدد من
السنين فى مثل هذا الوجود فإن المفكر السابق سيجد أنه بالرغم مما
يبدله من مجهود لا يستطيع الإقلاع عن الكتابة، وعندما يحين هذا
الوقت لن تبدو له كتابته عديمة القيمة.

الفصل الثالث

التنافس

(١)

إذا سألت أى رجل فى أمريكا أو أى رجل أعمال فى إنجلترا: ما الشيء الذى يتعارض مع استمتاعه بوجوده؟ فسوف يجيبك : «الصراع من أجل الحياة». هو يقول ذلك بكل إخلاص لأنه يؤمن بذلك، وبمدلول ما، يُعدُّ ذلك صحيحًا، ولكن بمدلول آخر شديد الأهمية يعد ذلك زائفًا بدرجة كبيرة. فالصراع من أجل الحياة أمر يحدث بالطبع، لأنه قد يحدث لأى منا إذا ما كان سيء الحظ، فقد حدث مثلاً لبطل كونراد «فولك» الذى وجد نفسه على متن سفينة مهجورة واحداً من اثنين من رجال الطاقم يحملان سلاحاً نارياً، وليس أمامهما من طعام سوى غيرهما من الرجال. وعندما انتهى الرجلان من الوجبة التى اتفقا عليها، بدأ بينهما صراع حقيقى من أجل الحياة. وقد انتصر «فولك» ولكنه صار بعد ذلك نباتياً إلى الأبد.

(٢)

بالطبع ليس هذا ما يقصده رجل الأعمال عندما يتحدث عن الصراع من أجل الحياة، فهي جملة غير دقيقة التقطها واستخدمها كى يضمنى الأهمية على أمر تافه فى أساسه. اسأله : كم من الرجال الذين عرفهم من طبقته ماتوا جوعاً؟ اسأله : ما الذى حدث لأصدقائه عندما حاق بهم الخراب؟ فكل فرد يعلم أن رجل الأعمال الذى حاق به الخراب يزيد كثيراً فيما يملك من وسائل الراحة المادية، أى رجل لم يكن أبداً غنياً بالدرجة الكافية التى تسمح بخرابه، فالذى يعنيه الناس إذن بالصراع من أجل الحياة هو فى الحقيقة صراع من أجل النجاح، وما يخشاه الناس عندما ينشغلون فى الصراع ليس أنهم قد يفشلون فى الحصول على إفطار صباح اليوم التالى، ولكن فى أنهم قد يفشلون فى التحيز عن جيرانهم.

وإنه من الغريب ألا يدرك البشر بدرجة كافية أنهم ليسوا فى قبضة آليات لا فكاك لهم منها، إنما هم يدورون فى طاحونة العمل لأنهم لم يدركوا قط أنها لم تدفع بهم لأعلى. أنا أفكر بالطبع فى رجال الأعمال فى المستويات العالية وهم الرجال الذين لديهم دخل جيد ويمكنهم لو شاءوا أن يعيشوا على ما يملكونه، ولكنهم إن فعلوا، فسيبدو ذلك لهم أمراً مشيناً كأفراد من الجيش عند مواجهة العدو، رغم أنك إن سألتهم عن الهدف العام الذى يخدمونه بعملهم هذا، فسوف يحسون بالحيرة خاصة عندما يراجعون التفاهات التى توجد

بالإعلانات عن تلك الحياة الجادة. فلننظر إلى حياة شخص بالكيفية التالية: لديه، كما قد نفترض، منزلاً بديعاً وزوجة جميلة، وأطفالاً فاتنين، هو يستيقظ مبكراً فى الصباح وهم لا يزالون بعد نياماً، ويسرع إلى مكتبه حيث يكمن واجبه فى إظهار مواهب المدير العظيم، ففكه قوى الانطباع، وحديثه قاطع، ومظهره متحفظ ومحسوب بدقة ليؤثر فى كل شخص فيما عدا فراش مكتبه، وهو يملأ الخطابات ويتحدث تليفونياً مع الكثير من الأشخاص المهمين، ويدرس السوق، ثم يذهب لتناول الغداء مع بعض الأشخاص الذين يعقد معهم أو يأمل أن يعقد معهم صفقة ما. ويحدث نفس الشئ فترة ما بعد الظهر، ويصل البيت متعباً والوقت يكاد يكفى بالكاد لارتداء ملابس العشاء، وعلى العشاء، عليه أن يدعى هو وعدد من الرجال المتغبين أمثاله أنهم يستمتعون بصحبة السيدات اللاتي لم يحلّ بهن التعب بعد، ومن المستحيل التنبؤ بالوقت الذى قد يستغرقه هذا المسكين حتى يتمكن من الهروب، وأخيراً ينام ويهدأ توتره لقليل من الساعات.

(٣)

الحياة العملية لهذا الرجل لها الخصائص النفسية لسباق المائة ياردة، ولكن لأن النهاية الوحيدة للسباق الذى يشترك فيه هو القبر، فإن التركيز الذى يعد ملائماً لمسافة مئة ياردة يصبح بالنسبة لحياة بكاملها أمراً مفزقاً! فما مدى ما يعرفه عن أولاده؟ فهو خلال أيام

الأسبوع يكون فى مكتبه، وفى أيام الأحد يكون فى نواذى الجولف، وما مدى ما يعرفه عن زوجته؟ فهو عندما يغادر فى الصبأ تكون لا تزال نائمة، وعبر المساء بكامله يكون هو وهى مشغولين بالواجبات الاجتماعية التى تمنعهما من إجراء أى حوار حميم، وربما لا يكون له صداقات مهمة مع أى من الرجال، رغم أن لديه صحبة يجد معها السرور الذى يود أن يحسه فعلاً، وما يعرفه عن أوقات الربيع والحصاد هو آثارهما على السوق. وربما يكون قد شاهد دولاً أجنبية ولكن بعيون يملؤها ملل عظيم، أما الكتب فتبدو له عديمة الجدوى، والموسيقا نوع من التعالى، وسنة بعد أخرى يصبح أكثر وحدة ويزداد انتباهه تركيزاً وتذيل حياته الخارجة عن إطار العمل تماماً.

(٤)

وقد شاهدت النموذج الأمريكى لهذا الطراز بأوروبا فى صورة رجل فى النصف الأخير من عمره تصحبه زوجته وابنتاه، وكان من الواضح أنهن قد أفنعن هذا المسكين بأن الوقت قد حان ليحصل على إجازة وأيضاً لتحصل البنتان على فرصة لتعرفا العالم القديم، وتحلقن الثلاث حوله فى نشوة بالغة تلفتن نظره لكل شىء طريف يبدو لهن، ورب الأسرة متعب غاية التعب، وقد بلغ به الملل مداه يتساءل عما يفعلونه فى هذه اللحظة بالمكتب، أو عن الذى يحدث فى عالم البيسبول، وأخيراً تدعه السيدات لحاله وقد قررن أن الرجال

ماديون ولا يشرق فى وعيهم أبداً أنه ضحية جشعهم، وهذا بالطبع ليس صحيحاً كما قد يبدو فى نظر الرجل الأوروبي عندما يشاهد الأرملة الهندية تموت حرقاً حزناً على زوجها، ففى تسع حالات من كل عشر تكون الأرملة ضحية مذعنة تهيأت للموت حرقاً فى سبيل المجد، ولأن الدين قد أمر بذلك، ودين رجل الأعمال ومجده يتطلبان منه جمع الكثير من المال مما يجعله كالأرملة الهندية يعانى هذا العذاب راضياً سعيداً.

ولكى يصبح رجل الأعمال الأمريكى أسعد حالاً يجب عليه أولاً أن يغير دينه، فطالما كان لا يرغب فى النجاح فحسب، بل هو مقتنع قناعة كاملة أنه من واجب المرء أن يسعى وراء النجاح، وأن من لا يفعل ذلك يعد مخلوقاً ضعيفاً، فستظل حياته غير سعيدة من شدة التركيز وشدة القلق.

خذ مثلاً بسيطاً وهو الاستثمار، فكل أمريكى تقريباً سيفضل الحصول على عائد ٨٪ من استثمار به مجازفة عن ٤٪ من استثمار آمن، والنتيجة هى الخسارة المتكررة للمال والقلق المستمر. وبالنسبة لى، فما أرغب أن يوفره المال هو الفسراغ مع الأمان. أما ما يرغب الرجل الحديث فى الحصول عليه من المال فهو مال أكثر لى يتباهى ويتعاطم ويز أولئك الذين كانوا حتى الآن أنداداً له.

(٥)

والسلم الاجتماعي في أمريكا لا نهاية له، ومتقلب باستمرار، وبالتالي فكل عواطف التعالي والعنجهية تصبح أكثر تذبذباً عما لو كان النظام الاجتماعي ثابتاً. فرغم أن المال في حد ذاته قد لا يكفي لجعل الناس عظماء، فإنه من الصعب أن يكون المرء عظيماً دون مال، وفوق ذلك، فالمال الذي يجمعه الفرد هو المعيار المقبول للذكاء، فالذي يجمع الكثير من المال يعد شخصاً ذكياً، والرجل الذي لا يفعل ليس ذكياً، ولا أحد يحب أن يكون غيباً، لذلك يشعر رجل الأعمال بنفس شعور الصغار عند الامتحان إذا ما انتابت السوق تقلبات حرجة.

(٦)

أعتقد أنه يجب الاعتراف بأن عنصراً حقيقياً- وإن كان غير رشيد- من الخوف مما قد يجره الخراب يعد من مقلقات رجل الأعمال. فأرنولد بنيت كلاي هانجر، على غناه الشديد ظل طوال حياته خائفاً من الموت في سجن المفلسين، ولا شك عندي في أن الذين عانوا في طفولتهم من الفقر الشديد تنتابهم مخاوف أن يعانى أولادهم نفس المعاناة ويشعرون أنه من الصعب بناء ما يكفي من الملايين لوقايتهم من هذه الكارثة. مثل هذه المخاوف قد تكون حتمية في الجيل الأول ولكن من المستبعد أن تصيب أولئك الذين لم يجربوا

الفقر الشديد علي الإطلاق، ولكن هناك عنصراً صغيراً واستثنائياً في هذه المشكلة. فجدور المشكلة تنبع من الأهمية القصوى التي تُعطى للنجاح في التنافس على أنه المصدر الرئيسي للسعادة، ولا أنكر أن الإحساس بالنجاح يجعل الاستمتاع بالحياة أسهل. فالرسام الذي ظل طوال شبابه مغموراً سوف يكون على الأرجح أسعد إذا ما نالت موهبته الاعتراف، كما لا أنكر أن المال - إلى مدى محدد - له قدرة كبيرة على زيادة السعادة، وبعد هذا الحد لا أعتقد أنه يفعل ذلك، وما أؤمن به هو أن النجاح عبارة عن أحد مكونات السعادة وأن الثمن الذي يدفع فيه يكون فادحاً إذا ما تمت التضحية بكل المكونات الأخرى من أجله فقط.

(٧)

ومصدر هذه المتاعب هي فلسفة الحياة الشائعة في دوائر رجال الأعمال. ففي أوروبا، من الصحيح أن هناك بعض المستويات الأخرى التي لا تزال تحظى بالمكانة، ففي بعض الدول تجد الأرستقراطية، وفي كل الدول يوجد المهنيون المتعلمون، وفي جميع الدول فيما عدا القليل من الدول الأصغر يتمتع الجيش أو البحرية باحترام كبير، وبينما من الصحيح أنه يوجد عنصر تنافس في النجاح مهما كانت مهنة الإنسان. ففي نفس الوقت فإن الذي يُحترم ليس هو النجاح فحسب، ولكن الامتياز مهما كان مدلوله والذي إليه يرجع هذا النجاح. فرجل العلم

قد يجمع مالاً أو لا يجمع، وهو بالتأكيد لا يتمتع باحترام أكبر إذا جمع المال عما لو لم يجمع، فلا أحد يندهش إذا ما وجد جنراً أو أدميراً فقيراً، فالفقر فى هذه الظروف هو، بمدلول معين، شرف فى حد ذاته! لهذه الأسباب تنحصر معركة التنافس المالى الصرف فى أوروبا فى مستويات معينة، وهذه المستويات ليست هى الأكثر نفوذاً أو الأكثر احتراماً. ففي أمريكا العكس هو الصحيح، فالخدمات تلعب دوراً صغيراً جداً فى الحياة القومية بما لا يتيح لمعاييرها أى نفوذ. أما بالنسبة للمهنيين المتعلمين فلا يمكن لأى غريب عن المهنة القول بما إذا كان الطبيب يعلم فعلاً الكثير عن الطب أو المحامى يعرف فعلاً الكثير عن القانون، وبالتالي فمن الأسهل الحكم على مزاياهم من دخلهم ويمكن استنتاج ذلك من مستوى معيشتهم. أما بالنسبة للأساتذة فهم الخدم المأجورون لرجال الأعمال وبالتالي فهم يتمتعون باحترام أقل مما يتمتع به أقرانهم فى الدول الأقدم ونتيجة هذا كله أنه فى أمريكا، الرجل الذى يعمل أستاذاً يقلد رجل الأعمال ولا يشكل طرازاً منفصلاً كما يفعل فى أوروبا وعلى ذلك فعبر الطبقات الميسورة بأكملها لا يوجد ما يلفت المعركة المعلنة والتى لا هوادة فيها من أجل النجاح المالى.

(٨)

منذ فترات بعيدة كان الصبية الأمريكيون يشعرون أن ذلك هو الأمر الوحيد المهم، ولا يرغبون فى أن ينشغلوا بأى نوع من التعليم لا

يحتوى على قيمة مالية. والتعليم يُعتقد بدرجة كبيرة أنه نوع من التدريب من أجل المتعة، والمتعة التى أعنيها هى تلك النوعيات الرفيعة التى لا تتاح لغير المثقفين تمامًا. ففي القرن الثامن عشر كان من علامات السيد المذهب (الچتلمان) أن يجد متعة متميزة فى الأدب والتصوير والموسيقا، ونحن قد لا نتفق الآن مع ذوقه آنذاك، ولكنه على الأقل كان ذوقًا أصيلًا. أما الرجل الغنى فى هذه الأيام فهو أميل لأن يكون من طراز مختلف تمامًا، فهو لا يقرأ مطلقًا وهو إذا أنشأ صالونًا لعرض اللوحات الفنية لكى يوسع من مجال شهرته يعتمد على الخبراء ليختاروا له اللوحات. والمتعة التى يحصل عليها ليست متعة النظر إلى هذه اللوحات، ولكنها متعة حرمان بعض الأغنياء الآخرين اقتناءها. وبالنسبة للموسيقا، فإذا حدث أن كان يهوديًا فقد يكون له تقييم صادق، أما إذا لم يكن كذلك فسيظل جاهلاً بهذا الفن بنفس جهله لباقي الفنون الأخرى. ونتيجة هذا كله ألا يعرف ما يفعله بوقت فراغه. ولأنه يصبح دائمًا أغنى وأغنى يكون أسهل وأسهل أن يجمع المال، إلى أن يصل إلى أن يأتيه فى خمس دقائق يوميًا مال أكثر مما يستطيع إنفاقه، ويكون المسكين قد وصل بذلك إلى متاهة نتيجة لنجاحه، ولا بد أن تكون هذه هى الحالة طالما كان النجاح فى ذاته هو الغرض الأوحى للحياة، وما لم يكن الإنسان قد تعلم ماذا يصنع بالنجاح بعد أن يحصل عليه، فإن إنجازه للنجاح، لا بد وأن يتركه فريسة للملل.

(٩)

والخاصية التنافسية للعقل تغزو بسهولة مناطق لا تنتمى لها، خذ كمثال موضوع القراءة، فهناك حافزان لقراءة كتاب، أحدهما أنك تستمتع بذلك والآخر أنك تستطيع التباهى به. لقد أصبح من الشائع الآن فى أمريكا أن تقرأ السيدات (أو تتظاهرن بقراءة) كتباً معينة كل شهر، البعض تقرأنها والبعض تقرأن الفصل الأول وبعضهن تقرأن الملخصات، ولكن الجميع لديهن هذه الكتب على المنضدة، وهن لا يقرأن أياً من الأعمال المتميزة، فكتاب «هاملت» أو «الملك لير» لم يكونا من مختارات نوادى الكتاب فى أى شهر من الشهور ولم يكن ضرورياً فى أى شهر من الشهور التعرف على دانتى، وبالتالي فما يقرأن هو الكتب الحديثة متوسطة القيمة وليست الأعمال المتميزة، وهذا أيضاً يعد من آثار التنافس، وربما لا يكون ذلك سيئاً تماماً، حيث إن السيدات - موضع الحديث - إذا تركن لأنفسهن بعيداً عن قراءة الأعمال المتميزة، فسوف يقرأن كتباً أسوأ من تلك التى اختيرت لهن بواسطة رعاتهن وأساتذتهن فى نوادى الكتاب.

(١٠)

والتركيز على التنافس فى الحياة الحديثة مرتبط بالتحلل العام لمعايير التمدنين والذى لا بد وأنه قد حدث فى روما بعد العصر

الأوجستينى ، فالرجال والنساء يبدو أنهم قد أصبحوا غير قادرين على الاستمتاع بالمتع الفكرية الخالصة ، ففن التحاور العام مثلاً والذي وصل إلى درجة الكمال فى الصالونات الفرنسية فى القرن الثامن عشر كان لا يزال عادة حية منذ حوالى أربعين عاماً خلت ، ولقد كان فناً متميزاً جداً ويوظف أعلى الملكات فى سبيل شئ غير ظاهر على الإطلاق ، ولكن من فى عصرنا الحالى يهتم بشئ كهذا؟ ففى الصين كان هذا الفن مزدهراً إلى درجة الكمال منذ عشر سنوات مضت ، ولكنى أتصور أن المهمة المتحمسة للوطنيين قد قضت على وجوده تماماً منذ ذلك الحين .

ومعرفة الأدب الجيد الذى كان شائعاً بين المتعلمين منذ خمسين أو مئة عام مضت أصبح محصوراً الآن فى قليل من الأساتذة المتخصصين وكل المتع الهادئة تم اعتزالها؛ فقد أخذنى بعض الطلاب الأمريكيين للتجول فى الربيع عبر الغابة المحيطة بمنشآت الجامعة وكانت مليئة بالزهور البرية الرائعة ، ولم يعرف أى من المرشدين المصاحبين لى اسم أى زهرة منها ، فما فائدة مثل هذه المعرفة؟ إنها لا يمكن أن تضيف إلى دخل أحد!!

(11)

والمشكلة لا تتعلق ببساطة بالفرد كما لا يمكن لأى شخص بمفرده منعها فى حالته الخاصة بعينها ، فالمشكلة تنبع من فلسفة الحياة التى

يستقبلها الجميع بوجه عام، والتي يعملون وفقًا لها فالحياة اختبار وتنافس يُمنح الاحترام فيهما للمتصبر. وهذه النظرة تقود إلى إعمال الإرادة على حساب الإحساس والفكر، أو ربما نكون- عندما نقول ذلك- نضع العربة أمام الحصان، فالأخلاقيون المتطهرون قد أكدوا على الإرادة في العصور الحديثة رغم أن الإيمان كان هو ما ركزوا عليه أصلاً، ربما كانت عصور التطهر قد أفرزت سلالة غمت الإرادة فيما نمواً زائداً بينما ذبل فيها الإحساس والفكر، ومثل هذه السلالة تبنت بالتالى فلسفة التنافس على أنها الأكثر توافقاً مع طبيعتها، ومهما كان أمر ذلك، فإن هذا النجاح الهائل لهذه الديناميكيات الحديثة والتي تماثل أسلافها التي وجدت في عصور ما قبل التاريخ في تفضيلها للقوة على الذكاء، يؤدي إلى أن يقلدهم الجميع على مستوى العالم. فقد أصبحوا نموذجاً للرجل الأبيض في كل مكان، وسوف يظل ذلك على الأرجح هو الحال للمئة سنة القادمة. أما أولئك الذين لم يسايروا هذه البدعة فقد تريحهم فكرة أن الديناميكيات لم تنتصر في النهاية لأنها أفنت بعضها البعض وورث المتفرجون الأذكياء ملكهم، وديناميكياتنا الحديثة يفنى بعضهم البعض، فليس لهم في المتوسط طفلان لكل زوج، وهم لا يستمتعون بالحياة لدرجة تكفى لجعلهم يرغبون في إنجاب أطفال.

وعند هذه النقطة فإن هذه الفلسفة العنيفة بدرجة غير لازمة والتي نقلوها عن أجدادهم المتطهرين تظهر نفسها عاجزة عن التكيف مع

العالم. فأولئك الذين تؤدي بهم نظرتهم للحياة إلى الإحساس بقليل جداً من السعادة إلى الدرجة التي تجعلهم غير مهتمين بإنجاب أطفال بيولوجياً هالكون. فالتنافس إذا ما اعتبر الأمر الرئيسي في الحياة يكون شديد البشاعة وشديد التشبث، فهو إلى حد كبير عبارة عن عضلات متوترة وإرادة مصممة بدرجة لا يمكن معها صنع أساس محتمل للحياة لأكثر من جيل واحد أو جيلين على الأكثر، بعد هذه الفترة لابد أن يحدث الإرهاق العصبي والمظاهر المختلفة للهروب والسعى المتوتر والصعب وراء المتعة مثله في ذلك مثل السعى وراء العمل (حيث إن الاسترخاء أصبح مستحيلاً)، وفي النهاية اختفاء السلالة نتيجة العقم. وليس العمل فحسب هو الذي تسمم نتيجة فلسفة التنافس، فوقت الفراغ قد تسمم هو الآخر بنفس الدرجة، فالفراغ الهادئ الذي يعيد الراحة للأعصاب أصبح مُملًا، ولابد أن يحدث تصعيد مستمر نهايته الطبيعية المخدرات ثم الانهيار، وعلاج ذلك يكون بقبول المتعة العاقلة الهادئة في حياة متوازنة المثل.

الفصل الرابع

الملل والإثارة

(١)

فى رأى أن الملل كعنصر من عناصر السلوك الإنسانى قد صادف اهتمامًا أقل كثيرًا مما يستحقه، فأنا أعتقد أنه كان من أعظم القوى المحركة عبر الأحقاب التاريخية ولا يزال كذلك الآن أكثر من أى وقت مضى. ويبدو أن الملل من العواطف الإنسانية البحتة، فصحيح أن الحيوانات فى الحبس تكون فائرة الهمّة، تخطو هنا وهناك وتتشاءب ولكن فى حالتها الطبيعية لا أعتقد أنها تشعر بشئ شبيه بالملل، فهى فى معظم الوقت تتطلع انتقاءً للأعداء أو بحثًا عن الطعام أو كلا الأمرين معًا، وأحيانًا تتزاوج وأحيانًا أخرى تحاول أن تظل دافئة ولكنها - حتى وهى غير سعيدة - لا أعتقد أنها تحس بالملل، وربما كانت القردة الشبيهة بالإنسان تماثلنا فى خاصية الإحساس بالملل كما تماثلنا فى غيرها من الخصائص، ولكن لأننى لم أعش معهم مطلقًا فلم تسنح

لى فرصة إجراء التجربة. وأحد المكونات الأساسية للملل هو المقارنه بين الظروف القائمة وبعض الظروف الأخرى الأكثر تقبلاً، والتي تفرض نفسها بشدة على تصورات الإنسان. ومن مكونات الملل الأساسية أيضاً ألا تكون قدرات الفرد قد تم توظيفها بالكامل، وكما أتصور فإن الهرب من الأعداء الذين يحاولون الفتك بك ليس بالأمر الممتع ولكنه بالتأكيد لا يسبب الملل فالإنسان لا يمكن أن يحس بالملل وهو يتم إعدامه ما لم تكن شجاعته فوق إنسانية وبنفس الكيفية، لم يتشاءب أحد قط خلال إلقاء لأول خطبه له فى مجلس اللوردات باستثناء المرحوم دوق ديفونشير، والذي احترمه اللوردات لذلك كثيراً، فالملل هو بالضرورة رغبة عرضية فى وقوع أحداث، ليست بالضرورة ممتعة، ولكن وقوعها فى حد ذاته يمكن ضحية السأم من التفرقة بين اليوم ويوم آخر، ونقيض الملل، فى كلمة واحدة، ليس السرور ولكن الإثارة.

(٢)

والرغبة فى الإثارة عميقة الجذور فى البشر وخاصة فى الذكور، وأنا أفترض أن إشباع هذه الرغبة فى مرحلة الصيد والقنص من التطور الإنسانى كان أسهل كثيراً عنه فى أى وقت لاحق، فالمطاردة كانت مثيرة والحرب كانت مثيرة ومطارحة الغرام كانت مثيرة، فالرجل البدائى كان بإمكانه أن يزنى بامرأة وزوجها نائم بجوارها وهو يعلم أن الموت سيكون مصيره فى اللحظة التى قد يستيقظ فيها زوجها؛

وأتصور أن مثل هذا الموقف غير محل على الإطلاق، ولكن بحلول مرحلة الزراعة أصبحت الحياة كالحلّة فيما عدا بالطبع بالنسبة للأرستقراطيين الذين ظلّوا يعيشون ولا يزالون في مرحلة الصيد والقنص. ونحن نسمع كثيراً عن الضجر من رتوب الآلة ولكنى أعتقد أن الضجر من الزراعة بالوسائل القديمة كان على الأقل بنفس الدرجة، وفي الحقيقة، وعلى النقيض مما يؤمن به المحبون لخير البشرية، فأنا أجد أن عصر الآلة قد اختزل بدرجة كبيرة كمية الملل في العالم، فالذين يكسبون أجورهم بالعمل لا يكونون خلال ساعات العمل منفردين، ويشغلون ساعات المساء بوسائل اللهو والتسلية وهى التى كان من المستحيل وجودها فى قرية ريفية على النمط القديم. ولننظر مرة أخرى إلى التغير الذى حدث فى حياة المستوى الأدنى من الطبقة المتوسطة، ففي الأيام الغابرة وبعد أن تكون الزوجة والبنات قد فرغن من إخلاء المائدة بعد العشاء، كان الجميع يتحلقون لينعموا بما كان يسمى بسهرة عائلية سعيدة، وكان ذلك يعنى أن رب الأسرة يذهب للنوم وتقوم زوجته بأشغال الإبرة، ويود البنات لو كنّ موتى، فلم يكن مسموحاً لهن بالقراءة أو بمغادرة المنزل حيث كان من المفترض أن يتحدث معهن والدهن خلال هذا الوقت، الأمر الذى لا بد وأنه كان مبعث السرور لكل الأطراف، وبالحظ المواتى، يتزوجن فى النهاية وتكون لهن فرصة أن يجعلن فترة شباب أطفالهن بائسة على غرار شبابهن، أما إذا لم يكن لهن حظ، فسيصبحن عوانس وربما يصبحن فى النهاية نساء مهذبات باليات، وهو المصير البشع المماثل الذى يفرضه المتوحشون على ضحاياهم.

(٣)

كل هذا الكم من الملل يجب أن يتصوره العقل عند تقييم ما كان عليه العالم منذ مئة عام مضت، وعند الرجوع إلى أبعد من هذا نجد أن الملل كان أسوأ بكثير. فلتتصور رتوب الشتاء فى القرى القديمة، فالناس لم يكن بإمكانهم القراءة ولا الكتابة ولم يكن لديهم سوى الشموع للإضاءة بعد الغروب، وكان دخان النار يملأ الغرفة الوحيدة التى ليست باردة برودة مريرة، كانت الطرقات مستحيلة الاستخدام بما يصعب معه على أى فرد أن يرى فرداً من قرية أخرى، ولا بد أن الملل كان عظيمًا بنفس الدرجة التى أدت إلى ممارسة «اصطياد الساحرات» على أنها الرياضة الوحيدة التى عن طريقها يمكن تحمّل أمسيات الشتاء.

(٤)

نحن أقل إحساسًا بالملل من أسلافنا، ولكننا أكثر خوفًا منهم، فقد أمكننا معرفة أو اعتقاد أن الملل ليس جزءاً من النصيب الطبيعى للإنسان، ولكن يمكن تجنبه بالسعى الدءوب وراء الإثارة. فالفتيات فى أيامنا هذه يكسبن ما يمكنهن من العيش، ويؤدى ذلك بالدرجة الأولى إلى تمكنهن من السعى وراء الإثارة فى المساء والهرب من «السهرة العائلية السعيدة» التى كان على جداتهن تحملها. وكل فرد، طالما كان بمقدوره ذلك، يعيش فى المدينة. وفى أمريكا، أولئك الذين لا

يستطيعون أن يمتلكوا سيارة، أو على الأقل «موتوسيكلًا» ليحملهم إلى السينما، فالشباب من الرجال والنساء يتقابلون بصعوبة أقل مما كان عليه الوضع قبلاً، وكل شابة تتوقع على الأقل مرة في الأسبوع كمًا من الإثارة كان يكفي بطلّة من بطلات الكاتبة جين أوستن لمدى رواية كاملة.

(٥)

وكلما ارتفعنا في السلم الاجتماعى، كلما كان سعينا وراء الإثارة أكثر حدة، فالقادرون يكونون فى حركة مستمرة من مكان لمكان يحملون معهم أينما ذهبوا المرح، الرقص والشراب، ولكن لسبب ما يتوقعون دائماً أن استمتاعهم بكل ذلك سيكون أعظم فى مكان جديد. والذين عليهم أن يكسبوا معيشتهم لديهم نصيبهم من الملل، بمنطق الضرورة، خلال ساعات العمل. أما الذين لديهم مال كاف يحررهم من الحاجة إلى العمل، فمثلهم الأعلى هو حياة خالية تماماً من الملل، وإنه لمثل أعلى نبيل وبعيد تماماً عن أن أندد به، ولكنى أخشى أن يكون كأي مثل أعلى آخر، صعب المنال عما يتصوره المثاليون.

وعلى أية حال، كلما كانت الأمسيات مثيرة، كانت أوقات الصباح مملة بنفس النسبة وسيكون هناك مرحلة منتصف العمر وربما أيضاً شيخوخة، فعند العشرين يعتقد الرجال أن الحياة ستتهى عند

الثلاثين، وأنا، عند عمر الخامسة والثمانين، لا أستطيع تبنى وجهة النظر هذه، فربما ليس من الحكمة أن ينفق الإنسان رأسماله الحيوى كرأسماله النقدى.

وربما كان وجود عنصر الملل من المكونات الضرورية للحياة، والرغبة فى الهرب من الملل هى رغبة طبيعية، فالحقيقة أن كل أجناس البشر تُظهر ذلك ما سنحت الفرصة، فالتوحشون عندما ذاقوا الخمر لأول مرة على يد الرجل الأبيض، وجدوا أخيراً مهرياً من الرتوب الذى استمر العمر بكامله، وكانوا، لولا تدخل الحكومة، سيفرقون أنفسهم فى الخمر حتى الموت العرييد. والحروب والمذابح وحملات الاضطهاد كانت كلها بعضاً من محاولات الفرار من الملل، حتى المشاحنات مع الجيران كانت دائماً أفضل من لا شئ، فالملل إذن، مشكلة حيوية للأخلاقين، حيث أن نصف ذنوب البشر على الأقل ترجع إلى الخوف منه.

(٦)

والملل لا يجب اعتباره، على أية حال، بكامله شراً، فهناك طرازان منه، أحدهما ذو أثر إيجابى والآخر سلبى الأثر، والطراز ذو الأثر الإيجابى ينشأ عن غياب المخدرات، أما الطراز سلبى الأثر فينجم عن غياب الأنشطة الحيوية، وأنا لست على استعداد للقول بأن المخدرات لا يمكن أن تلعب دوراً طيباً فى الحياة على الإطلاق، فهناك

لحظات على سبيل المثال يوصف فيها الأفيون بواسطة طبيب حكيم، وأعتقد أن هذه اللحظات أكثر شيوعاً في الحياة عما يظنه محرموا المخدرات. واشتهاء المخدرات أمر لا يمكن تركه للبواعث الطبيعية غير المفيدة، ونوع الملل الذى يحسه الشخص المعتاد على تعاطى المخدرات إذا حرمها (أو حرّم تعاطيها) لا يمكننى أن أصف له علاجاً سوى الوقت. وما ينطبق على المخدرات ينطبق أيضاً فى حدود معينة على كل نوع من أنواع الإثارة، فالحياة المليئة جداً بالإثارة هى حياة مرهقة تحتاج باستمرار إلى منبهات أقوى لتعطى النشوة التى أصبح من المعتقد أنها من المكونات الضرورية للمتعة، والشخص المعتاد على الكثير جداً من الإثارة يشبه الشخص الذى لديه اشتها للفلفل الأسود، والذى يصل فى النهاية إلى عدم القدرة على تذوق كمية من الفلفل الأسود قد تؤدى بأى فرد آخر إلى الغصة.

(٧)

وهناك عنصر ملل لا يمكن انتزاعه من تجنب الإثارة الزائدة عن الحد، فالكثير جداً من الإثارة لا يضر فقط بالصحة وإنما يؤدى إلى تبدل إمكانية الإحساس بأى نوع من المتعة، وإلى أن يحل التلذذ السريع محل الإشباع البدنى الوافر، والنباهة محل الحكمة، والمدهشات الحادة محل الجمال.

ولا أود أن أتطرق في الاعتراض على الإثارة، فكمية معينة منها تعد مناسبة ولكنها كأي شئ آخر تقريباً تعد أمراً كمياً، فالقليل جداً منها يؤدي إلى اشتهاآت مُرضية والكثير جداً منها يؤدي إلى الإرهاق، وبالتالي، فما يعد ضرورياً للحياة السعيدة أن تتوافر قدرة معينة على تحمل الملل، وهذه من الأمور التي يجب تلقينها للنشء.

(٨)

كل الكتب العظيمة تحتوى على أجزاء مملة، وكل حياة عظيمة اشتملت على فترات غير مثيرة، تخيل ناشراً أمريكياً مُحَدِّثاً يواجه لأول مرة بالتوراة على أنها كتاب جديد معروض عليه للنشر. ليس من الصعب تخيل تعليقه على ذلك، فمثلاً بالنسبة لتسلسلات الأنساب، سيقول: «سيدى العزيز، هذا الفصل يفتقر إلى الإثارة، فلا يمكن أن تتوقع من قارئك أن يكون مهتماً بمحض تسلسل أسماء أشخاص ما تقول له عنهم قليل جداً. إنى أعترف أنك بدأت كتابك بأسلوب رفيع وأن انطباعى فى البداية كان جيداً، ولكنك ترغب بشدة فى أن تحكى كل شئ. انتق الموضوعات المهمة وتخلص من الأجزاء التي لا لزوم لها ثم أحضر الأصل عندما تختصره إلى الحجم المناسب. هكذا سيتحدث الناشر المحدث، لعلمه بخوف القارئ المعاصر من الملل، وسيقول نفس الأشياء عن مؤلفات كونفوشيوس وعن القرآن وكتاب رأس المال لماركس وكل الكتب المقدسة الأخرى

والتي برهنت على أنها تحقق أعلى المبيعات، ولا ينطبق ذلك على الكتب المقدسة فحسب، ولكن أحسن الروايات تحتوى جميعها على صفحات مملّة أيضاً. فالرواية التي تتلأل من أول صفحاتها إلى آخرها من المؤكد أنها لن تكون كتاباً جيداً. كذلك حياة الرجال العظام لم تكن مثيرة فيما عدا لحظات قليلة عظيمة، فسقراط كان يستمتع بوليمة بين الحين والحين، ولا بد وانه كان يحس برضا عظيم من محاوراته بينما مشروب الشوكران المخدر يقوم بإحداث أثره ولكنه عاش حياته فى معظمها هادئة مع زانثيب، يترىض بعد الظهر وربما قابل بعض الأصدقاء فى طريقه. ويقال إن كانط لم يتعد عن مدينة كونزبرج التي كان يقيم بها لأكثر من عشرة أميال طوال حياته، وداروين بعد أن طاف حول العالم قضى ما بقى من حياته فى بيته الخاص، وماركس، بعد أن أثار بعض الثورات قرر أن يقضى الباقي من عمره فى المتحف البريطانى. وعلى وجه الإجمال، ستجد أن الحياة الهادئة كانت مميزة لكل الرجال العظام وأن متعتهم لم تكن من الطراز الذى يبدو مثيراً فى أعين الآخرين، فالإنجازات العظيمة غير ممكنة دونما عمل دءوب مستحوذ وصعب بحيث لا يترك سوى القليل من الطاقة لأى طراز نشط من اللهو باستثناء ما يساعد على استرجاع الطاقة البدنية خلال أيام العطلة، وأفضل مثال على ذلك تسلق جبال الألب.

(٩)

والقدرة على تحمل الحياة الرتيبة بدرجة أو بأخرى، يجب اكتسابها فى مرحلة الطفولة، فالآباء المحدثون هم الملمون بدرجة كبيرة فى هذا الخصوص، فهم يوفرّون لأطفالهم الكثير جداً من اللهو السلبى مثل الإستعراضات والطعام الجيد ولا يدركون أهمية أن يكون يوم الطفل مثله مثل يوم آخر فيما عدا بالطبع فى المناسبات النادرة جداً.

ومتع الطفولة يجب فى الأساس أن تكون هى التى يستخلصها الطفل من بيئته بواسطة بعض المجهود والابتكار، فالتع التى تكون مثيرة ولكنها فى نفس الوقت لا تشتمل على أى مجهود بدنى كالمرح مثلاً، يجب أن تكون نادرة الوقوع جداً، فالإثارة لها نفس طبيعة المخدر، سيكون الأكثر والأكثر منها مطلوباً، والسلبية البدنية خلال هذه الإثارة أمر مضاد للغريزة. فالطفل ينمو بشكل أفضل عندما يترك كالنبات بدون إزعاج فى نفس التربة، فالكثير جداً من الترحال أو الكثير جداً من الانطباعات المتنوعة ليست جيدة للنشء وتؤدى بهم عندما يكبرون إلى أن يصبحوا غير قادرين على تحمل الرتوب المفيد، ولا أعنى أن الرتوب فى حد ذاته له أية مزايا ولكنى أعنى فقط أن أشياء طيبة معينة لن تكون ممكنة إلا بدرجة معينة من الرتوب، ولناخذ مثلاً كتاب «مقدمة» للمؤلف ووردز ورث فمما سيكون واضحاً لكل قارئ أنه مهما تكن قيمة أفكار ومشاعر ووردز ورث، فهى مستحيلة

بالنسبة للشباب الحضري المحدث، فالصبي أو الشاب الصغير الذى لديه هدف جدى بناء، سوف يتحمل طوعية قدرًا كبيرًا من الملل إذا وجد أن ذلك ضروريًا. ولكن الأهداف البناءة لا تشكل نفسها بسهولة فى عقل الصبي إذا كان يعيش حياة التشتت والانغماس فى الملذات، ففى مثل هذه الأحوال تكون أفكاره دائماً متجهة إلى المتعة التالية وليس إلى الإنجاز البعيد.

لكل هذه الأسباب، فالجيل الذى لا يمكنه تحمل الملل سيكون جيل الرجال الصغار، جيل الرجال المنفصلين بلا مبرر عن العمليات البطيئة للطبيعة، جيل الرجال الذين يذبل فيهم ببطء كل باعث حيوى كما لو كانوا زهوراً مقطوعة فى أصيص.

(١٠)

أنا لا أحب اللغة الغامضة، ولكنى أجد صعوبة فى كيفية التعبير عما أعنيه دونما توظيف الجمل التى قد تبدو شعرية أكثر من كونها علمية، فمهما أردنا أن نعتقد، فنحن مخلوقات أرضية، وحياتنا جزء من حياة الأرض، ونحن نأخذ غذاءنا منها كما تفعل النباتات والحيوانات، وإيقاع حياة الأرض بطيء فالخريف والشتاء ضروريان لها كالربيع والصيف، والراحة ضرورية كالحركة. وبالنسبة للطفل، وحتى بدرجة أكبر من الرجل، من الضروري الحفاظ على بعض الاتصال بمد وجزر الحياة الأرضية.

والجسم الإنسانى أصبح متكيفاً عبر العصور مع هذا الإيقاع، وقد أدخل الدين بعضاً من ذلك فى «عيد القيامة» وقد رأيت طفلاً فى الثانية من عمره، ظل فى لندن ثم أخذ لأول مرة فى جولة فى الريف الأخضر، وكان الوقت شتاء وكل شىء مبتل ومفعم بالأوحال، بالنسبة لعين رجل بالغ لم يكن هناك ما يبعث على السرور، ولكن فى الطفل، انبعثت نشوة غريبة، فقد انحنى على الأرض المبتلة ووضع رأسه فى العشب وأطلق صيحات فرح متصلة، فالفرحة التى كان يشعر بها كانت بدائية وبسيطة وجسيمة، والاحتياج البدنى الذى كان يتم إشباعه كان عظيماً لدرجة أنه لم يتم إشباعه فى أناس فقلما كانوا عقلاء.

(١١)

كثير من المتع، ولناخذ المقامرة كمثال، ليس بها أى عنصر من عناصر الاتصال بالأرض، مثل هذه المتع لحظة انتهائها تترك الإنسان شاعراً بالقتامة وعدم الرضا، وجائعاً لشيء لا يدرك كنهه، ومثل هذه المتع لا يمكن أن تؤدي إلى ما يمكن أن نسميه لذة. أما المتع التى تقربنا من الاتصال بحياة الأرض فتحتوى على شىء مرض جداً، وعندما تنتهى تظل السعادة التى أحدثتها باقية رغم أن حدتها عند حدوثها ربما كانت أقل من تلك الخاصة بالرقاعة المثيرة. والتميز الذى أعنيه ينسحب على كل درجات السلم من أبسط الانشغالات إلى أكثرها تعديناً، فطفل الثانية الذى تحدث عنه منذ لحظة أظهر أكثر صور الاتحاد بحياة الأرض بدائية، ولكن عند مستوى أعلى سنجد نفس الشىء فى

الشعر، فالذى جعل أناشيد شكسبير فائقة الروعة هو أنها مليئة بنفس هذه الفرحة التى جعلت طفل الثانية يحتضن العشب. انظر إلى «انصت، انصت إلى القنبرة» أو «تعالى إلى هذه الرمال الصفراء» فلسوف تجد فى هذه القصائد التعبير المتدين عن نفس العاطفة التى خرجت من طفل الثانية فى صورة صيحات متصلة، أو انظر مرة أخرى إلى الفرق بين الحب والانجذاب الجنىسى البحت، فالحب تجربة تجدد وتنعش كياننا بكامله مثلما يحدث المطر للنبات بعد الجفاف، ولا يحدث ذلك فى الاتصال الجنىسى بلا حب، فما أن تنتهى المتعة اللحظية إلا ويتولد الكلال والاشمئزاز والإحساس بأن الحياة جوفاء، فالحب جزء من حياة الأرض، والجنىس بدون حب ليس كذلك.

(١٢)

وطراز الملل الذى تعانيه الأمم الحضارية الحديثة مرتبط بشدة بانفصالها عن حياة الأرض مما يجعل الحياة حارة، متربة، وعطشى مثل الحجيج فى الصحراء، وبالنسبة للذين هم أغنياء بالدرجة الكافية التى تسمح لهم باختيار طريقتهم فى الحياة، فإن طراز الملل غير المحتمل الذى يعانون يعزى، رغم ما قد يبدو من تناقض فى ذلك، إلى خوفهم من الملل، فعند الهروب من الطراز ذى الأثر الإيجابى من الملل يقعون فريسة طراز آخر أكثر ضرراً. فالحياة السعيدة يجب أن تكون إلى درجة كبيرة حياة هادئة، فالسعادة الحقيقية لا تعيش إلا فى مناخ من الهدوء.

الفصل الخامس

الإعياء

(1)

للإعياء صور عديدة بعضها يكون عقبة كثوداً للسعادة عن البعض الآخر. فالإعياء البدنى الصرف، شريطة ألا يكون زائداً عن الحد، يميل لأن يكون سبباً للسعادة حيث يؤدي إلى النوم العميق والشهية المفتوحة، ويعطى نهكة للمسرات الممكنة فى أيام العطلة، ولكن إذا كان زائداً عن الحد يصبح شراً مستطيئراً، فالفلاحات فى كل المجتمعات فيما عدا المجتمعات الأكثر رقيّاً يصبحن عجائز فى الثلاثين من العمر حيث تبليهن المشقة الزائدة، والأطفال فى بداية عصر التصنيع أعاق العمل الزائدة غوهم، وكثيراً ما قتلهم فى سنوات عمرهم المبكرة، ولا يزال نفس الشئ يحدث فى الصين واليابان حيث التصنيع لا يزال جديداً، وإلى حد ما، يحدث أيضاً فى بعض الولايات الجنوبية بأمريكا. والعمل البدنى الذى يتعدى نقطة معينة يصبح تعذيباً فظيماً. وقد كان الشائع حدوثه إلى درجة تجعل الحياة غير محتملة.

وفى أكثر أجزاء العالم الحديث تقدما تناقص الإعياء البدنى كثيراً نتيجة لتحسين ظروف التصنيع، وطاراز الإعياء الذى يعد خطيراً حالياً فى المجتمعات المتقدمة هو الإعياء العصبى وهذا الطراز، على شدة غرابة ذلك، يظهر بدرجة كبيرة بين المقتدرين مادياً، ويميل لأن يكون أقل شيوعاً بين العاملين بأجر بالمقارنة برجال الأعمال والذين يقومون بأعمال ذهنية.

(٢)

والهروب من الإعياء العصبى فى الحياة العصرية أمر صعب للغاية، ففى المقام الأول، فإن العامل الحضري يكون معرضاً للضوضاء عبر ساعات العمل بكاملها، وبدرجة أكبر، أثناء الزمن الذى يقطعه فيما بين العمل والمنزل، وصحيح أنه يتعلم ألا ينصت بوعى إلى معظم هذه الضوضاء ولكنها رغم ذلك تصيبه بالإعياء، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى المجهود اللاواعى الذى يبذله فى عدم الإنصات، وشئ آخر لا ندركه يؤدى إلى الإعياء، وهو التواجد الدائم للغرباء، فالغريزة الطبيعية للإنسان، كما هى فى غيره من الحيوانات، هى استطلاع كل دخيل من نفس النوع حتى يحدد ما إذا كان سيسلك تجاهه سلوكاً ودياً أم عدائياً، وهذه الغريزة لا بد من تثبيطها فى أولئك الذين يسافرون فى مترو الأنفاق ساعة الذروة، ونتيجة لهذا التثبيط فهم يشعرون بغضب منتشر عام فى مواجهة كل

الغريباء الذين جمعوا معهم فى هذا الاتصال المرغمين عليه . ثم هناك الإسراع للحاق بقطار الصباح وما ينتج عن ذلك من سوء الهضم ، ونتيجة لذلك ، ففى الوقت الذى يصل فيه العامل ذو المعطف الأسود إلى المكتب ويبدأ عمل اليوم تكون أعصابه قد تهرأت وكان أميل إلى اعتبار الجنس البشرى مزعجاً . وصاحب العمل الذى يصل هو الآخر بنفس المزاج لا يفعل شيئاً يخفف به هذا الإحساس لدى الموظف ، والخوف من الطرد يجبر الموظف على السلوك المحترم ولكن هذا السلوك غير الطبعى لا يعدو إلا أن يضيف إلى التوتر العصبى لديه . وإذا ما سمح للموظفين ولو مرة فى الأسبوع أن يشدوا أنف صاحب العمل أو أن يقولوا له رأيهم فيه لخفف هذا من توترهم العصبى ولكن بالنسبة لصاحب العمل الذى لديه هو الآخر متاعبه لن يؤدى ذلك إلى إصلاح الأمور ، فما يمثله الخوف من الطرد بالنسبة للموظف هو نفس ما يمثله الخوف من الإفلاس بالنسبة لصاحب العمل .

(٣)

وصحيح أن البعض يكون كبيراً بدرجة تكفى لجعله أكبر من هذا الخوف ، ولكن لكى يصل هذا البعض إلى مكانة كبيرة على هذا النحو كان عليهم بصفة عامة المرور عبر سنوات من الكفاح المضنى وكان عليهم خلالها أن يكونوا مدركين تماماً للأحداث التى تقع فى كل مكان من العالم وأن يُبطلوا باستمرار مكائد منافسيهم . ونتيجة هذا

كله أن النجاح الباهر عندما يأتى يكون الرجل منهم عبارة عن حطام عصبى، شديد الاعتماد على القلق لدرجة أنه لا يستطيع أن يتخلص من هذه العادة عندما لا تكون هناك حاجة لها. وصحيح أن هناك أبناء الرجال الأغنياء، ولكنهم عموماً ينجحون فى خلق مقلقات لأنفسهم مطابقة لأنفسهم مطابقة ما أمكن لتلك التى كانوا سيعانونها إذا لم يولدوا أغنياء، وبالمراهنات والمقامرة يجلبون لأنفسهم تعاسات آبائهم، وبتقليص فترات ندمهم من أجل اللهو يدمرون أجسادهم، وعندما يحين زمن استقرارهم يصبحون غير قادرين على الإحساس بالسعادة على نحو ما كان عليه آبائهم من قبل. وطوعية أو جبراً، وباختيارهم أو بالضرورة، يعيش معظم المحدثين حياة مشوشة عصبياً، ويكونون دائماً مثعبين لدرجة لا تمكنهم من الاستمتاع دونما الاستعانة بالخمر.

ولترك جانباً هؤلاء الرجال الأغنياء الذين هم محض حمقى، ولنأخذ بعين الاعتبار الحالة الأكثر شيوعاً والخاصة بأولئك الذين يرتبط إعيائهم بالعمل الدءوب من أجل العيش. فلدرجة كبيرة يكون الإعياء فى مثل هذه الحالات راجعاً إلى القلق، والقلق يمكن منعه بفلسفة أفضل للحياة وبدرجة أكبر قليلاً من التنظيم العقلى. ومعظم الرجال والنساء يفترقون بشدة إلى القدرة على التحكم فى أفكارهم، وأعنى بذلك أنهم لا يستطيعون الامتناع عن التفكير فى موضوعات مقلقة عندما لا يكون من الممكن عمل أى شىء حيالها. وفى ساعات الليل عندما يكون من المفروض أن يحصلوا على قوة جديدة ليواجهوا بها

مشاكل الغد فإنهم يقلبون فى عقولهم مشكلات لا يمكنهم فى هذه الأوقات عمل أى شىء تجاهها. ولا يفعلون ذلك بطريقة تمكنهم من تخطيط أسلوب ممتاز للغد ولكن بالطريقة نصف المجنونة التى تميز التأملات المضطربة للأرق ويظل بعضاً من جنون منتصف الليل عالقاً بهم فى الصباح بما يشوش على حكمهم على الأمور ويفسد مزاجهم ويجعل كل عقبة يواجهونها مثيرة للهيّاج.

(٤)

والرجل الحكيم يفكر فى مشكلاته فقط عندما يكون هناك هدفاً لذلك، وفى الأوقات الأخرى يفكر فى أمور أخرى أو إذا كان الوقت ليلاً لا يفكر فى شىء على الإطلاق. ولا أعنى أن أقترح أنه عند حدوث الأزمات الخطيرة، مثل أن يكون الخراب وشيكاً أو يكون لدى الرجل أسباباً تجعله يشك فى أن زوجته تخدعه، إنه من الممكن فيما عدا لقليل من العقول المرتبة بطريقة فريدة، أن يحجب المتاعب فى الأوقات التى لا يمكن فيها عمل أى شىء لها، ولكن من الممكن جداً حجب المتاعب العادية فى الأيام العادية إلا عندما من المحتم التعامل معها. ومن المدهش حقاً ملاحظة حجم الزيادة التى يمكن أن تحدث للسعادة والكفاءة إذا ما تهذب العقل المنظم الذى يفكر فى الأمر بدرجة كافية فى الوقت المناسب بدلاً من أن يفكر فيه بدرجة غير كافية طوال الوقت. وعندما يتطلب الأمر الوصول إلى قرار صعب أو مقلق،

فما أن تتوافر كل المعلومات، إعط للأمر أفضل تفكيرك واتخذ قرارك، وبعد أن تتخذ القرار لا تراجع ما لم تصل إلى عملك حقائق جديدة عن الأمر، فلا شئ يعد إرهاباً وعقماً من عدم القدرة على اتخاذ القرار.

(٥)

كثيراً جداً من الأمور المقلقة يمكن أن تتضاءل بإدراك عدم أهمية الأمر المسبب للقلق. فقد قمت فى زمنى بكم كبير من الخطابة العامة، وفى البداية، كان كل فرد من الجمهور يخيفنى، وكانت عصبيتى تؤدى بى إلى أن أتكلم بطريقة سيئة جداً وكنت أهاب هذه المحنة إلى الحد الذى كنت أود لو تنكسر ساقى قبل قيامى بإلقاء خطاب، وما كان ينقضى ذلك إلا وأصبح مرهقاً من التوتر العصبى، وتدرجياً علمت نفسى إدراك أنه ليس من المهم أن أكون قد تحدثت جيداً أم كنت سيئاً فالكون سيطر كما هو فى كلتا الحالتين ووجدت أنه كلما قل اهتمامى بما إن كنت قد تكلمت جيداً أم سيئاً كلما كانت خطابتى أقل سوءاً وتدرجياً تضاءل التوتر العصبى إلى حد الاختفاء تقريباً، وكثيراً جداً من الإعياء العصبى يمكن التعامل معه بهذه الطريقة، فأعمالنا ليست بالأهمية التى نفترضها لها كأمر طبيعى، ونجاحنا أو إخفاقنا لا يهمان كثيراً، فحتى الأحزان العظيمة يمكن الحياة معها والمتاعب التى تبدو وكأنها لا بد أن تضع نهاية للسعادة فى الحياة تخبو مع مرور الوقت

حتى يصبح تقريباً من المستحيل تذكر وقوعها. ولكن فوق كل هذه الاعتبارات الذاتية توجد حقيقة أن ذاتية الفرد لا تمثل جزءاً كبيراً جداً من العالم، فالإنسان الذى يمكنه أن يركز أفكاره وطموحاته فى شىء يتجاوز ذاته يمكنه أن يجد سلاماً معيناً فى المتاعب العادية للحياة بينما يعد ذلك مستحيلاً للإنسان الذاتى الصرف.

(٦)

والدراسة التى أجريت على ما يمكن أن يسمى بصحة الأعصاب كانت ضئيلة للغاية، فمن الصحيح أن علم النفس الصناعى قام ببحوث مستفيضة عن الإعياء وأثبت بالإحصائيات الدقيقة أنك لو قمت بأداء عمل ما لوقت طويل بدرجة كافية فسوف تصل فى النهاية إلى أن تصبح متعباً. وهذه النتيجة ربما كان من الممكن تخمينها بدون كل هذا الاستعراض العلمى، فعلماء النفس عند دراستهم للإعياء يهتمون أساساً بالإعياء العضلى رغم أن هناك أيضاً عدداً من الدراسات عن الإعياء فى أطفال المدارس. وعلى أية حال، فلم يلمس أى من هذه الدراسات المشكلة المهمة، فالطراز المهم من الإعياء يكون فى العادة عاطفياً فى الحياة الحديثة. والإعياء الفكرى الخالص، مثله فى ذلك مثل الإعياء العضلى الخالص، يَنْتُجُ دواؤه الخاص أثناء النوم، فأى شخص لديه كمّاً كبيراً من العمل الفكرى الخالى من العاطفة كإجراء حسابات دقيقة مثلاً، سوف يخلصه النوم فى نهاية اليوم من

الإعياء . والضرر الذى يرجع إلى العمل الشاق لا يرجع عادة إلى هذا السبب، ولكن إلى بعض أنواع الأرق والقلق . ومشكلة الإعياء العاطفى هى أنه يتداخل مع الراحة، فكلما زاد تعب الإنسان، كلما كان من المستحيل عليه أن يتوقف، وأحد أعراض قدوم الانهيار العصبى هو اعتقاد الإنسان أن عمله مهمًا بدرجة هائلة وأن حصوله على إجازة سوف تنجم عنه كل أشكال الكوارث، وأنا إذا كنت طبييا كنت قد وصفت الإجازة لأى مريض يعتقد أن عمله مهمًا . والانهيار العصبى الذى يبدو أن العمل قد أدى إليه هو فى الحقيقة- وفى كل حالة عرفتها شخصيًا- ينتج عن بعض المشاكل العاطفية التى حاول المريض الهروب منها عن طريق عمله . فهو يأبى أن يترك عمله لأنه إذا فعل ذلك لن يكون لديه شيئًا يصرفه بعيدًا عن الأفكار الخاصة بمشكلته أيًا كانت تلك المشكلة . وبالطبع قد تكون المشكلة هى الخوف من الإفلاس، وفى هذه الحالة يكون عمل الشخص على صلة مباشرة ببقائه ولكن حتى فى هذه الحالة فمن الأرجح أن يؤدى به القلق إلى أن يقلقه طالما أن قدرته على الحكم قد أصبحت مشوشة وبالتالي يصل إلى الإفلاس أسرع مما لو عمل بدرجة أقل . وفى كل حالة، كانت المتاعب العاطفية وليس العمل هى المسبب للانهيار.

(٧)

وسيكولوجية القلق ليست بأى حال من الأحوال بسيطة، ولقد سبق أن تحدثت عن الانضباط العقلى وأقصد به عادة التفكير فى

الأمور فى الوقت المناسب، ولهذا أهميته فى أنه أولاً يجعل من الممكن إنجاز عمل اليوم بقدر أقل من التفكير، وثانياً فى أنه يوفر علاجاً للأرق، وثالثاً لأنه يزيد من الكفاءة والحكمة عند صنع القرار. لكن الأساليب التى من هذه النوعية لا تلمس العقل اللاوعى، وعندما تكون المتاعب خطيرة لا تصلح أى من هذه الأساليب ما لم تنفذ وتصل إلى مستويات التحت وعى.

ولقد أجرى علماء النفس دراسات كثيرة عن أثر اللاوعى على الوعى، ولكن كانت الدراسات عن أثر الوعى على اللاوعى أقل، واللاوعى له أهمية قصوى للصحة العقلية، ويجب أن يكون مفهوماً ما إذا كان للقناعات المنطقية أن تلعب دوراً فى حيز اللاوعى، بالنسبة لموضوع القلق على وجه الخصوص. فمن السهل أن يقول المرء لنفسه إن مثل هذه الكارثة لن تكون شديدة الفظاعة إذا ما وقعت ولكن طالما بقى ذلك اقتناعاً واعياً فلن يؤثر فى أوهام الليل أو يمنع حدوث الكوابيس. واعتقادى الخاص هو أنه من الممكن زرع الفكرة الواعية فى اللاوعى إذا تم ذلك بقدر مناسب من القوة والشدة. فمعظم اللاوعى يتكون مما كان حيناً من الزمن أفكاراً واعية عاطفية جداً وأصبحت الآن دفينه، ومن الممكن القيام بعملية الدفن هذه عمداً وبهذه الطريقة يمكن جعل اللاوعى يقوم بكثير من العمل المفيد، فلقد وجدت مثلاً أنه إذا كان على أن أكتب فى موضوع صعب فإن أفضل خطة هو أن أفكر فى الموضوع بتركيز شديد جداً وبأقصى تركيز أستطيعه لعدة ساعات

أو أيام، وعند نهاية هذه الفترة أعطى الأوامر، مجازاً، بأن يتقدم العمل فى اللاشعور وبعد عدة شهور أعود واعياً إلى نفس الموضوع وأجد أن العمل قد تم إنجازه فعلاً.

قبل اكتشاف هذه الطريقة اعتدت أن أقضى الشهور التى تفصل بين العمليتين قلقاً لأننى لم أكن أحقق تقدماً ولكن الوصول إلى الحل لم يكن أسرع نتيجة هذا القلق، وبالتالي كانت الشهور البينية تضيع هباءً. أما الآن فيمكننى تكريس هذه الفترة لإنجاز أعمال أخرى. ويمكن اتباع عملية مشابهة فيما يختص بالمقلقات، فعندما تهدد الكارثة بالوقوع، أنظر بجدية وتعهد إلى أسوأ ما يمكن أن يحدث، وبعد أن تكون قد نظرت إلى الكارثة فى وجهها، أعط لنفسك كل الحجاج فى أنه رغم كل شيء لن تكون الكارثة خطيرة جداً. مثل هذه الحجاج موجودة دائماً، فعلى أسوأ الفروض لا شيء يحدث لك يمكن أن تكون له فى الحقيقة أى أهمية كونية. وبعدما تكون قد نظرت لفترة من الوقت بإمعان إلى أسوأ احتمال وقلت لنفسك باقتناع حقيقى «حسن، فرغم كل شيء لن يكون ذلك مهماً بهذه الدرجة الكبيرة»، ستجد أن قلقك قد تضاعف إلى مدى غير عادى، وقد يكون من المهم أن تعيد هذه العملية عدة مرات ولكن فى النهاية، إذا لم تكن قد أغفلت شيئاً عندما واجهت أسوأ الاحتمالات، ستجد أن قلقك قد اختفى تماماً وحل محله نوع من الغبطة، ويعد ذلك جزءاً من أسلوب أكثر شمولاً لتفادى الخوف. فالقلق صورة من صور الخوف وكل صور

الخوف تؤدي إلى الإعياء، والرجل الذي تعلم ألا يحس بالخوف سوف يجد أن متاعب الحياة اليومية قد تضاءلت بشدة.

(٨)

وأشد صور الخوف ضرراً تحدث عندما يكون هناك خطر لا نود مواجهته، ففي لحظات شاذة تبرز الأفكار المخيفة في عقولنا، ونوعية هذه الأفكار يعتمد على الشخص ولكن لكل شخص تقريباً يوجد نوع من الخوف الكامن، فلشخص ما قد يكون الخوف من السرطان، ولآخر الخراب المالي، ولشخص ثالث أن ينكشف سراً مشيناً، وقد يتعذب شخص رابع بشكوك الغيرة، بينما تنوش شخص خامس أثناء الليل فكرة أن قصص نار جهنم التي سمعها في طفولته قد تكون صحيحة! وربما كان كل هؤلاء يستخدمون الأسلوب الخطأ في التعامل مع هذه المخاوف، ففي أى وقت تغزو فيه هذه المخاوف عقولهم، يحاولون التفكير فى شئ آخر ويحاولون تشتيت أفكارهم باللهو أو العمل أو غير ذلك. وكل طراز من الخوف ينمو إلى الأسوأ ما لم تتم مواجهته، والمجهود الذى يبذل من الشخص لإبعاد تفكيره عن الخوف الذى يشغله هو بمثابة الإتاوة التى يدفعها لفظاعة الأمر الذى يتعد بفكره عنه، والسلوك المناسب لك طراز من الخوف هو أن تفكر فيه منطقياً وبهدوء، ولكن بتركيز شديد إلى أن يصبح مألوفاً لك تماماً، وفى النهاية فإن هذا التآلف سيقلم المخاوف وسيصبح الموضوع برمته

مملأً، وستصرف أفكارك بعيداً عنه، ولن يحدث ذلك بالأسلوب الذى يعتمد على مجهود الإرادة ولكنه سيحدث نتيجة لانعدام أهمية الموضوع المسبب للخوف. فعندما تجد نفسك تميل للتفكير فى أى شئ مهما كان، فأفضل خطة هى أن تفكر فيه بتركيز أكبر عما كنت ستفعله طبيعياً إلى أن يتلاشى فى النهاية سحره المرضى.

(٩)

ومن الأمور التى تفتقر إليها بشدة الأخلاق الحديثة هو ما يتعلق بموضوع الخوف، فصحيح أن الشجاعة البدنية، خاصة فى الحرب، أمر متوقع من الرجال وإن كانت بعض طرز الشجاعة الأخرى ليست مطلوبة منهم، وأية صورة من صور الشجاعة ليست متوقعة من النساء.، فالمرأة الشجاعة يجب عليها أن تخفى هذه الحقيقة إذا أرادت أن يحبها الرجال. والرجل الذى يكون شجاعاً فى كل أمر فيما عدا الخطر المادى ينظر إليه بإزدراء، فعدم الاعتداد بالرأى العام مثلاً، يعتبر تحدياً والجمهور يفعل كل ما فى وسعه لمعاينة الشخص الذى تجرأ وتحدى سلطته. كل هذا يعد نقيضاً لما يجب أن يكون، فكل شكل من أشكال الشجاعة، فى الرجال كان فى النساء، يجب الإعجاب به طالما كانت شجاعة الجندى البدنية أمراً يستحق الإعجاب. وشيوع الشجاعة البدنية بين الشباب من الرجال دليل على أن الشجاعة يمكن أن تحدث كاستجابة للرأى العام الذى يطلبها، فأينما كانت الشجاعة أكثر، كان

القلق أقل وبالتالي كان الإعياء أقل، حيث إن نسبة كبيرة من الإعياء العصبي الذي يعانيه الرجال والنساء في الوقت الحاضر ترجع إلى الخوف سواء كان واعياً أو لا واعٍ .

(١٠)

ويعد حب الإثارة من مصادر الإعياء الشائعة. فإذا استطاع الرجل أن يقضى وقت راحته في النوم، لحافظ على صحته، ولكن ساعات عمله كثيفة وهو يحس بالحاجة للاستمتاع في ساعات حرته. المشكلة أن المتع التي من السهل الحصول عليها والتي لها جاذبية ظاهرية أكثر، هي في أغلبها من النوع المتعب للأعصاب. وعندما تتجاوز الرغبة في الإثارة حدًا معينًا تكون علامة إما لاستعداد غير سوى أو لعدم الإشباع الغريزي. ففي الأيام الأولى من الزواج السعيد معظم الرجال بالحاجة للإثارة، ولكن في العالم الحديث يتحتم في معظم الأحيان تأجيل الزواج لفترة طويلة لدرجة أنه عندما يصبح من الممكن ماديًا إنجازه تكون الرغبة في الإثارة قد أصبحت عادة ولا تستمر في عطائها إلا لفترة قصيرة. فإذا سمح الرأي العام للرجال بالزواج عند سن الواحد والعشرين دون تجشم المعاناة المالية التي يشتمل عليها الزواج حاليًا، فلن يسير كثير من الرجال في طريق طلب تلك المتع التي تصيبهم بالإعياء كعملهم تمامًا. وقد يبدو اقتراح جعل ذلك ممكنًا أمرًا لا أخلاقيًا كما يدل على ذلك مصير القاضى لندزى الذى عانى من الطعن فى شخصه رغم ماضيه المشرف كقاض ، وكانت جريمته

الوحيدة هى أنه أراد إنقاذ الشباب الصغير من المصائب التى يعانونها نتيجة تعصب من هم أكبر سنًا، ولن أخوض فى هذا الموضوع أكثر من ذلك الآن، حيث سيأتى الحديث عنه تحت عنوان «الحسد» والذى سأتناوله فى فصل لاحق.

(١١)

ومن الصعب على الفرد الذى لا يمكنه تغيير القوانين والأعراف التى يعيش فى ظلها أن يجارى الموقف الذى خلقه الأخلاقيون العدوانيون وحافظوا على استمراره. ولكن من المفيد إدراك أن المتع المثيرة ليست هى الطريق إلى السعادة، رغم أنه طالما ظلت الملذات الأكثر إشباعاً غير ممكنة، فقد يجد الإنسان أنه من الصعب عليه تحمل الحياة بدون إثارة. وفى مثل هذا الموقف فإن الشئ الوحيد الذى يستطيع الرجل الرزين أن يفعله هو أن يقنن لنفسه ولا يسمح لنفسه بكمية من المتع المبهقة تؤدى إلى الضرر بصحته أو تتعارض مع عمله. والعلاج الجذرى لمتاعب النشء يكمن فى تغيير الأخلاق العامة. فى نفس الوقت يُحسّنُ الشباب الصغير لنفسه إذا فكر فى أنه فى النهاية سيكون فى موقف الزواج، وأنه لن يكون حكيماً إذا ما عاش بطريقة تجعل من الزواج السعيد أمراً مستحيلاً، وهو ما تؤدى إليه بسهولة الأعصاب الضعيفة واكتساب عدم القدرة على الاستمتاع بالمتع الأكثر رقة.

(١٢)

ومن أسوأ خصائص الإعياء العصبى أنه يعمل كستار يحول بين الإنسان والعالم الخارجى. فالانطباعات تصله مهتزة صامتة، وهو لم يعد يلاحظ الناس إلا عندما تثيره بعض الحيل أو السلوكيات الصغيرة ولا يحصل على أى متعة من وجباته أو من الشمس المشرقة، ولكنه يميل لأن يركز انتباهه بتوتر شديد على أشياء قليلة، ولا يبالى بكل الباقي. ومثل هذه الحالة تجعل الراحلة أمراً مستحيلاً بالنسبة له، بحيث يزيد الإعياء باستمرار إلى أن يصل إلى النقطة التى يتطلب فيها علاجاً طبيّاً، وأصل كل ذلك هو الجزاء على فقدان الاتصال بالأرض والذى تحدثت عنه فى الفصل السابق. ولكن من السهل معرفة كيف يمكن الحفاظ على هذا الاتصال فى مجتمعنا الحديث الكبير الحضرى. وعلى كل حال، فهذا نحن مرة أخرى نجد أنفسنا فى مواجهة قضايا اجتماعية كبيرة ليس من مقاصدى التصدى لها فى هذا الكتاب.

الفصل السادس

الحسد

(1)

ربما يجيء الحسد تاليًا كأحد أقوى مسببات التعاسة، والحسد من أكثر المشاعر الإنسانية شيوعًا وعمقًا في وجودها وهو من الأمور التي تلاحظ بسهولة في الأطفال مثل بلوغهم السنة الأولى من العمر، ويجب على كل مُربٍّ أن يعالجه بأكثر صور الاعتبار رقة. وأبسط مظاهر تفضيل طفل على آخر يلاحظ ويرفض في التو واللحظة، ويجب على كل فرد لديه أطفال - يتعامل معهم - أن يوزع بينهم العدالة على أن تكون عدالة مطلقة، صارمة، وغير مميّزة. والأطفال أكثر صراحة من الكبار بدرجة بسيطة في تعبيرهم عن الحسد والغيرة (وهي صورة خاصة من الحسد)، وهذه المشاعر شائعة بين البالغين بنفس درجة شيوعها بين الأطفال .

خذ الخادِمات مثلاً، فأنا أذكر أنه عندما صارت إحدى خادِماتنا وكانت متزوجة حاملاً، وقلنا إنها لا يجب أن ترفع أية أحمال ثقيلة،

كانت النتيجة اللحظية أن رفضت كل الأخريات جميعاً رفع أية أحمال ثقيلة، وكان علينا القيام بأى عمل يتطلب ذلك بأنفسنا.

والحسد هو أساس الديمقراطية، فالفيلسوف اليونانى هيراقليطس رأى أن مواطنى مدينة أيفسيس كان يجب شنقهم جميعاً لأنهم قالوا «لن تكون لواحد منا الأولوية على الباقين» ولابد وأن الحركة الديمقراطية فى الولايات اليونانية قد استلهمت بكاملها من هذه العاطفة، ويصدق نفس الشئ على الديمقراطية الحديثة، فمن الصحيح أنه توجد نظرية مثالية تعد الديمقراطية وفقاً لها أفضل صور الحكم، وأنا شخصياً أؤمن بصحة هذه النظرية ولكن فى السياسة العملية لا يوجد أى مجال تكون فيه النظريات المثالية قوية بالدرجة التى تكفى لإحداث تغييرات عظيمة. وعند حدوث التغييرات العظيمة فدائماً ما تكون النظريات التى تبرر وقوعها عبارة عن تمويه على العاطفة التى أنتجتها. والعاطفة التى أعطت قوة الدفع للنظرية الديمقراطية هى بدون شك عاطفة الحسد. فلتقرأ مذكرات مدام رولاند، والتى كثيراً ما صورت على أنها امرأة نبيلة ألهمت الإخلاص للشعب، ستجد أن ما جعلها ديمقراطية متوقدة هو أنها كانت تستقبل فى صالة الخدم حينما كانت تتاح لها فرصة زيارة أحد القصور الأرستقراطية.

(٢)

ويلعب الحسد دوراً كبيراً بدرجة غير عادية بين أواسط النساء المحترمات، فلو كنت جالسا فى مترو الأنفاق، وحدث أن سارت عبر

العربة امرأة أنيقة المظهر، راقب عيون النساء الأخريات، ستجد أن كل واحدة منهن ربما باستثناء من هن أكثر منها أناقة، سوف ينظرن إلى هذه المرأة بنظرات حقودة، ولسوف يتبارين فى رسم انطباعات منحطة عنها.

وحب الفضيحة هو أحد تعبيرات هذا الحقد العام، فكل قصة عن امرأة أخرى يتم تصديقها فى التو واللحظة حتى لو كان الدليل واهياً. ويخدم الخلق السامى نفس الغرض: فأولئك الذين لديهم فرصة أن يذنبوا ضده يحسدون، ويكون من الفضيلة أن يعاقبوا على ارتكاب هذا الذنب، مثل هذا النوع من الفضيلة هو بالتأكيد عين الجزاء فى نفس الوقت يلاحظ نفس الشيء تماماً بين الرجال، فيما عدا أن النساء يعتبرن كل النساء الأخريات منافسات لهن، بينما الرجال كقاعدة يضمرون هذا الإحساس تجاه الرجال الآخرين الذين يعملون بنفس المهنة، فهل كنت يوماً أيها القارئ، وقحاً لدرجة أن تمدح فناناً لفنان آخر؟ هل مدحت أبداً سياسياً لسياسى آخر من نفس الحزب؟ هل مدحت مرة عالم مصريات وعالم مصريات آخر؟ إن كنت قد فعلت، فاحتمال مئة لواحد أنك قد تسببت فى تفجير الغيرة.

(٣)

فى مراسلات العالم لبيستز للعالم هيوجين عدد من الخطابات التى تتحسر على الحقيقة المفترضة أن العالم نيوتن قد فقد عقله، فقد

كتبنا لبعضهما «أليس محزنًا أن تصبح عبقرية السيد نيوتن والتي لا مثل لها، مشوشة بفقدان العقل؟» وذرف هذان السيدان البارزان دموع التماسيح بللدة واضحة في الرسالة تلو الأخرى، والحقيقة أن الحدث الذي تحسرا عليه بنفاق واضح لم يقع، إلا أن القليل من صور السلوك الشاذ هو ما أدى إلى ظهور هذه الشائعة.

ويعد الحسد من أسوأ خصائص الطبيعة الإنسانية العادية، فالحاسد لا يود فقط أن تصع المصيبة، بل ويوقعها بنفسه إذا استطاع أن يفلت من العقاب. ولكن الحاسد يصبح هو نفسه تعيّسًا بهذا الحسد، فبدلاً من أن يسره ما لديه، يؤلمه ما لدى الآخرين، فلو استطاع لحرم الآخرين ميزاتهم، ويكون ذلك بالنسبة له مرغوباً كما لو أنه حصل على هذه المزايا لنفسه. وإذا ما سمح لهذه العاطفة أن تعربد فستमित كل امتياز وكل الممارسات النافعة للقدرات الاستثنائية. فلماذا يذهب الطبيب إلى مرضاه في سيارة بينما العامل يذهب إلى عمله ماشياً؟ ولماذا يسمح للباحث العلمي أن يمضي وقته في غرفة دافئة في الوقت الذي يجب فيه على الآخرين مواجهة قسوة الفصول؟ لماذا يجب أن نوفر على الرجل الذي لديه موهبة نادرة وذات أهمية قصوى للعالم متاعب أعماله المنزلية؟ لمثل هذه التساؤلات لا يجد الحسد إجابات، ولحسن الحظ، توجد في الطبيعة الإنسانية عاطفة معوّضة وهي الإعجاب، فمن يرغب في زيادة السعادة الإنسانية لابد وأن يرغب في زيادة الإعجاب وتقليص الحسد.

(٤)

ما دواء الحسد إذن؟ بالنسبة للقديس يكون الدواء هو الإيثار رغم أنه حتى في حالة القديسين، فالحسد لغيرهم من القديسين ليس مستحيلًا، فأنا أشك في أن القديس سيميون ستيلتس كان سيحس بالسرور إذا علم عن قديسين آخرين أمكنهم الوقوف لفترات أطول منه على عمود أضيق حتى من عموده.

ولكن إذا أسقطنا القديسين من الحساب، فإن الدواء الوحيد للحسد بالنسبة للرجال والنساء العاديين السعادة. وتكمن الصعوبة في أن الحسد هو في ذاته عقبة كثود أمام السعادة. وأعتقد أن الحسد يتعاضد بالمصائب التي تحدث في الطفولة. فالطفل الذي يجد أن أخًا أو أختًا يفضلان عليه يكتسب عادة الحسد. وعندما يخرج إلى العالم يبحث عن المظالم التي يكون هو ضحية لها ويدركها حال وقوعها أو يتخيلها إذا لم تقع. مثل هذا الرجل لابد وأن يكون تغيصًا ويصبح مزعجًا لأصدقائه الذين لا يتذكرون دائمًا تجنب الإزدراء به وفقًا لتخيله؛ ولأنه بدأ بالاعتقاد بأن أحدًا لا يحبه، فإنه يصل بسلوكه في النهاية إلى جعل هذا الاعتقاد صحيحًا. ومن المصائب التي تحدث في الطفولة ويكون لها نفس الأثر هو ألا يكون للوالدين أحاسيس أبوية كافية، وحتى إذا لم يكن للطفل أخ أو أخت مفضلان عليه فقد يحس أن الأطفال في العائلات الأخرى محبوبون من الأب والأم أكثر مما في

حالته. وسوف يؤدي به ذلك إلى كراهية الأطفال الآخرين وكراهية والديه، وعندما يكبر سوف يحس بنفسه وكأنه إسماعيل (نبي الله). بعض طرز السعادة تعد من حقوق المولد لكل فرد، والحرمان منها لابد وأن يؤدي إلى الانحراف والمرارة، ولكن قد يقول الحاسد، «ما فائدة أن يقال لى : إن دواء الحسد هو السعادة؟ أنا لا أستطيع أن أجد السعادة طالما استمر إحساسى بالحسد، وأنت تقول لى : إننى لن أتخلص من الحسد إلى أن أجد السعادة!»، ولكن الحياة الحقيقية ليست أبداً منطقية على هذا النحو، فمحض إدراك المسببات الخاصة بمشاعر حسد الفرد تعنى القيام بخطوة كبيرة فى اتجاه علاجها. وعادة التفكير بمنطق المقارنات هى عادة قاتلة، فعندما يحدث أى شىء مبهج يجب الاستمتاع به إلى أقصى درجة دون أن تتوقف لتفكر فى أنه ليس مبهجاً بنفس درجة أمر آخر ربما كان يحدث لشخص آخر. سيقول الحاسد «نعم، هذا اليوم مشمس، وإنه لفصل الربيع، والطيور تغرد، والزهور متفتحة، ولكنى أعلم أن فصل الربيع فى صقلية أجمل ألف مرة وأن الطيور تغنى بروعة أكثر فى غابات هيليكون، وأن وردة شارون أجمل من أى من ورود حديقتى». وهو عندما يفكر على هذا النحو تظلم السماء، ويصبح تغريد الطيور مجرد زقزقة عديمة المعنى وتبدو الزهور غير جذيرة بالنظر إليها ولو للحظة، وهو يعامل كل متع الحياة الأخرى بنفس الأسلوب، سيقول لنفسه : «نعم، فسيدة قلبى جميلة، وأنا أحبها وهى تحببى، ولكن ملكة سبأ لابد وأنها كانت تفوقها كثيراً حسناً وروعة.. آه لو كانت لى فرصة الملك سليمان»

كل هذه المقارنات عديمة المعنى وغيبية. فسواء أكانت ملكة سبأ أو الجارة فى المنزل المجاور هى سبب عدم الرضا فكلاهما عديمة الجدوى. فالرجل الحكيم لا يفقد ما لديه القدرة على إمتاعه لأن أحداً غيره لديه شىء مختلف.

(٥)

والحسد هو فى الحقيقة إحدى صور الرذيلة، والتى هى جزئياً أخلاقياً وجزئياً فكرية، وتتجم عن عدم رؤية الأشياء فى ذاتها وإنما فى علاقاتها ببعضها البعض فأنا مثلاً أكسب راتباً كافياً لاحتياجى. يجب أن اكون قانعاً ولكننى أسمع أن شخصاً آخر، لا أعتقد أنه يفضلنى على الإطلاق، يكسب راتباً يعادل ضعف راتبى، ففى التو واللحظة إذا كانت طبيعتى حسودة، فإن الأشباع الذى كنت أحصل عليه مما عندى يصبح معتماً ويبدأ الإحساس بالظلم يأكلنى. والعلاج المناسب لكل ذلك هو الانضباط العقلى أى عادة التفكير فى أمور عديمة الجدوى، فرغم كل شىء. ما الذى يمكن أن يحسد أكثر من السعادة؟ فإذا استطعت علاج نفسى من الحسد. فسأستطيع الحصول على السعادة وأصبح محسوداً. فالرجل الذى يحصل على ضعف راتبى تعذبه لا شك فكرة أن شخصاً آخر يحصل على ضعف ما يحصل عليه هو، وهكذا دواليك، فإذا كنت ترغب فى المجد، فقد تحسد نابليون، ولكن نابليون كان يحسد قيصر، وقيصر كان يحسد الإسكندر، والإسكندر ربما قلت

إنه كان يحسد هرقل الذى لم يوجد على الإطلاق. وأنت لن يمكنك التخلص من الحسد بالنجاح وحده لأنه سيوجد دائماً فى التاريخ أو الأساطير شخص ما أكثر منك نجاحاً، ولكن يمكنك التخلص من الحسد بأن تستمتع بالمسرات التى تأتى فى طريقك وبأن تقوم بالعمل الذى عليك عمله، وأن تتجنب المقارنات التى تعقدها بأولئك الذين تتخيل، وأنت واهم فى ذلك تماماً، أنهم أكثر منك حظاً.

(٦)

والتواضع غير الضرورى له علاقة كبيرة بالحسد، فالتواضع يعد فضيلة، ولكن بالنسبة لى، فأنا أشك كثيراً ما إذ كان فى أقصى صورته تطرفاً يستحق أن يعد كذلك، فالتواضعون يحتاجون إلى قدر كبير من الثقة فى النفس ولا يجرؤون على محاولة القيام بأمر يقدرّون عليها تماماً، فالتواضعون يعتقدون أنهم أقل مكانة من أولئك الذين يعايشونهم، وبالتالي يكونون معرضين بدرجة أكبر للحسد وعبر الحسد للتعاسة وللرغبات الشريرة.

وأنا أعتقد أن هناك كثيراً مما يجب أن يقال عن تنشئة الصبي معتقداً أنه إنسان رائع، فأنا لا أعتقد أن أى طاووس يحسد ذيل طاووس آخر، لأن كل طاووس مقتنع بأن ذيله هو أبداع ذيل فى العالم، ولذلك كان الطاووس طائراً مسالماً. تخيل كيف ستكون حياة

الطاووس تعيسة إذا ما لقن أنه من الشر أن يكون للفرد رأياً طيباً عن نفسه فأينما رأى طاووساً آخر ينشر ذيله كان سيقول لنفسه : «لا يجب أن أتخيل أن ذيلي أفضل من هذا الذيل ، لأن ذلك سيكون غروراً ، لكنى كم أود لو كان . . فهذا الطائر الكريه يبدو شديد الاقتناع بعظمته . . هل أنتف بعضاً من ريشه ! ربما لا أخشى عندئذ من مقارنة نفسى به» ، أو ربما نصب فخاً له وأثبت أنه كان طاووساً شريراً وكان مذنّباً بجريمة عدم السلوك كما ينبغى لطاووس ، ويشى به لمجلس القادة . وتدريباً يضع قاعدة أن كل الطواويس التى لها ذيول جميلة بشكل خاص هى غالباً شريرة وأن الحاكم الرشيد فى مملكة الطواويس يجب أن ينشد دائماً الطائر المتواضع الذى لا يوجد بذيله سوى قليل من الريش المتسخ فحسب ، وما أن يجعل هذا المبدأ مقبولاً ، إلا ويدفع بكل الطيور البديعة إلى الموت ويصبح الذيل البديع فى النهاية مجرد ذكرى خافتة من ذكريات الماضى وهكذا يكون انتصار الحسد المتكرر فى صورة أخلاق .

(٧)

والحسد بالطبع على علاقة وطيدة بالتنافس ، فنحن لا نحسد الثروة الكبيرة التى ندرك أنها بعيدة عن متناولنا ، ففى العصر الذى كان فيه التسلسل الهرمى الاجتماعى مستقراً ، كانت الطبقات الدنيا لا تحسد الطبقات العليا طالما كان المعتقد أن تقسيم الغنى والفقر قد فرضه الله .

فالشحاذون لا يحسدون المليونيرات رغم أنهم يحسدون الشحاذين الآخرين الأكثر نجاحًا. وعدم استقرار الوضع الاجتماعى فى العصر الحديث، وعقيدة المساواة فى الديمقراطية والاشتراكية أدبًا معًا إلى اتساع نطاق الحسد بدرجة كبيرة. وقد يبدو ذلك للحظة شراً، ولكنه شر يجب احتماله كى نصل إلى نظام اجتماعى أكثر عدالة، فما أن تفكر فى عدم المساواة منطقياً إلا وتجدها ظالمة ما لم تركز على بعض الميزات الخارقة. وما أن يتضح ظلمها إلا ويصبح علاج الحسد الناجم عنها هو بإزالة هذا الظلم، عصرنا إذن هو العصر الذى يلعب فيه الحسد دوراً عظيماً بوجه خاص. فالفقير يحسد الغنى، والدول الأفقر تحسد الدول الأغنى، والنساء يحسدون الرجال، والنسوة الفضليات يحسدون عديمات الفضيلة اللاتى لا يعاقبن رغم ذلك. فبينما من الصحيح أن الحسد هو القوة المحفزة الرئيسة التى تقود إلى العدالة بين الطبقات المختلفة والدول المختلفة والأجناس المختلفة، فمن الصحيح أيضاً أن طراز العدالة المتوقع نتيجة للحسد من الأرجح أن يكون أسوأ طراز ممكن وهو الذى يكون عبارة عن تقليص متع الأثرياء بدلاً من زيادة متع غير الأثرياء. فالعواطف التى تؤدى إلى الدمار فى الحياة الخاصة تؤدى إلى الدمار أيضاً فى الحياة العامة. ولا يجب افتراض أن أمراً سيئاً جداً كالحسد يمكن أن ينتج عنه أى شئ طيب. فالذين يرغبون لأسباب مثالية فى إحداث تغييرات شاملة فى نظامنا الاجتماعى وتعظيم كمية العدل الاجتماعى يجب أن يأملوا أن تعمل قوى أخرى غير الحسد فى إحداث هذه التغييرات.

(٨)

كل الأشياء الرديئة متصلة ببعضها، وكل منها عرضة لأن يكون السبب في الآخر، وعلى وجه الخصوص فإن الإعياء هو السبب الشائع جدًا للحسد. فعندما يحس الرجل أنه غير كفء بالنسبة للعمل الذى أوكل إليه، فسيحس بالسخط العام، والذى يكون عرضه لأن يأخذ صورة الحسد تجاه أولئك الذين لا تتطلب أعمالهم نفس الكفاءة. وبالتالي، فإحدى طرق تقليص الحسد هو زيادة الفعالية. ولكن الشيء الأكثر أهمية هو تأمين حياة كفيلة بإشباع الغريزة. فكثير من الحسد الذى يبدو مهنيًا تمامًا له فى الحقيقة مصدر جنسى. فالرجل السعيد فى زواجه، من غير الأرجح أن يحس بكثير من الحسد لغيره من الرجال، سواء لثروتهم العظيمة أو لنجاحهم طالما كان عنده ما يكفى لتثنيه أطفال بالطريقة التى يحس أنها الطريقة السليمة. فضرورات السعادة الإنسانية بسيطة، بسيطة جدًا لدرجة أن الناس المتمرسين بالحياة الحديثة لا يمكنهم الإقرار بما يفتقدونه حقيقة. فالنساء اللاتى تحدثنا عنهن منذ برهة- اللاتى ينظرن بحسد لآى امرأة أنيقة المظهر- هن بالتأكيد غير سعيدات فى حياتهن الغريزية. فالسعادة الغريزية نادرة فى العالم الذى يتحدث الإنجليزية، وخاصة بين النساء. فالمدينة يبدو أنها قد ضلت الطريق فى هذا الخصوص، فلو أن الحسد يوجد بدرجة أقل، لوجدت

السبل لعلاج هذا الوضع لأنه إذا لم تتواجد هذه السبل ستكون مدينتنا مهددة بخطر الهبوط إلى الدمار الذى ستحدثه عريضة الكراهية. ففي الأيام الخوالي، كان الناس يحسدون جيرانهم فقط لأن معرفتهم بالآخرين كانت ضئيلة، والآن من خلال التعليم والصحافة أصبحوا يعرفون الكثير بصورة مجردة عن قطاعات عريضة من البشر ليس من بينهم فرد واحد من معارفهم، ومن خلال الأفلام يعتقدون أنهم يعرفون كيف يعيش الأغنياء، ويعرفون من الصحف الكثير عن شروور الدول الأجنبية، وعبر الدعاية يعرفون عن السلوكيات البشعة لأولئك الذين يحتوى جلداهم على لون مختلف عن لونهم، فالصفر يكرهون البيض، والبيض يكرهون السود، وهكذا.

(٩)

ويمكن القول بأن من حرك مثل هذه الكراهية هي الدعاية وإن كان ذلك لا يعدو أن يكون تفسيراً سطحياً. فلماذا تكون الدعاية ناجحة جداً فى تحريك الكراهية عما لو حاولت تحريك المشاعر الودية؟ من الواضح أن السبب هو أن القلب الإنسانى على النحو الذى صنعتته المدنية الحديثة يعد أكثر استعداداً للكراهية عن الصداقة، وهو أكثر استعداداً للكراهية لأن غير راض، ويحس بعمق وربما بطريقة لا شعورية أنه بطريقة ما قد فاته معنى الحياة، وأن آخرين، ليسوا نحن،

احتفظوا بالأشياء الطيبة التي توفرها الطبيعة لمتعة الإنسان. والمحصلة الموجبة للمتعة في الحياة الحديثة للفرد هي بلا شك أعظم مما كان موجودا في المجتمعات الأكثر بدائية، وإدراك ما يمكن أن تصبح عليه زاد حتى بدرجة أكبر، فأينما حدث وأخذت أطفالك إلى حديقة الحيوان، فقد تلاحظ في أعين القروء، عندما لا يكونون يتقافزون أو يكسرون الجوز، وجود حزن حبيس غريب. ويمكن تخيل كيف يشعرون بأنهم يجب أن يكونوا بشرًا ولكنهم لا يستطيعون اكتشاف سر كيف يفعلون ذلك، فهم قد ضلوا الطريق في مسيرة التطور، وسار أبناء عمومته قُدُمًا، بينما تردوا هم في المؤخرة. شيء من نفس نوعية هذا الانضغاط والغضب يبدو أنه قد دخل إلى روح الإنسان المتمدين، فهو يدرك أن هناك شيئًا أفضل من ذلك يكاد يكون في تناول قبضته ولكنه لا يدري أين يبحث عنه أو كيف يجده، وهو يثور يائسا ضد أخيه الإنسان الذي يشعر مثله بالضياح والتعاسة. ولقد وصلنا إلى مرحلة من التطور ليست هي المرحلة النهائية، ويجب أن نمر بها سريعاً لأننا إذا لم نفعل، فسيهلك أغلبنا في الطريق، وسيضيع الآخرون في غابة الشك والخوف. فالحسد بالتالي، شر على ما هو عليه، بآثاره الفظيعة، ليس كله من الشيطان، فهو - جزئياً - التعبير عن ألم بطولى، ألم أولئك الذين يمشون خلال الليل عمياناً، ربما إلى مكان راحة أفضل، وربما فقط إلى الموت والدمار. ولكي نجد الطريق الصحيح من بين ركام هذا اليأس يجب على الإنسان المتمدين أن يفتح قلبه كما فتح عقله، وأن يتعلم كيف يتجاوز ذاته، وهو عندما يفعل ذلك يكون قد حقق حرية الكون .

الفصل السابع

حاسة الإثم

(1)

سبق أن تعرضنا بالحديث عن حاسة الإثم فى الفصل الأول، ولكننا الآن يجب أن نتعرض لها بعمق أكبر، حيث إنها تعد من أهم المسببات النفسية الرئيسية للتعاسة فى حياة البالغين.

هناك سيكولوجية دينية تقليدية للإثم لا يمكن لأى من علماء النفس المحدثين قبولها، فقد كان مفترضاً وخاصة بواسطة البروتستانت، أن الضمير سوف يكشف لكل إنسان عندما يغريه القيام بعمل ما، ما إذا كان هذا العمل إثماً، ذلك أنه بعد القيام به سوف يحس بأى من إحساسين مؤلمين، أحدهما يسمى بتأنيب الضمير، ولا ميزة له أو فضل، والآخر يسمى بالتوبة، وهو الذى بمقدوره أن يحو الذنب. وفى الدول البروتستانتية، حتى أولئك الذين فقدوا إيمانهم يظلون لفترة من الوقت مقتنعين مع قليل أو كثير من التعديلات، بالنظرة الأصولية للخطيئة.

وفى يومنا هذا، نجد أن لدينا وضعاً مناقضاً لذلك تماماً، ويرجع ذلك جزئياً إلى التحليل النفسى، فالذين يرفضون المفهوم القديم للخطيئة ليسوا هم الأصوليون فقط، وإنما يرفضه الكثيرون ممن لا يزالون يعتبرون أنفسهم أصوليين.

(٢)

الضمير لم يعد شيئاً غامضاً، وهو الذى كان يعد صوت الله نتيجة هذا الغموض، فنحن نعلم أن الضمير يتعلق بأفعال مختلفة فى أماكن مختلفة من العالم، وإذا ما تكلمنا بصفة عامة، فالضمير يتوافق فى كل مكان مع عادات القبيلة، فما الذى يحدث حقيقة عندما يؤنب الضمير فرداً ما؟ كلمة «الضمير» تغطى فى الواقع مشاعر متباينة عديدة، أبسطها الخوف من الانكشاف، فأنت أيها القارئ قد عشت - وأنا متأكد من ذلك - حياة لا تشوبها شائبة، ولكنك إذا سألت شخصاً قام أحياناً بأفعال يعاقب عليها إذا ما اكتشفت، ستجد أنه عندما يصبح اكتشافها وشيكاً، أن الشخص موضع السؤال يندم على جريمته. ولا أدعى أن ذلك ينطبق على اللص المحترف الذى يتوقع السجن لفترة ما كعنصر من عناصر مجازفة المهنة، ولكن ذلك ينطبق على ما يمكن أن يسمى بالمدنّب المحترم، مثل مدير البنك الذى اختلس فى لحظة شدة، أو القسيس الذى وقع فى بعض المحظورات الحسية تحت تأثير الإغراء العاطفى. فمثل هذين الرجلين ينسيان جريمتيهما عندما تكون فرصة اكتشافهما ضئيلة، ولكن عند اكتشافهما أو عندما تكون خطورة أن يتم

اكتشافها كبيرة، يودان لو كانا أكثر فضيلة. هذه الرغبة قد تعطيهم إحساساً حياً بحجم ذنبهم، والخوف من إزدراء القطيع يعد من المشاعر المواكبة جداً لهذا الإحساس، فالرجل الذى يغش فى لعب الورق، أو يفشل فى أداء ديوان المقامرة لا يجد فى داخله ما يمكن أن يقف ليدافع عنه ضد احتقار القطيع له عندما ينكشف أمره. وهو يختلف فى ذلك عن المصلح الدينى، وكذلك الفوضوى والثورى الذين يحسون أنه مهما كان وضعهم فى الحاضر فإن المستقبل معهم، وسوف يزيكهم بنفس الدرجة التى يطمسهم بها الحاضر. هؤلاء الرجال بالرغم من عدااء القطيع لهم، لا يحسون بأنهم آثمون، بينما الشخص الذى يقبل تماماً أخلاقيات القطيع بينما يسلك سلوكاً متنافياً معها يعانى من التعاسة العظيمة عندما يفقد اعتباره، والخوف من هذه الكارثة أو من الألم المصاحب لها عند حدوثها يؤديان به إلى أن يعتبر أن سلوكياته نفسها آثمة.

(٣)

ولكن حاسة الإثم فى أكثر صورها أهمية هى أمر أعمق من ذلك، لأن لها جذوراً فى اللاوعى ولا تظهر فى الوعى على أنها الخوف من عدم رضا الناس. ففى حالة الوعى توجد أفعال معينة عليها علامة «إثم» بلا أى سبب ظاهر للاستبيان. وعندما يرتكب الشخص هذه الأفعال يحس بعدم الراحة دون أن يعرف لماذا، فهو يود

لو كان الرجل الذى يمكنه الامتناع عما يعتقد أنه خطيئة وهو يعجب أخلاقياً بالذين يعتقد أنهم أنقياء القلب ويدرك بدرجة كبيرة أو صغيرة من الأسف أنه ليس مؤهلاً لأن يكون قديساً. وبالتأكيد فإن ما يتصوره عن القداسة ربما كان من المستحيل حدوثه فى واقع الحياة اليومية العادية، وبالتالي يمضى فى الحياة بإحساس الآثم شاعراً أنه قد حُرِم الأفضل وأن أجلّ لحظاته هى تلك الخاصة بالندم الشجى. وأساس ذلك فى كل الأحوال تقريباً التعاليم الأخلاقية التى يتم تلقينها للفرد قبل أن يصل إلى عمر ست سنوات، على يد أمه أو مربيته، فهو يتعلم قبل وصوله إلى هذه السن أن السباب شر، وأنه ليس من اللائق استخدام أى لغة سوى لغة السيدات الراقيات، وأن الرجال السيئين فقط هم الذين يشربون الخمر، وأن التبع لا يتفق مع المثل العليا، ويتعلم أن الإنسان يجب ألا يكذب أبداً، وفوق كل شيء يتعلم أن أى اهتمام بالأعضاء الجنسية أمر منكر، وهو يدرك أن تلك هى آراء أمه، ويؤمن بأنها آراء خالقه كذلك. وأقصى متعة فى حياته هى أن يحس بحنان أمه أو مربيته، إذا كانت أمه مقصرة، ولا تتاح له هذه المتعة إلا عندما لا يكون قد أذنب ضد هذه التعاليم الأخلاقية. ويصل إلى أن يوجد الصلة بين شيء غامض مهول وأى سلوك قد لا تقره أمه أو مربيته. وتدرجياً كلما تقدم فى السن ينسى من أين أتت هذه التعاليم الأخلاقية، وما إذا كانت فى الأصل عقوبة عدم طاعتها، ولكنه لا يلقى بها جانباً أو يتوقف عن الإحساس بأن شيئاً مخيفاً قد يحدث له إذا ما خرقتها.

(٤)

وأجزاء كبيرة جداً من هذا التعليم الأخلاقي للأطفال فارغة من أى أسس منطقية، وتوجد على نحو لا يمكن تطبيقه على السلوك الطبيعي للإنسان العادى. فالرجل الذى يستخدم ما يسمى «باللغة السيئة» على سبيل المثال ليس من وجهة النظر المنطقية أسوأ بأية درجة من الرجل الذى لا يستخدمها، ومع ذلك فعندما يحاول كل فرد تقريباً أن يتخيل قديساً فسوف يعتبر أن امتناعه عن الأسباب أمراً أساسياً. وإذا نظرنا إلى ذلك نظرة عقلية فسنعتبره سخفاً، وينطبق نفس الشيء على الخمر والتبغ. ففي الدول الجنوبية لا يوجد مثل هذا الشعور تجاه الخمر، وبالتأكيد هناك عنصر إلحاد فى ذلك، حيث إنه من المعروف أن المسيح ورسله قد شربوا النبيذ. أما بالنسبة للتبغ فمن الأسهل اتخاذ موقف سلبي منه، حيث إن كل عظماء القديسين عاشوا قبل أن يكون استعماله معروفاً. ولكن هناك أيضاً من المستحيل إجراء جدل منطقي، فالرأى بأن «أى قديس لا يمكن أن يدخن» يقوم وفق آخر التحليلات على قاعدة أن أى قديس لن يفعل شيئاً لمجرد أنه يوفر له المتعة فحسب، وعامل الزهد هذا أصبح فى الأخلاقيات العادية أمراً لا شعورياً تقريباً، ولكنه يعمل بكل الطرق التى تجعل أسسنا الأخلاقية غير منطقية. ففي الخلق الرشيد، من المحمود أن تمنح المتعة لأى فرد أو حتى للنفس طالما لم يتولد عن ذلك ألم مقابل للنفس أو للآخرين. والرجل الفاضل النموذجي، إذا ما تخلصنا من التقشف، سيكون هو

الرجل الذى يسمح بالاستمتاع بكل الأشياء الطيبة طالما لم يكن هناك شر لاحق يفوق فى حجمه تلك المتعة .

ولننظر مرة أخرى إلى موضوع الكذب . أنا لا أنكر وجود الكثير جداً من الكذب فى العالم ، أو أننا سنكون جميعاً أفضل لو زاد الصدق ، ولكننى أنكر كما أعتقد أن كل عاقل يفعل أن الكذب ليس له ما يبرره فى الأحوال . فلقد حدث أن رأيت مره خلال تيريدى ماشياً فى الريف ثعلباً متعباً فى آخر مراحل الإرهاق ولا يزال يجبر نفسه على الركض ، وبعد دقائق قليلة ، رأيت الصائدين ، وسألونى : إن كنت قد رأيت الثعلب . فقلت لهم : نعم رأيت . فسألونى : أى الطرق سلك ؟ فكذبت عليهم . ولا أعتقد أننى كنت سأصبح رجلاً أفضل إن كنت قد ذكرت لهم الحقيقة .

(٥)

وفوق كل شىء ، فإن الضرر الناجم عن التعليم الأخلاقى المبكر يكمن أساساً فى ميدان الجنس ، فإذا نشأ الطفل بالطريقة المتعارف عليها بواسطة أبوين مستشدين أو مربيات متشدات ، فإن العلاقة بين الإثم والأعضاء الجنسية تكون قد تكونت بشدة عند عمر السنوات الست ، بحيث يصبح من غير المرجح أن يمكن الفصل بين الأمرين فيما بعد عبر مابقى من العمر . وهذا الشعور يقوى بالطبع نتيجة عقدة أوديب ، حيث إن أكثر النساء حباً فى الطفولة هن اللاتى

يستحيل أن تكون هناك حرية جنسية معهن وتكون النتيجة أن يشعر كثير من الرجال البالغين أن المرأة تتهن نتيجة الجنس ولا يمكنهم احترام زوجاتهم ما لم يكن كارهاً للاتصال الجنسي، ولكن الغريزة سوف تقود الرجل الذي تكون زوجته باردة جنسياً إلى البحث عن الإشباع الجنسي في مكان آخر. وإشباع الغريزة، حتى وإن وجدته للحظات، سوف يكون قد تسمم نتيجة الإحساس بالإثم بحيث لا يمكنه أن يكون سعيداً في أى علاقة مع أى امرأة سواءً في إطار الزواج أو خارجه.

وفي جانب المرأة تحدث نفس الأشياء إذا كانت قد لقت بتركيز شديد أن تظل ما يسمى بـ«طاهرة» فهي لا تتجاوب غريزياً في اتصالاتها الجنسية مع زوجها وتخشى أن تحصل على أية لذة منها. وفي يومنا الحالى، ما يوجد من مثل هذا السلوك في جانب المرأة أقل كثيراً مما كان منذ خمسين عاماً، ولا بد وأن أقرر في الوقت الحالى تعد الحياة الجنسية بين المتعلمين أكثر اعوجاجاً وتسمماً في الرجال عن النساء نتيجة حاسة الإثم.

ولقد بدأ انتشار إدراك شُرور التعليم الجنسي التقليدي للصغار، رغم أن ذلك لم يشمل بالطبع السلطات العامة، والقاعدة الصحيحة بسيطة، فالى أن يقترب الطفل - ذكراً أو أنثى - من سن البلوغ لا تعلمه أو تعلمها أية أخلاقيات جنسية على الإطلاق، وحرص على تجنب زرع فكرة أن هناك شيء مقزز في وظائف الجسم الطبيعية. وعندما يحين الوقت الذى يصبح فيه ضرورياً أن تعطى بعض

التعليمات الأخلاقية، عليك التأكد من أنها منطقية، وأنه بالنسبة لكل نقطة تستطيع إعطاء خلفية جيدة لما تقول. بيد أن التعليم ليس هو ما أرغب في الحديث عنه في هذا الكتاب، فأنا مهتم في هذا الكتاب بما يمكن أن يفعله البالغون لتقليل الآثار الضارة للتعليم غير الرشيد فيما يؤدي إليه من الإحساس غير المنطقي بالإثم.

(٦)

والمشكلة هنا هي نفسها التي واجهتنا في الفصول السابقة، أى كيف نجبر اللاوعى أن يراعى المعتقدات الراشدة التى تحكم أفكارنا الواعية؟ فيجب ألا يسمح الناس لأنفسهم بالتأرجح وفقاً لمزاجهم فيعتقدون فى شئ لحظة وفى شئ آخر لحظة أخرى. فحاسة الإثم تكون بارزة بصورة خاصة فى اللحظات التى تضعف فيها الإرادة الواعية نتيجة الإعياء، المرض، الخمر، أو أى سبب آخر. فما يشعر به الإنسان فى هذه اللحظات (ما لم يكن هذا الشعور نتيجة شرب الخمر) من المفترض فيه أنه إلهامٌ من الذات العليا «عندما مرض الشيطان كاد أن يصبح قديساً» ولكن من غير المعقول افتراض أن تكون البصيرة أكبر فى لحظات الضعف عن لحظات القوة. ففى لحظات الضعف من الصعب مقاومة الإيحاءات الطفولية، ولكن لا يوجد مبرر على الإطلاق لاعتبار أن هذه الإيحاءات أفضل من معتقدات الرجل البالغ عندما يكون فى كامل السيطرة على قدراته. وعلى العكس، ما يعتقد

المرء عامداً بعقله الكامل وهو فى أوج قوته يجب أن يكون القاعدة بالنسبة له فيما يجب أن يعتقده فى كل الأوقات .

ومن السهل جداً تجاوز الإيحاءات الطفولية لللاوعى ، وحتى تغيير محتويات اللاوعى وذلك بتوظيف الأسلوب السليم ، فأينما بدأت تشعر بتأنيب الضمير لعمل يقول لك عقلك أنه ليس شريراً، اعتبر مسببات شعورك بتأنيب الضمير ، واقنع نفسك تفصيلياً بعدم معقوليتها . اجعل معتقداتك الواعية واضحة تماماً وقوية بالدرجة التى تترك انطباعاتاً فى عقلك اللاواعى يكون قوياً بدرجة كافية لمعادلة الانطباعات التى تركتها مريبتك أو أمك عندما كنت طفلاً . ولا تقنع بالتأرجح بين اللحظات الراشدة واللحظات غير الراشدة . أنظر إلى عدم الرشد نظرة متعمقة بإصرار على عدم احترامه وبأنك لن تتركه يتسبك . وفى أى وقت يدفع بالأفكار أو الأحاسيس السخيفة إلى حيز وعيك ، اقتلع هذه الأفكار من جذورها ، واختبرها ثم ارفضها ، ولا تسمح لنفسك أن تبقى مخلوقاً متردداً تميل مرة مع العقل ومرة مع السخافات الطفولية . لا تخشَ من عدم احترام ذكرى أولئك الذين تحكموا فى طفولتك . لقد بدوا لك آنذاك أقوياء وحكماء لأنك كنت ضعيفاً وغيباً ، وحيث إنك لم تعد كذلك الآن ، فمن حقل أن تختبر مدى قوتهم وحكمتهم ، وأن تحدد ما إذا كانوا يستحقون هذا الاحترام الذى لا زلت تكنه لهم نتيجة قوة العادة فحسب ، اسأل نفسك بجدية : هل أصبح العالم أفضل نتيجة التعليم الأخلاقى

التقليدى الذى يعطى للصغار. انظر كم من الخرافات الزائفة يدخل فى تكوين الرجل الفاضل التقليدى وتأمل فى أنه، بينما كان التحريم الشديد السخيف يوفر الحماية من كل صور الأخطار الأخلاقية الوهمية، فلم يرد ذكر الأخطار الأخلاقية الحقيقية التى يتعرض لها الشخص البالغ. فالاحتياى فى الأعمال التجارية من النوع الذى لا يعاقب عليه القانون، الشدة تجاه المرءوسين، القسوة تجاه الزوجة والأطفال، الحقد تجاه المنافسين، الشراسة فى الصراعات السياسية.

هذه هى الآثار الضارة حقيقة والشائعة بين المواطنين المحترمين والجديرين بالاحترام. وبهذه الآثام ينشر الإنسان البؤس فى محيطه الخاص ويقوم كذلك بأداء الجزء الذى يخصه فى تدمير المدنية. ولكن هذه الأشياء ليست هى التى تجعله عندما يمرض يعتبر نفسه كالمنبوذ الذى خسر كل حق فى رضا الله. وهذه الأشياء ليست هى التى تجعله يرى كوابيسه أمه تزجيه نظرات التقرير. لماذا تكون أخلاقه اللاشعورية إذن منفصلة عن العقل؟ لأن الأخلاق التى آمن بها من كانوا مسئولين عن طفولته كانت سخيفة، لأنها لم تكن مشتقة من أية دراسة عن واجب الفرد تجاه الجماعة، لأنها كانت مصنوعة من قصاصات قديمة من قواعد التحريم غير المنطقية، ولأنها كانت تحتوى فى داخلها على عناصر مرضية مشتقة من المرض الروحى الذى أصاب الإمبراطورية الرومانية المحتضرة. وأخلاقياتها التى هى اسمية فحسب تشكلت على أيدى القسس والنسوة المستعبدات عقلياً. ولقد حان وقت أن يتعلم الناس الذين عليهم أن يلعبوا دوراً طبيعياً فى الحياة الطبيعية للعالم، أن يتمردوا على هذا الهراء الممرض.

(٧)

ولكى ينجح هذا التمرد فى تحقيق السعادة للفرد فى تمكين الإنسان من أن يعيش متمسكاً بمعيار واحد، لا متردداً بين معيارين، فمن الضرورى أن يفكر الفرد ويحس بعمق بما يحدثه به عقله. فمعظم الرجال عندما يطرحون جانباً، -بسطحية-، خرافات طفولتهم يعتقدون أنه لا يوجد ما يجب أن يفعلوه أكثر من ذلك وهم لا يدركون أن هذه الخرافات لا زالت كامنه فى الأعماق. فعند الوصول إلى اقتناع منطقى، فمن الضرورى التمعن فيه، وتتبع آثاره والبحث عن أية معتقدات غير متوافقة مع القناعة الجديدة التى من الممكن أن تكون ما زالت حية، وعندما يزيد الإحساس بالإثم قوة، كما سيحدث من وقت لآخر، يجب أن يكون التعامل معه ليس على أنه وحى أو نداء من الأشياء الأعلى، ولكن على أنه مرض وضعف ما لم يكن بالطبع متسبباً عن بعض الأفعال التى تؤثمها الأخلاق الرشيدة. وأنا أقترح أن يكون الإنسان بلا أخلاق، ولكنى أقترح فقط أن يكون بلا خرافات أخلاقية وهذا أمر مختلف تماماً.

ولكن حتى إذا أذنب الإنسان ضد نظامه الأخلاقى الرشيد، فأنا أشك فى أن الإحساس بالإثم هو أفضل الطرق للوصول إلى أسلوب أفضل للحياة. ففى الإحساس بالإثم شئ دنىء شئء يفتقر إلى احترام النفس، ولم يحدث شئء طيب على الإطلاق لشخص نتيجة

فقدانه لاحترامه لنفسه . والرجل الرشيد سوف ينظر إلى أفعاله غير المرغوبة كما ينظر إلى أفعال غيره، كأفعال تنبت عن ظروف خاصة ويجب تجنب وقوعها سواء بأن يكون إدراك أنها غير مرغوبة أشمل أو بتجنب الظروف التي أدت إليها إذا كان ممكناً .

(٨)

وفي الحقيقة فإن الإحساس بالإنثم -على بعده الشديد عن أن يكون السبب في حياة طيبة- هو على العكس يجعل المرء تقيساً وشاعراً بالدونية، ولأنه تقيس، فمن الأرجح أن تكون له مطالب زائدة عن الحد لدى غيره من الناس وهو ما يمنعه من الاستمتاع بالسعادة في علاقته الشخصية . ونتيجة الإحساس بالدونية، سوف يتولد لديه حقد تجاه أولئك الذين يبدون أرفع مقاماً، وسيجد الإعجاب بهم صعباً وحسدهم سهلاً، ويصبح شخصاً غير مقبول على وجه العموم، وسيجد نفسه وقد أصبح وحيداً أكثر فأكثر .

فالسلوك الكريم والمنفتح على الآخرين لا يمنح السعادة للآخرين فحسب، وإنما يمثل مصدراً عظيماً للسعادة لصاحبه، لأنه يؤدي به إلى أن يكون محبوباً . مثل هذا السلوك نادراً ما يكون ممكناً للشخص الذي ينوشه الإحساس بالإنثم، لأن هذا السلوك هو نتيجة للتوازن والاعتماد على الذات ويتطلب ما يمكن أن يسمى بالتكامل العقلي، وأعنى بذلك أن تعمل الطبقات المختلفة في طبيعة الفرد، الوعي، التحت وعي،

واللاوعى بانسجام، لا أن تشتبك في صراع دائم. وإحداث هذا الانسجام ممكن في معظم الحالات بالتعليم السديد ولكن عندما يكون التعليم غير سديد تصبح هذه العملية صعبة جداً. وهذه العملية هي التي يحاول المحلل النفسى القيام بها، وإن كنت أعتقد أنه في كثير جداً من الحالات يستطيع المريض نفسه القيام بهذا العمل الذى قد يتطلب، في الحالات الأكثر تطرفاً، مساعدة من خبير.

لا تقل : «ليس عندى وقت لمثل هذه الأعمال النفسية، فحياتى مشغولة وملئية بالعلاقات ويجب أن أترك عقلى اللاواعى وشأنه». فلا شئ يقلل - بدرجة كبيرة - السعادة فحسب، بل والكفاءة أيضاً، كالشخصية المنقسمة على نفسها. فالوقت الذى ينفق فى إحداث الانسجام بين أجزاء شخصية الفرد المختلفة هو وقت وظفَ توظيفاً نافعاً. ولا أدعى أن الفرد يجب أن يخصص مثلاً ساعة كل يوم لاختبار نفسه بنفسه، فليست هذه هي أفضل الطرق فى رأى لأنها تؤدى إلى زيادة الاستغراق فى الذات، والذى هو جزء من المرض الذى يجب علاجه حيث أن الشخصية المنسجمة تكون متجهة للخارج. ما أقترحه هو أن الفرد عليه أن يأخذ قراره مركزاً على ما يعتقد برشد، وألا يسمح إطلاقاً للمعتقدات غير المنطقية بالمرور دونما تحذٍ أو أن تتمكن من إحراز سيطرة عليه مهما كان لفترة قصيرة. والقضية هنا هي التدبر مع النفس فى اللحظات التى يغرى الإنسان فيها أن يعود طفلاً، وهذا التدبر إذا كان قوياً بدرجة كافية، سيستغرق

فترة قصيرة جداً، وبالتالي يكون الزمن الذى يتطلبه ضئيلاً إلى درجة الإهمال.

(٩)

يوجد فى كثير من الناس كراهة للعقلانية، وأينما وجدت هذه الكراهة فستبدو الأمور التى تحدثت عنها عديمة الصلة بالموضوع وعديمة الأهمية. فهناك الاعتقاد بأنه إذا سمح للعقلانية أن تعمل بحرية فستقتل العواطف العميقة كلها. هذا الاعتقاد يبدو لى راجعاً إلى التصور الخاطئ تماماً لوظيفة العقل فى الحياة الإنسانية، فدور العقل ليس هو انتاج العواطف، رغم أن اكتشاف الطرق التى تمنع هذه العواطف من أن تكون عقبة فى سبيل رفاية الإنسان قد يعد جزءاً من وظيفته. فإيجاد الطرق الكفيلة بتقليص الحقد والحسد إلى حدهما الأدنى هو بلا شك جزء من وظيفة السيكلولوجية العقلانية. ولكن من الخطأ افتراض أنه بتقليص هذه الأحاسيس فإن قوة العواطف التى لا يرفضها العقل ستقل هى الأخرى. وفى الحب الملتهب. وفى المشاعر الأبوية. وفى الصداقة، وفى الإحسان، وفى الولاء للعلم أو الفن عواطف لا يوجد بينها ما يرغب العقل فى تقليصه. فالرجل الرشيد عندما يحس بأى من هذه العواطف سيكون سعيداً لإحساسه بها، ولن يفعل ما يقلل من قوتها لأن كل هذه العواطف تعد من مكونات الحياة الطيبة، تلك الحياة التى تسعى لإسعاد النفس والآخرين. فلا يوجد ما

هو غير عقلانى فى العواطف بصفة عامة، فكثير من اللاعقلانيين يحسون بأكثر العواطف تفاهة . ولا يجب أن يخشى أى إنسان من أنه عندما يجعل نفسه عقلانياً فإنه قد يجعل بذلك حياته كثيبة . فعلى العكس، فلأن العقلانية تتكون أساساً من الانسجام الداخلى، فالفرد الذى يصل إليها يكون أكثر حرية فى تصوراتهِ عن العالم ، وفى استخدامه لطاقاته فى الوصول إلى الأغراض الخارجية ، عن الإنسان الذى تعوقه دائماً الصراعات الداخلية . فلا شيء أكثر كآبة من أن يتحوصل الإنسان فى ذاته، ولا شيء أكثر إبهاجاً من توجيه الاهتمامات والطاقة إلى الخارج .

(١٠)

أخلاقياتنا التقليدية كانت ذاتية التمرکز بلا مبرر، وفكرة الإثم جزء من هذا التركيز غير السديد للانتباه مع الذات . فبالنسبة للذين لم يجربوا مطلقاً المزاج الداخلى الناجم عن هذه الأخلاقيات الخاطئة يبدو العقل غير ضرورى ولكن بالنسبة للذين اكتسبوا المرض يصبح العقل ضرورياً لحدوث الشفاء . وربما كان المرض مرحلة ضرورية من مراحل النمو العقلى . وأنا أميل للاعتقاد بأن الإنسان الذى تجاوز المرض بمساعدة العقل قد وصل إلى مستوى أعلى من الإنسان الذى لم يعرف المرض ولا الدواء .

وكرامية العقل الشائعة فى هذه الأيام تعود بالدرجة الكبيرة جداً إلى عدم الإدراك السليم والكافى للعمليات التى يقوم بها العقل . فالشخص المنقسم على نفسه يبحث عن الإثارة والإلهاء ويعشق العواطف القوية ليس لمبررات وجيهة وإنما من أجل اللحظات التى تأخذ فيها بعيداً عن نفسه ولأنها تكفيه مؤونة الضرورة المؤلمة للتفكير . وأى عاطفة هى بالنسبة لهذا الشخص نوع من التخدير . فلأنه لا يستطيع تصور السعادة الحقيقية فإن أى تخفيف للألم يبدو له ممكناً فقط بالتخدير . وما تلك إلا أعراض مرض عميق الجذور . وعندما لا يكون هناك مثل هذا المرض فإن أعظم سعادة تتأتى مع السيطرة الكاملة على قدرات الفرد . وفى اللحظات التى يكون العقل فيها فى أوج نشاطه والقليل فقط من الأشياء هى التى نسييت ، تحدث أكثر صور الفرحه شدة . وهذا بالتأكيد يعد واحداً من أفضل تعويضات السعادة . فالسعادة التى تتطلب الحذر بأى شكل من الأشكال تكون زائفة وغير مشبعة ، أما السعادة الحقيقية والمشبعة فيتلازم معها باستمرار التشغيل الكامل لكل قدراتنا والإدراك الكامل والسليم للعالم الذى نعيش فيه .

الفصل الثامن

هوس الاضطهاد

(1)

يعد هوس الاضطهاد فى أشكاله شديدة التطرف طرازاً من الجنون. فبعض الناس يتخيلون أن الآخرين يريدون قتلهم أو سجنهم أو الإساءة إليهم إساءة بالغة وعادة ما تدفعهم الرغبة فى حماية أنفسهم ضد الاضطهاد المتخيل إلى أفعال عنيفة بما يجعل من تقييد حريتهم أمراً ضرورياً. وهذا الطراز شأنه فى ذلك شأن طرز الجنون الأخرى، عبارة عن ميل مبالغ فيه لا يعد على الإطلاق غير شائع بين الناس الذين يعدون طبيعيين. وأنا لا أنوى مناقشة الطرز المتطرفة والتي تعد من اختصاص علماء النفس ولكن ما أود التعرض له هى الطرز المعتدلة لأنها من المسببات الشائعة للتعاسة، ولأنها ما لم تكن قد تفاقمت إلى حد الجنون الفعلى يظل من الممكن للمريض نفسه مواجهتها طالما أمكن حثه على تشخيص مشكلته تشخيصاً سليماً وأن يرى أن أصل المشكلة يكمن فى داخله وليس فى العداء أو فى الكراهية المفترضين من الآخرين. وكلنا على دراية بطراز الشخص، رجلاً كان

أم امرأة، الذى وفقا لتقديره الخاص، يقع دائماً ضحية لنكران الجميل، والفظاظة والغدر. فالتاس من هذا الطراز عادة ما يكونون مقبولين ظاهرياً بطريقة غير عادية، ويتعاطف معهم تعاطفاً حاراً الذين لم يعرفوهم لفترة طويلة. وكقاعدة، لا يوجد ما يعد غير محتمل بصورة واضحة فى أى قصة منفصلة يحكونها. وسوء المعاملة الذى يشكون منه لا شك فى أنه يحدث أحياناً ولكن ما يؤدى بالمستمع فى النهاية إلى زيادة شك هو كثرة الأوغاد الذين كان من سوء حظ الشاكى أن يقابلهم. فوفقاً لقاعدة الاحتمال، فالبشر المختلفين الذين يعيشون فى مجتمع ما من المرجح أن يواجهوا خلال فترة حياتهم نفس القدر من المعاملة السيئة. فإذا ما واجه فرد واحد فى مجموعة ما، وفقاً لتقديره الخاص، معاملة سيئة بصورة دائمة، فالأرجح أن يكون السبب كافياً فيه، وهو إما يتصور الإساءات التى لم يعانيتها فى الواقع، أو أنه لا شعورياً يسلك سلوكاً ينجم عنه إثارة لا يمكن التحكم فيها. والناس الذين لديهم خبرة يشكون بالتالى فى أولئك الذين وفقاً لتقديرهم الخاص يواجهون معاملة سيئة من العالم، ويؤكدون بعدم تعاطفهم معهم فكرة هؤلاء التعساء أن كل إنسان فى هذا العالم ضدهم.

(٢)

والمشكلة فى الحقيقة من الصعب التعامل معها لأنها تشتعل سواء بالتعاطف أو بعدم التعاطف معها. فالفرد الذى لديه استعداد

لهوس الاضطهاد، عندما يجد أن قصته عن سوء حظه تم تصديقها، فإنه يعكف على تزويقها إلى أن يصل إلى حدود الثقة، أما إذا وجد أن قصته لم تصدق، يصبح لديه مثل آخر على قسوة قلوب البشر تجاهه. فهذا المرض هو من النوع الذى يكون التعامل معه عن طريق التفهّم، ويجب أن يتم نقل هذا التفهم إلى المريض لكي يؤدى الغرض منه. وهدفى فى هذا الفصل اقتراح الانطباعات العامة التى يمكن بواسطتها لكل فرد أن يكتشف فى نفسه وجود عناصر هوس الاضطهاد (والذى يعانى منه تقريباً كل إنسان بدرجة كبيرة أو صغيرة) وما أن يكتشفها فسيمكنه القضاء عليها، ويعد هذا من المكونات المهمة لانتصار السعادة، لأنه من المستحيل تماماً أن نكون سعداء إذا ما أحسنا أن كل إنسان يسئ معاملتنا.

(٣)

من أكثر صور عدم الرشد شيوعاً هو الموقف الذى يأخذه الجميع تقريباً من النميمة الخبيثة، فقليل جداً من الناس يستطيعون مقاومة قول أشياء خبيثة عن معارفهم وأحياناً عن أصدقائهم، ولكن عند سماعهم أى شئ قيل ضدهم شخصياً تملؤهم الدهشة الغاضبة فلم يدر بخلدهم إطلاقاً أنهم كما يتقولون على الآخرين سوف يتقول الآخرون عليهم. وهذه صورة معتدلة من صور السلوك الذى عندما يكون مبالغاً فيه يؤدى إلى هوس الاضطهاد. فنحن نتوقع من كل شخص آخر أن

يحبس تجاهنا بالحب الرقيق والاحترام الشامل اللذين نحسهما تجاه أنفسنا. ولا ندرك أننا لا يجب أن نتوقع أن تكون أحاسيس الآخرين تجاهنا أفضل من أحاسيسنا تجاههم، والسبب في عدم إدراكنا لذلك هو أن ميزاتنا عظيمة وواضحة بينما تلك الخاصة بالآخرين، إذا وجدت على الإطلاق لا تظهر إلا بعين بارة جداً. فعندما تسمع أن فلاناً قال شيئاً سيئاً عنك، فإنك تذكر التسع وتسعين مرة التي امتنعت فيهم عن ذكر الانتقادات العادلة التي يستحقها، وتنسى المرة المئة التي جاهرت فيها في لحظة غير حكومة بما تعتقد أنه الحقيقة عنه. وتقول : أهذا هو جزاء تحملك الطويل؟ ولكن من وجهة نظره هو فإن سلوكك يبدو على نفس النحو الذي يبدو لك تماماً، فهو لا يعلم شيئاً عن المواقف التي امتنعت فيها عن الكلام عنه ولكنه يعلم فقط عن المرة المئة التي تحدثت فيها عنه.

ونحن إذا ما وهبنا القوة السحرية التي تمكننا من قراءة عقول الآخرين، أعتقد أن أول آثارها سيكون اندثار كل الصداقات، والآخر الثاني قد يكون ممتازاً، حيث إن عدم تحملنا لعالم بلا أصدقاء، سيعلمنا أن نحب بعضنا البعض دون أن نحتاج إلى قناع من الوهم نخفي به عن أنفسنا عدم اعتقادنا أننا كاملين كملاً مطلقاً. فنحن ندرك أن لأصدقائنا أخطاءهم ولكنهم رغم ذلك أناس طيبون ونحن نحبهم. ولكننا لا نتحمل أن يكون سلوكهم تجاهنا مماثلاً لذلك فنحن نتوقع منهم أن يعتقدوا أننا، على خلاف باقى البشر، بلا أخطاء. وعندما نجبر على التسليم بأننا لدينا أخطاؤنا، فنحن نأخذ هذه الحقيقة

الواضحة بكثير جداً من الجدية. فلا يجب أن يعتقد إنسان ما أنه كامل، أو أن تورقه بلا داع حقيقة أنه ليس كذلك.

(٤)

وجذور هوس الاضطهاد تكمن دائماً فى تصورنا المبالغ فيه عن مزاينا الخاصة. فسوف أفترض أننى كاتب مسرحى، فلا بد وأنه من الواضح لكل شخص غير متحيز أننى أكثر الكتاب المسرحيين امتيازاً فى هذا العصر، ورغم ذلك، ولسبب ما، فمسرحياتى نادراً ما يتم تمثيلها، وعندما يحدث لا تنجح. ما هو تفسير هذا الوضع الغريب للأمور؟ من الواضح أن المديرين والممثلين والنقاد قد تجمعوا ضدى لسبب أو لآخر. والسبب، بالطبع، راجع لى بدرجة كبيرة؛ فأنا قد رفضت أن أناق الكبار فى عالم المسرح، ولم أتملق النقاد، ومسرحياتى تحتوى على حقائق محلية لا يتحملها أولئك الذين تصيهم فى مقتل، وهكذا تفتقر ميزاتى السامية غير المعترف بها.

(٥)

وهناك أيضاً المخترع الذى لم يستطع أبداً أن يجعل أى شخص يختبر مزايا اختراعه، فرجال الصناعة لهم طرقهم الثابتة، ولن ينظروا إلى أى تجديد، بينما الأقلية التقدمية فتحتفظ بمخترعين خاصين

ينجحون فى إغلاق الطريق أمام تدخلات عبقرى بلا ترخيص .
والجمعيات العلمية ، للغرابة الشديدة ، تضع المخطوطات أو تردّها دون
قراءة ، والأشخاص الذين يتظلم إليهم الفرد يكونون غير مستجيبين
بطريقة ظالمة . فكيف يمكن تفسير مثل هذه الأوضاع ؟ من الواضح أن
هناك تجمعاً وثيقاً من رجال يرغبون فى تقسيم الفوائد التى يمكن
الحصول عليها بالاختراع فيما بينهم ، والرجل الذى لا يتمى إلى هذا
التجمع لا ينصت إليه أحد .

(٦)

وهناك الرجل الذى لديه أسى حقيقى مبنى على حقائق واقعية
ولكنه يميل للتعميم فى ضوء تجربته ويصل إلى استنتاج أن مأساته
يمكنها تقديم الحل للكون بأسره . فلنقل إنه اكتشف فضيحة تخص
النشاط السرى والتى من مصلحة الحكومة أن تبقئها فى الظلام ولا
يستطيع أن ينشر اكتشافه بأى صورة ، والرجال الأكثر اتساعاً فى الأفق
يرفضون مجرد تحريك إصبع لعلاج هذا الشر بما يملؤه بالإحباط .
والحقائق هى بالضبط على نحو ما ذكره . ولكن إحباطاته أدت إلى أن
يتصور أن كل الأقوياء منشغلون تماماً بأمر واحد وهو تغطية الجرائم
التي إليها ترجع قوتهم ، والحالات التى من الطراز تكون عنيدة بشكل
خاص نتيجة الصدق الجزئى لشكلها الخارجى . فالأمر الذى أصابهم
شخصياً من الطبيعى أن يترك عليهم انطباعات أكبر من كثير من الأمور

التي ليس لهم خبرة مباشرة بها ويولد ذلك لديهم احساساً خاطئاً
بنسب الأشياء لبعضها فيعلقون أهمية لا منطقية على حقائق تعد
استثناءً وليست قاعدة.

(٧)

ومن ضحايا هوس الاضطهاد والذين لا يُعتبرون غير شائعين
بالمرّة، ذلك الطراز الخاص من المحسنين الذين يفعلون الخير لغيرهم
من الناس ضد إرادتهم ويدهشهم ويرعبهم ألا يظهر الناس أى عرفان
بالجميل. فبواعثنا لعمل الخير نادراً ما تكون بالنقاء الذى نتصوره فيها.
فحب السلطة شديد الخداع، ويتنكر فى صور عديدة، وعادة ما يكون
هو مصدر السرور الذى نحصل عليه من فعل ما نعتقد أنه خيراً لغيرنا
من الناس. وليس من غير الشائع أن يتدخل عنصر آخر فى ذلك.
«ففعّل الخير» للناس بصفة عامة يتكون من حرمانهم من بعض المتع:
شرب الخمر، المقامرة، البطالة أو غير ذلك. وفى هذه الحالة يوجد
عنصر مماثل للأخلاق الاجتماعية، وهو الحسد للذين هم فى موقف
اقتراف الإثم الذى علينا الامتناع عنه للحصول على إحترام أصدقائنا.
فالذين يمنحون أصواتهم على سبيل المثال، لقانون يحظر تدخين
السجائر (مثل هذه القوانين موجودة فعلاً أو وجدت فى ولايات
أمريكية مختلفة) هم بالطبع غير مدخنين، وتكون المتعة التى يحصل
عليها الآخرون من تدخين التبغ مصدرراً لآلهم. فإذا ما توقعوا أن

يأتيهم أولئك الذين كانوا مدخنين سابقين للسجائر فى صورة وفد لشكرهم على جعلهم يقلعون عن هذه الرذيلة السيئة، فمن المحتمل أن يصابوا بخيبة الأمل وربما بدأوا فى تأمل أنهم قد وهبوا حياتهم لعمل الخير للعامة، وأن أولئك الذين لديهم كل المبررات لشكرهم على نشاطهم الخيرى ظهروا الأقل إدراكًا لأى معنى من معانى العرفان بالجميل.

ومن المعتاد وجود نفس هذا السلوك للسيدات تجاه الخادومات المنزليات اللائى يحرصن على حماية أخلاقهن ولكن فى هذه الأيام أصبحت مشكلة الخادومات حادة جدًا لدرجة أن هذه الصورة من الإحساس للخادومات باتت أقل شيوعًا. ونفس الشيء يحدث فى المستويات العالية من السياسة. فرجل الدولة الذى يركز تدريجيًا كل السلطات فى ذاته كى يستطيع القيام بتنفيذ الأهداف السامية والنبيلة التى جعلته يلفظ الراحة ويدخل معترك الحياة العامة، يندesh من عقوق الناس عندما ينقلبون ضده، ولم يدر بخلده أبدًا أن عمله قد يكون له أى غرض غير الخدمة العامة، أو أن لذة التحكم فى الأمور قد كانت بأية درجة هى الدافع وراء كل أفعاله. فالجمل التى عادة ما تستخدم فى الخطابة وفى صحافة الحزب تبدو له تدريجيًا معبرة عن الحقائق، ويخطئ إذ يعتقد أن بلاغته الحزبية هى تحليل أصيل لدوافعه، وهو يعتزل مشمئزًا وقد زابلته أوهامه، كما اعتزلته الحياة، ويأسف على مجرد أنه حاول مثل هذا العمل غير المشكور وهو السعى وراء الخير العام.

(٨)

مثل هذه الأمثلة تشير إلى أربعة مبادئ عامة كفيلة بتأمين الوقاية الكافية من هوس الاضطهاد إذا أمكن إدراك حقيقتها بدرجة كافية. الأول هو: تذكر أن دوافعك ليست إثارية دائماً كما تبدو لك. الثاني هو: لا تبالح أبداً في تقدير مزاياك الخاصة. الثالث هو: لا تتوقع أن يهتم بك الآخرون بنفس درجة اهتمامك بنفسك. والرابع هو: لا تتخيل أن معظم الناس يفكرون فيك بدرجة تكفى لجعلهم يودون اضطهادك بشكل خاص. وسوف أتكلم باختصار عن كل من هذه المبادئ تباعاً.

(٩)

إن الشك فى الدوافع الذاتية يعد ضرورياً للمصلحين وللتنفيذيين، فلدى مثل هؤلاء الناس تصور عما يجب أن يكون عليه العالم أو جزء من العالم، ويشعرون أحياناً صواباً وأحياناً خطأ، أنه بتحقيق تصورهم فإنهم يمنحون نعمة للإنسانية أو لجزء من الإنسانية، ولا يدركون رغم ذلك بدرجة مناسبة أن الأفراد الذين يتأثرون بإجراءاتهم لكل منهم نفس الحق فى وجهة نظره الخاصة عن طراز العالم الذى يبتغيه. فالشخص التنفيذى يكون واثقاً تماماً من أن تصوره

صحيحاً وأن أى تصور مضاد خطأ، ولكن تصوره الذاتى لا يوفر دليلاً على أنه صحيح موضوعياً أيضاً، فغالباً ما يكون اعتقاده تمويهاً للسرور الذى يحصل عليه من تدبير التغييرات التى يكون هو السبب فى إحداثها.

(١٠)

بالإضافة إلى حب السلطة يوجد دافع آخر وهو الغرور الذى يكون فعالاً بقوة فى مثل هذه الحالات. والشخص المثال ذو القدوة العقلية الفائقة الذى يرشح نفسه للبرلمان، وأنا أتكلم هنا من واقع الخبرة، تدهشه لا مبالاة الناخبين الذين يظنون أنه يسعى وراء عظمة كتابة الحرفين ع.ب. (عضو برلمان) بعد اسمه. وعندما ينتهي الاقتراع ويكون لديه وقت للتفكير، يدور بخاطره أن الناخبين اللامبالين ربما كانوا على حق. فالمثالية تجعل الدوافع البسيطة تتكرر فى ثياب غريبة، وبالتالي فإن لطمة اللامبالاه الواقعية من رجل الشارع لا تعد فى غير موضعها. والأخلاقيات التقليدية ترسخ فى الذهن درجة من الإيثار تتحملها بالكاد الطبيعة البشرية، والذين يفخرون بأنفسهم نظراً لفضيلتهم يتخيلون عادة أنهم قد وصلوا إلى هذا المثل الأعلى الذى لا يمكن الوصول إليه. والأغلبية العظمى من أفعال أشد الناس نبلاً تحتوى على دوافع شخصية ولا يجب الأسف على ذلك حيث أن الأمر لو كان بخلاف ذلك لما تمكنت السلالة البشرية من البقاء. فالرجل الذى

يمضى وقته فى السهر على إطعام الآخرين وينسى إطعام نفسه سوف يهلك . وبالطبع قد يكون حصوله على الطعام لغرض وحيد وهو أن يعطى نفسه القوة اللازمة للوثب مرة أخرى إلى الموقعة القائمة ضد الشر . ولكن من المشكوك فيه أن يكون الطعام الذى أكله وفقاً لهذا الدافع سيتم هضمه بكفاية ، حيث أن تنبيه انسياب اللعاب لن يكون كافياً . فمن الأفضل إذن أن يأكل الإنسان لأنه يستمتع بطعامه عن أى يكون الوقت الذى ينفقه فى وجباته تمليه فقط الرغبة فى فعل الخير للمجموع .

وما ينطبق على الأكل ينطبق على كل شئ آخر . فأى عمل يجب القيام به لا يمكن أن يتم بكفاءة إلا إذا كان له طعم خاص ، وهذا الطعم من الصعب أن يتوفر ما لم يكن هناك دافع ذاتى . ويجب أن أضع ضمن الدوافع الذاتية ، من وجهة النظر هذه ، تلك الدوافع التى تخص الأفراد المرتبطين بالذات بيولوجياً مثل دافع حماية الزوجة والأطفال ضد الأعداء . وهذه الدرجة من الغيرية تعد جزءاً من الطبيعية البشرية السوية ، ولكن الدرجة التى ترسخها الأخلاقيات التقليدية فى الذهن ليست كذلك ، ونادراً جداً ما يمكن الوصول إليها فعلياً . فالأشخاص الذين يرغبون فى الحصول على اعتراف بامتيازهم الأخلاقى يجب أن يقنعوا أنفسهم بأنهم قد وصلوا إلى درجة من درجات الإيثار من غير المرجح على الإطلاق أن يكونوا قد وصلوا إليها ، وبالتالي فمحاوله الوصول إلى القداسة تصبح مرتبطة بنوع من خداع النفس يقود بسهولة إلى هوس الاضطهاد .

(١١)

والمبدأ الثانى من المبادئ الأربع ، الذى مفاده أن من غير الحكمة المبالغة فى تقدير مزاياك الذاتية يغطيه ما سبق بالفعل قوله فيما يتعلق بالأخلاقيات . ولكن كل من المزايا والأخلاق يجب عدم المبالغة فى تقديرهما . فالكاتب المسرحى الذى لم تنجح مسرحياته أبداً يجب أن يفكر بهدوء فى فرضية أنها جميعاً مسرحيات رديئة ، ويجب ألا يرفض ذلك مسبقاً على أنه أمر لا يمكن تحمله ، فإذا وجد أن ذلك يطابق الحقائق ، يجب عليه كفیلسوف مستنبط أن يؤمن بذلك .

(١٢)

من الصحيح أنه يوجد فى التاريخ حالات لمزايا لم يعترف بها ولكنها أقل كثيراً من حالات اللامزايا التى اعترف بها ، فإذا كان الشخص عبقرياً لم يعترف به عصره فسيكون من الصواب إصراره على المضى فى طريقه رغم هذا التجاهل . أما إذا كان على نقیض ذلك ، شخصاً غير موهوب متنفخ بالغرور ، سوف يفعل خيراً إذا لم يصبر . ولا توجد وسيلة لمعرفة إلى أى القسمين ينتمى الشخص إذا ما كان مصاباً بدافع انتاج البدائع غير المعترف بها . فإذا كنت تتبع القسم الأول ، فإن إصرارك يعد بطولياً ، أما إذا كنت تنتمى إلى القسم الثانى فإصرارك يكون هزلياً . فبعد موتك بمئة عام سيكون من الممكن معرفة

إلى أى القسمين تنتمى . فى نفس الوقت فهناك اختبار، ربما لا يكون معصوماً من الخطأ، إذا كنت تشك فى أنك عبقرى بينما يشك أصدقائك فى أنك لست كذلك . والاختبار هو: هل تنتج لأنك تشعر باضطراب حاد للتعبير عن أفكار أو مشاعر معينة، أم أنك تفعل ذلك للرجبة فى سماع الثناء؟ فبالنسبة للفنان الحقيقى تكون الرغبة فى الحصول على الثناء رغباً وجودها بقوة، ثانوية بمعنى أن الفنان يرغب فى إنتاج عمل معين ويأمل أن ينال الثناء ولكنه لن يغير من أسلوبه إذا لم يكن الاستحسان قادماً . ومن الناحية الأخرى، فإن الشخص الذى تكون رغبته فى الحصول على الثناء هى الدافع الأساسى، لا توجد بداخله أية قوة تدفعه لطراز معين من طرز التعبير ويمكنه بالتالى القيام بعمل من طراز آخر تماماً . مثل هذا الشخص، إذا فشل فى الحصول على الثناء بواسطة فنه وجب عليه الإقلاع عنه .

(١٣)

وبشكل أكثر عمومية، وأياً ما كانت وظيفتك فى الحياة، إن وجدت أن الآخرين لا يعطون قدراتك تقديراً عالياً كما تعطىها أنت، فلا تكن شديد الثقة فى أنهم هم المخطئون، وإذا سمحت لنفسك بالتفكير فى أنهم هم المخطئون فربما انزلت بسهولة إلى الإعتقاد بأن هناك مؤامرة لمنع الاعتراف بموهبتك وهذا الاعتقاد من المؤكد أن يكون

من بواعث الحياة التعسة، بمعرفة أن ميزتك ليست بهذه العظمة التي كنت تودها أن تكون ربما تصبح شديدة الإيلام للحظة ولكنه ألم له نهاية ستكون الحياة السعيدة ممكنة مرة أخرى بعدها.

(١٤)

المبدأ الثالث كان ألا تتوقع الكثير جداً من الآخرين. فقد درجت العادة أن تتوقع السيدات المقعدات من ابنة واحدة على الأقل التضحية تماماً بنفسها للقيام بمهمة الممرضة، حتى إلى درجة التنازل عن الزواج. وما ذلك إلا أن تتوقع من شخص آخر درجة من الإيثار مناقضة للعقل، حيث إن خسارة الشخص المؤثر أكبر بكثير من مكسب الشخص الأناني. ففي كل تعاملاتك مع الآخرين، وخاصة القريبين منك والأعزاء عليك، من المهم وإن كان ليس دائماً من السهل أن تتذكره، أن تدرك أنهم يرون الحياة من زاويتهم الخاصة وعلى النحو الذي يلمس ذاتهم وليس من منظورك أنت ولا على النحو الذي يؤثر في ذاتك. فلا يجب أن تتوقع أن يفسد أى شخص المسارات الرئيسية لحياته من أجل فرد آخر. وفي أحيان خاصة قد توجد مشاعر قوية تجعل حتى من أعظم التضحيات أمراً طبيعياً، ولكن إذا كانت هذه التضحيات غير طبيعية فيجب عدم القيام بها ويجب ألا يلام أى شخص لعدم القيام بها. وكثيراً ما يكون السلوك الذى يشكو منه الناس فى الآخرين ليس أكثر من رد الفعل الصحى للذات الطبيعية ضد الجشع المتشبه لشخص تتجاوز ذاته حدودها المناسبة.

(١٥)

والمبدأ الرابع الذى ذكرناه عبارة عن إدراك أن الآخرين ينفقون وقتاً أقل من التفكير فيك عما تنفقه أنت. والضحية المجنونة بهوس الاضطهاد يتصور أن كل طرز البشر الذين لديهم فى الحقيقة مشاغلهم واهتماماتهم الخاصة، يدبرون فى الصباح والظهر والمساء كيف يسيئون إلى هذا المجنون التعيس. وبنفس الكيفية، فالضحية العاقلة نسبياً من ضحايا هوس الاضطهاد ترى فى كل أنواع الأفعال شيئاً يخصها وهو ما لا يوجد فى الواقع. هذه الفكرة تتملق بالطبع غروره. فإذا كان الشخص عظيمًا، بدرجة كافية، فقد يكون ذلك صحيحًا، فقد كانت كل أفعال الحكومة البريطانية لعدد من السنوات مهمة أساساً بإعاقه شخص واحد هو نابليون. ولكن عندما يتصور شخص ليس له أية أهمية خاصة أن الآخرين يفكرون بصورة شخصية فيه، فهذا الشخص يكون فى طريقه إلى الجنون. فأنت مثلاً تلقى خطاباً فى حفل عشاء عام وتظهر صور بعض المتحدثين الآخرين اعتُبروا أكثر أهمية ولكن يجب أن يكون رؤساء تحرير هذه الصحف قد أعطوا الأوامر بتجاهلك. ولماذا يعطون هذه الأوامر؟ من الواضح أنهم يخافونك نظراً لأهميتك العظمى وبهذا الأسلوب فإن إغفال صورتك يتحول من ازدراء إلى مجاملة رقيقة. ولكن خداع النفس على هذا النحو لا يمكن

أن يقود إلى أى سعادة متماسكة. ففي باطن عقلك ستعرف أن الحقائق هى النقيض من ذلك، ولكى تخفى ذلك عن نفسك لأقصى درجة ممكنة يجب أن ت اخترع الكثير والكثير من النظريات الوهمية. والضغط التى تؤدى إليها محاولة تصديق ذلك ستصبح فى النهاية كبيرة جداً وحيث أنها تتضمن أنك هدفاً لعداء واسع الانتشار فإنها ستحمى احترامك لذاتك بإعطائها الإحساس المؤلم جداً بأنك على خلاف مع العالم. ولا إشباع يقوم على خداع النفس يكون متماسكاً، ورغم ما قد تكون عليه الحقيقة من سوء فمن الأفضل مواجهتها مرة واحدة لتعتاد عليها ثم لتنتلق فى بناء حياتك على وفاق معها.

الفصل التاسع

الخوف من الرأى العام

(١)

قليل جداً من الناس يمكنهم أن يصبحوا سعداء إذا لم يوافق على طريقتهم فى الحياة ونظرتهم إلى العالم أولئك الذين تربطهم بهم صلات اجتماعية وعلى الأخص الذين يعيشون معهم. ومن مميزات المجتمعات الحديثة أنها منقسمة إلى مجموعات تختلف كثيراً فى أخلاقها ومعتقداتها. وكانت بداية هذا الوضع مع عهد الإصلاح أو ربما يجب القول مع عصر النهضة ثم نما بشدة بعد ذلك. فلقد كان هناك البروتستانت والكاثوليك الذين يختلفون ليس فى اللاهوت فقط ولكن فى كثير من الأمور العملية الأخرى. وكان هناك الأرستقراطيون الذين يسمحون بأنواع مختلفة من الأفعال التى لا يتحملها البروجوازيون. ثم جاء المتسامحون والمتحررون فكرياً الذين لم يعترفوا بواجبات الالتزام الدينى. وفى أيامنا الحالية، يوجد عبر القارة الأوربية بكاملها انقسام واضح بين الاشتراكيين وسواهم. والذى لا يشمل

السياسة فحسب، ولكن كل أقسام الحياة تقريباً. وفي الدول التي تتحدث الإنجليزية تكون الإنقسامات أكثر تعدداً. فبعض المجموعات تعجب بالفن وبعضها الآخر يعتبره من عمل الشيطان، وخاصة إذا ما كان حديثاً. والولاء للامبراطورية يعتبر الفضيلة العظمى في بعض المجموعات بينما يعد في بعضها الآخر رذيلة وفي مجموعات غيرها محض غباء. التقليديون من الناس يعتبرون الزنا من أبشع الجرائم ولكن قطاعات عريضة من المجتمع تعده أمراً مغتفرًا إن لم يكن مستحسنًا. والطلاق عند الكاثوليك محرم تمامًا بينما معظم غير الكاثوليك يقبلونه كحل ضروري للخلافات الزوجية.

(٢)

ونظرًا لكل هذه الاختلافات في وجهات النظر، فقد يجد الشخص الذى له مذاقات ومعتقدات معينة، نفسه منبوذًا وهو يعيش في مجموعة معينة رغم أنه قد يقبل كإنسان عادى تمامًا في مجموعة أخرى، وكثير جدًا من التعاسة وعلى الأخص بين الشباب تنشأ بهذه الطريقة. فالشباب أو الشابة يلتقط بطريقة ما أفكارًا توجد في الهواء، ولكنه يجد أن هذه الأفكار محرمة في الوسط الذى يعيش أو تعيش فيه. ومن السهل أن يبدو للشباب كما لو أن هذا الوسط الوحيد الذى يعرفونه يمثل العالم بأسره، ونادرًا ما يعتقدون أنه في مكان آخر أو في مجموعة أخرى قد تقبل هذه الأفكار كأمر عادية بالنسبة للعصر،

وهى التى لم يجروا على الجهر بها خوفاً من أن يظن بهم أنهم شاذون تماماً. وبالتالي فمع الجهل بالعالم يتم احتمال جزء كبير من البؤس غير الضرورى، أحياناً خلال الشباب فقط وإن لم يكن من غير الشائع، عبر الحياة بكاملها. وهذا الانعزال ليس مصدراً للألم فحسب ولكنه يؤدى إلى تشتيت كبير للطاقة فى أفعال غير ضرورية للحفاظ على الاستقلال الفكرى ضد بيئة معادية بما يؤدى فى تسع وتسعين حالة من مئة إلى تهيب تتبع الأفكار إلى استنتاجاتها المنطقية.

(٣)

والأخوات برونيت لم يقابلن أناساً لطفاء المعشر قط إلا بعد أن نُشرت كتبهن، ولم يؤثر ذلك فى إميلي التى كانت بطولتها من النوع الفذ، ولكنه أثر فى تشارلوت بكل تأكيد حيث ظلت أفكارها دائماً أفكاراً مريبة بالرغم من موهبتها، وبلاك كان مثل إميلي برونيت، عاش فى عزلة فكرية شديدة ولكنه كان مثلها عظيماً فى تخطى آثارها الضارة، حيث إنه لم يشك مطلقاً فى كونه على صواب، وناقديه على خطأ، وعبر عن سلوكه تجاه رأى العام فى السطور التالية:

«الرجل الوحيد الذى عرفته على الإطلاق

والذى لم يجعلنى على وشك التقى

هو فوسيلي، الذى كان تركياً ويهودياً معاً

وهكذا، يا صديقى المسيحى العزيز، كيف حالك؟ » .

ولكن كثيرين ليسوا على هذه الدرجة من القوة فى حياتهم الداخلية، فالبينة المتعاطفة ضرورية لسعادة كل شخص تقريباً. فبالنسبة للأغلبية، فبالطبع كانت البيئة التى حدث أو وجدوا أنفسهم فيها متعاطفة، فهم يتشربون بالتحيزات الشائعة فى شبابهم، ويؤقلمون أنفسهم غريزياً على المعتقدات والعادات التى يجدونها حولها. ولكن للأقلية الضخمة التى تشتمل تقريباً على كل من لديه مزايا فكرية أو فنية، يعد مثل هذا السلوك المذعن مستحيلاً، فالفرد الذى يولد فى مدينة ريفية صغيرة مثلاً، يجد نفسه منذ صباه الباكر محاطاً بالعداء لكل ما هو ضرورى للامتياز العقلى. فإذا أراد قراءة كتب جادة ينفر منها الأولاد الآخرون، ويقول له المدرسون إن مثل هذه الأعمال لا تدفع إلى الاستقرار. فإذا اهتم بالفنون، اعتقد رفاقه أنه لا يسلك سلوكاً رجولياً، واعتقد الأكبر سناً أنه عديم الأخلاق، فإذا ما رغب فى أية مهنة، مهما كانت محترمة، ولكنها غير شائعة فى الوسط الذى يتنمى إليه، يقال له إنه يعلى من قدر نفسه، وأن ما كان مناسباً لأبيه يجب أن يكون مناسباً له. وإذا ما أظهر أى ميل لنقد المفاهيم الدينية لأبويه أو انتمائهم السياسى فمن الأرجح أن يواجه متاعب خطيرة. لكل هذه الأسباب، تعد مرحلة البلوغ وقتاً للتعاسة العظيمة لمعظم الشباب من الجنسين الذين هم متميزون بصورة استثنائية. وربما كانت هذه المرحلة لغيرهم من الرفاق العاديين وقتاً للمرح والاستمتاع ولكنهم

يطلبون شيئاً أكثر جدية لا يجدونه بين من هم أكبر منهم سناً أو معاصريهم فى نفس الوسط الاجتماعى الذى أدت بهم الصدفة لأن يولدوا فيه .

وعندما يلتحق هؤلاء الشباب بالجامعة ربما يكتشفون نفوساً حسنة المعشر وينعمون بوضع سنوات من السعادة العظيمة ، وإذا كانوا محظوظين ، فرمما نجحوا عند تركهم الجامعة فى الحصول على نوع من العمل لم يزل يعطيهم إمكانية اختيار رفاق لطاف ، فالشخص الذكى الذى يعيش فى مدينة كبيرة مثل لندن أو نيويورك يمكنه بصفة عامة أن يجد مجموعة ظريفة لا يمارس وهو معها أى نوع من التحمل أو النفاق ولكن إذا حتم عليه عمله أن يعيش فى مكان أصغر وعلى الأخص إذا حتم عليه عمله مراعاة احترام الناس التقليديين كما هو الحال مثلاً مع الطبيب أو المحامى فقد يجد نفسه عبر حياته كلها مضطراً لإخفاء أذواقه ومعتقداته الحقيقية عن معظم الناس الذين يقابلهم خلال يومه . وهذا صحيح بصفة خاصة فى أمريكا نتيجة الاتساع الكبير لهذه الدول . وفى أقل الأماكن احتمالاً ، شمالاً أو جنوباً ، شرقاً أو غرباً ، يجد المرء أناساً وحيدى ، يعرفون من قراءة الكتب أن هناك أماكن لن يحسوا فيها بالوحدة ، ولكن ليست لديهم فرصة الحياة فى مثل هذه الأماكن وأن كل ما يجدونه هو الفرص شديدة الندرة لمناقشة لطيفة ، وفى مثل هذه الظروف يستحيل أن تكون هناك سعادة حقيقية لمن كان بناؤهم أقل فى مجال عظمته من بلاك

وإميلى بروننت. فإذا كان ذلك ممكناً، فلا بد من إيجاد طريقة يمكن بها تقليل أو تجنب استبداد الرأى العام ويمكن بواسطتها أن يلتقى أعضاء الأقلية الذكية لينعموا بصحبة بعضهم البعض.

(٤)

ويؤدى التهيب غير الضرورى فى حالات عديدة إلى أن تصبح المشكلة أسوأ مما يجب. فالرأى العام يكون أكثر طغياناً فى مواجهة الذين يرهبونه عن الذين لا يبالون به، فالكلب يشتد نباحه ويكون أكثر استعداداً للتعقر عندما يكون الناس خائفين منه عما لو عاملوه بازدراء. والقطيع الإنسانى له بعض هذه الخصائص، فإن أظهرت لهم أنك خائف منهم، فإنك بذلك تعطيهم الأمل فى صيد طيب، بينما إذا أظهرت لهم اللامبالاة فسيبدأون فى الشك فى قوتهم وعندئذ يميلون لتتركك وشأنك. وأنا بالطبع لا أفكر فى الطرز المتطرفة من التحدى. فإذا اعتنقت فى كنزنجتون ببريطانيا الآراء التى تعتبر عادية فى روسيا أو اعتنقت فى روسيا الآراء التى تعد عادية فى كنزنجتون فيجب عليك أن تتحمل النتائج. وأنا لا أفكر فى مثل هذه التطرفات ولكن فى الهفوات الأكثر اعتدالاً فى خروجها عن المعتاد، مثل الفشل فى ارتداء الملابس الصحيحة أو الانتماء لنفس الكنيسة أو الامتناع عن قراءة الكتب الذكية. مثل هذه الهفوات إذا ما مورست بمرح ولا مبالاة، ليس بتحد ولكن بتلقائية، فسوف يتم تحملها حتى فى أكثر

المجتمعات تقليدية. وتدرجياً ربما يصبح من الممكن اكتساب وضعية المجذوب المرخص الذى يسمح له بفعل أشياء تعد بالنسبة لإنسان آخر أموراً لا تغتفر. ويعد ذلك راجعاً بالدرجة الكبرى لنوع معين من الطبيعة الطيبة والمودة. فالناس التقليديون تدفع بهم مثل هذه الانحرافات عن المألوف إلى السخط؛ لأنهم يعدونها نقداً موجهاً لهم وسوف يتسامحون عن مثل هذا الخروج فى الشخص المرح الودود بالدرجة التى تجعل حتى أشد الناس غباء يدرك بوضوح أنه ليس منشغلاً بنقدهم.

(٥)

وهذه الطريقة للهروب من التوبيخ تعد رغم ذلك مستحيلة لكثير من الذين تحجب أذواقهم وآراؤهم تعاطف القطيع معهم. وافتقارهم للتعاطف يجعلهم غير مستريحين ويدفعهم إلى السلوك المشاكس حتى لو أمكنهم ظاهرياً الوفاق مع القطيع أو تجنب الموضوعات الشائكة. والذين لا ينسجمون مع تقاليد جماعاتهم يميلون لأن يكونوا شاذين وغير مستريحين ويفتقدون المزاج الطيب المتسع. ونفس هؤلاء الناس لو نقلوا إلى جماعة أخرى لا تعتبر آراءهم غريبة بينها فسوف يبدو كما لو كانوا قد غيروا شخصياتهم كلية. فمن كونهم جادين، خجولين ومنعزلين ربما يصبحون مرحين وواثقين من أنفسهم، ومن كونهم حادى الطبع قد يصبحون سلسين وسهلين ومن كونهم ذاتيين

قد يصبحون اجتماعيين وانتشاريين. فكلما كان ذلك ممكناً، فعلى الشباب الذين يجدون أنفسهم غير منسجمين مع ما يحيط بهم أن يحاولوا عند اختيارهم لمهنة ما انتقاء مهنة تعطيهم الفرصة فى الرفقة خفيفة الظل حتى ولو أدى ذلك إلى خسارة كبيرة فى الدخل، وعادة ما لا يعرفون أن ذلك ممكناً، حيث إن درايتهم بالعالم محدودة جداً، وقد يتخيلوا بسهولة أن التحاملات التى أصبحوا معتادين عليها فى وطنهم منتشرة أيضاً فى العالم على اتساعه. وفى هذا الخصوص يمكن للأكبر سنًا تقديم كثير من العون للشباب حيث إن الخبرة العميقة بالبشر تعد من الأمور المهمة.

(١)

فى أيام التحليل النفسى هذه، من المعتاد افتراض أنه عندما يكون شخصاً صغير السن غير منسجم مع بيئته فلا بد وأن يكون السبب راجع إلى خلل نفسى. وفى اعتقادى أن ذلك خطأ بالكامل. افترض مثلاً أن شخصاً صغير السن له والدان يعتقدان أن نظرية التطور خبيثة. لا شئ سوى الذكاء يكون مطلوباً فى مثل هذه الحالة لجعله غير منسجم معهم. فعدم الانسجام مع الوسط المحيط بالشخص يعد بالطبع كارثة، ولكنها ليست دائماً بالكارثة التى يجب اجتنابها مهما كان الثمن، فإذا كان الوسط المحيط غريباً أو متحاملاً، أو قاسياً، فسيكون من المزايا ألا ينسجم المرء معه، وتتواجد هذه الخصائص بدرجة ما فى كل وسط تقريباً. فجاليلى وكبلر كان لهما «أفكار خطيرة» (كما يقال فى اليابان) وكذلك أيضاً أكثر الرجال ذكاءً فى

عصرنا هذا. وليس من المرغوب فيه أن تكون الحاسة الاجتماعية قوية النمو لدرجة أن تؤدي بمثل هؤلاء الرجال إلى الخوف من العداء الاجتماعي الذي قد تستفزه آراؤهم. فالمرغوب هو إيجاد الطرق التي تجعل لهذا العداء أبسط وأقل آثار ممكنة.

(٧)

وأهم أجزاء هذه المشكلة يبرز في عالمنا الحديث خلال فترة الشباب، فإذا استهل شخص حياته في المهنة المناسبة وفي المحيط المناسب فسوف يستطيع في معظم الأحوال الهروب من الاضطهاد الاجتماعي، ولكن لأنه لا يزال صغيراً ولم تُختبر ميزاته بعد، فهو عرضة لأن يكون تحت رحمة أناس جهلة يعتبرون أنفسهم قادرين على الحكم في أمور لا يعلمون عنها شيئاً ويثورون لمجرد اقتراح أن شخصاً صغيراً ربما يكون أكثر منهم علماً رغم كل خبرتهم بالعالم.

(٨)

وكثير من الأشخاص الذين هربوا في النهاية من طغيان الجهل مروا بمعركة شديدة ووقت طويل من الكبت لدرجة الإحساس بالمرارة وتبدد الطاقة، وهناك نظرية مريحة هي أن العبقرية ستجد دائماً طريقها. ونظراً لقوة هذه النظرية يعتبر كثير من الناس أن اضطهاد

المواهب الشابة لن يؤدي إلى ضرر كبير ولا يوجد أى مبرر لقبول هذه النظرية، فهى مثل نظرية أن القتل لابد وأن يظهر، فمن الواضح أن كل جرائم القتل التى علمنا بها قد اكتشفت ولكن من يعلم : كم من جرائم القتل وقعت ولم يسمع عنها أحد؟ وبنفس الكيفية، فكل الأشخاص العابرة الذين سمعنا عنهم على الإطلاق قد انتصروا على الظروف المعاكسة ولكن لا يوجد مبرر لافتراض عدم وجود عدد آخر كبير استسلم فى الصغر. علاوة على ذلك، فالقضية ليست العبقريّة فحسب ولكن الموهبة أيضاً والتى هى مهمة بنفس الدرجة للمجتمع. والقضية ليست فى أن تبرز بكيفية ما، ولكن فى أن تبرز دوّما مرارة وتبدد للطاقة. لكل هذه الأسباب يجب عدم جعل الطريق أمام الشباب شديد الوعورة.

(٩)

بينما من المرغوب فيه أن يعامل الكبير رغبات الصغير باحترام، فليس من المرغوب فيه أن يعامل الصغير رغبات الكبير باحترام، والسبب بسيط وهو أنه فى أى من الحالتين فإن حياة الصغير هى موضع الاهتمام وليست حياة الكبير. فعندما يحاول الصغير تنظيم حياة الكبير، مثلاً بالاعتراض على زواج والد أرملة فالخطأ هنا يعادل الخطأ الخاص بمحاولة الكبير تنظيم حياة الصغير، فالكبار والصغار سواء بسواء، ما أن يصلوا إلى سنوات الرشد فلهم الحق فى اختياراتهم

الخاصة، ولو كان ضروريًا، فى أخطائهم الخاصة أيضًا. وليس من السداد أن يستسلم الشباب الصغير لضغوط الكبار فى أى أمر حيوى. افترض مثلاً أنك صغير السن وترغب فى التمثيل المسرحى، وأن والدك يعارضان هذه الرغبة، سواء على أساس أن المسرح لا أخلاقى أو على أساس أنه منحط اجتماعيًا. ربما يمارسون عليك كل أنواع الضغوط، فربما أخبروك أنهم سينبذونك إذا أهملت أوامرهم، وربما يقولون إنك سوف تندم بالتأكد بعد قليل من السنوات، وربما ذكروا سلسلة كاملة من الأمثلة الفظيعة لشباب كانوا مندفعين فى عمل ما تحاول عمله وانتهوا نهاية سيئة نتيجة لذلك.

(١٠)

قد يكون الوالدان على حق فى التفكير فى أن المسرح ليس بالمهنة المناسبة لك، فربما لا توجد لديك موهبة التمثيل، أو ربما كان صوتك رديئًا. فإذا كان الأمر كذلك فسوف تكشف ذلك بسرعة من رجال المسرح وسيكون الوقت أمامك لا يزال كافيًا كى تنشُد مهنة أخرى، وجدل الأبوين لا يجب أن يكون سببًا كافيًا لاعتزالك المحاولة. فإذا نفذت غرضك رغم كل ما يقولان، فسوف يلينان بسرعة وبسرعة أكبر فى الحقيقة عما يعتقدان أو تعتقد. أما إذا وجدت أن رأى الخبراء غير مشجع فسيكون ذلك أمرًا مختلفًا لأن رأى الخبراء يجب أن يعامل باحترام دائمًا من المبتدئين.

(١١)

وأعتقد أنه على وجه العموم، وبعيداً عن رأى الخبراء، فهناك كثير جداً من الاحترام لأراء الآخرين سواء فى الأمور الكبيرة أو الصغيرة. والإنسان يجب عليه كقاعدة احترام الرأى العام فى حدود ما هو ضرورى لتجنب الجوع وللبقاء خارج السجن، ولكن أى شئ يتجاوز ذلك يعد استسلاماً طوعياً لاستبداد غير ضرورى، ومن الأرجح أن يتعارض ذلك مع السعادة بكل الطرق الممكنة.

(١٢)

خذ مثلاً موضوع الإنفاق، فكثير جداً من الناس ينفقون المال فى طرق تختلف تماماً عن تلك التى تحتمها أذواقهم الطبيعية، لمجرد أنهم يحسون أن احترام جيرانهم لهم يعتمد على امتلاكهم لسيارة جيدة وعلى قدرتهم على إقامة حفلات عشاء طيبة. وفى الحقيقة، فإن أى إنسان بمقدوره شراء سيارة ولكنه يفضل القيام بسفريات سياحية، أو اقتناء مكتبة جيدة وسيكون فى النهاية محترماً بدرجة أكبر عما لو فعل مثل أى شخص آخر تماماً.

(١٣)

ليس هناك بالطبع أى منطق فى تعمد الاستهزاء بالرأى العام، فسيظل ذلك أيضاً واقعاً تحت سيطرته وإن كان بطريقة مقلوبة، ولكن اللامبالاة - الصادقة - بالرأى العام تعد مصدر قوة وسعادة معاً. والجماعة المكونة من رجال ونساء لا ينحنون كثيراً للأمور التقليدية تعد جماعة أكثر تشويقاً من جماعة يسلك كل أفرادها نفس السلوك.

(١٤)

فحيثما كانت شخصية كل فرد قد تكونت باستقلال، فستبقى الفروق النوعية محفوظة، وإنه لمن الأفيد أن تقابل أناساً جددًا ليسوا مجرد نسخ مطابقة للذين قابلتهم فعلاً. وتلك كانت إحدى مزايا الارستقراطية، فيحتمل كانت المكانة تعتمد على المولد فمن المسموح به أن يكون السلوك غير منضبط. ولقد فقدنا فى عالمنا الحديث هذا المصدر للحرية الاجتماعية، وبالتالي أصبح مطلوباً أن ندرك بوعى مخاطر التشابه. أنا لا أعنى بذلك أن يكون الناس شاذين بقصدهم، لأن ذلك لن يكون مثيراً مثله كونهم تقليديين، ما أعنيه فقط هو أن الناس يجب أن يكونوا طبيعيين، ويجب عليهم اتباع ما تمليه عليهم أذواقهم التلقائية ما لم تكن ضد المجتمع بصورة مؤكدة.

(١٥)

وفى العالم الحديث، ونظرًا لسرعة وسائل النقل، أصبح الناس أقل اعتمادًا على جيرانهم الأقرب عما كانوا سابقًا. والذين يملكون سيارات، يمكنهم اعتبار أى شخص يعيش على مسافة عشرين ميلاً جارًا ولديهم بالتالى قدرة أكبر كثيرًا على اختيار رفاقهم عما كان عليه الحال قبلًا. وفى أى جيرة مأهولة، سيكون الشخص سيئ الحظ جدًا إذا لم يستطع أن يجد بشرًا يتوافق معهم فى مسافة عشرين ميلاً. وفكرة أن الشخص يجب أن يعرف جيرانه المباشرين اختفت فى المراكز السكانية الكبيرة وإن كانت لا تزال موجودة فى المدن الصغيرة والأرياف. ولقد أصبحت فكرة غبية حيث لم تعد هناك حاجة للاعتماد على الجيران المباشرين فى المجتمع. ولقد أصبح ممكناً أكثر وأكثر أن نختار رفاقنا على أساس خفة روحهم وليس على أساس مجرد قربهم منها. والسعادة تتعاضد بالائتلاف مع الأشخاص الذين لهم نفس أذواقنا وآرائنا، والعلاقات الاجتماعية يجب أن يكون من المتوقع أن تنمو أكثر وأكثر متوازية مع هذه المسارات ويجب أن نأمل أن تقل تدريجياً بواسطة هذه الوسائل الوحدة التى تصيب الآن كثيراً جداً من الناس غير التقليديين إلى درجة الاختفاء تقريباً. وسوف يزيد ذلك من سعادتهم بدون شك ولكنه سيقول بالطبع اللذة السادية التى يستمدونها التقليديون من وضع غير التقليديين تحت رحمتهم، ولا أعتقد أن هذه اللذة يجب علينا الاهتمام كثيراً بالمحافظة عليها.

(١٦)

الخوف من الرأى العام مثله مثل أى شكل من أشكال الخوف يعد قاهرًا ومُوقِفًا للنمو، ومن الصعب الوصول إلى أية صورة من صور العظمة ما ظل هذا الشكل من الخوف قويًا كما يستحيل اكتساب حرية الروح والتي منها تتكون السعادة الحقيقية حيث إنه من الضروري للسعادة أن تكون طريقتنا فى الحياة نابعة من دوافعنا العميقة وليس من المذاقات والرغبات العارضة لأولئك الذين حدث أن كانوا جيراننا أو حتى أقاربنا.

(١٧)

والخوف من الجيران المباشرين بلا شك أقل كثيرًا مما كان قبلاً، لكن هناك طرازاً جديداً من الخوف ألا وهو الخوف مما قد تقوله الصحف، ويعد ذلك مرعباً بنفس درجة أى شئ يتصل باصطياد السحرة فى العصور الوسطى. فعندما تختار الصحيفة أحد الأشخاص المسالمين تماماً لجعله كبش الفداء فربما أصبحت النتيجة مفزعة جداً. ولحسن الحظ، يهرب معظم الناس من هذا المصير نتيجة أنهم غير مشهورين ولكن كلما أصبحت الدعاية أكثر كمالاً وأكثر تنوعاً فى أساليبها فسيكون هناك خطر متزايد لهذه الصورة الحديثة من صور الاضطهاد الاجتماعى. ويعد هذا أمراً مؤلماً جداً عن أن يعامله الذى

يقع ضحية له بأنفة. ومهما اعتقد الناس فى المبدأ العظيم لحرية الصحافة، فأعتقد أنه يجب رسم الخط الفاصل بوضوح أكثر مما هو عليه عن طريق قانون التشهير وأن يتم منع أى شىء يجعل الحياة غير محتملة لأشخاص أبرياء حتى ولو فعلوا أو قالوا أشياء تؤدى إلى انخفاض شعبيتهم إذا ما نشرت بطريقة خبيثة. والعلاج الناجع لهذا الشر هو زيادة تسامح الجمهور. وأفضل الطرق لزيادة هذا التسامح هو مضاعفة عدد الأشخاص الذين يتمتعون بسعادة حقيقية لكى لا يكون مصدر سرورهم الرئيسى هو إنزال الألم بإخوانهم من البشر.

الجزء الثاني

مسببات السعادة

الفصل العاشر

ألا تزال السعادة ممكنة ؟

(1)

كنا حتى الآن ننظر فى أمر الإنسان التعيس، ولدينا الآن المهمة الأكثر بهجة وهى النظر فى أمر الإنسان السعيد، فمن خلال مناقشاتى مع بعض أصدقائى ومن خلال كتبهم كدت أصل إلى استنتاج أن السعادة فى عالمنا الحديث أصبحت أمراً مستحيلاً. وأجد رغم ذلك أن هذه النظرة تميل لأن تبدد بالتأمل الباطنى، وبالسفر للخارج وبالحوار مع السبتيانى الخاص بى. لقد تعرضت فى فصل سابق لتعاسة أصدقائى الأدباء، أما فى الفصل الحالى فأنا أرغب فى عمل حصر للناس السعداء الذين عرفتهم خلال فترة حياتى.

(٢)

السعادة نوعان رغم أنه بالطبع توجد درجات وسطى، النوعان اللذان أقصدهما يمكن تمييزهما على أن أحدهما بسيط والآخر وهمى، أو أن أحدهما حيوانى والآخر روحانى ، أو أن أحدهما للقلب والآخر للرأس.

والتمييز الذرى يتم اختياره من بين هذه البدائل يعتمد بالطبع على النظرية التى يراد إثباتها. وأنا فى هذه اللحظة غير مهتم بإثبات أية نظرية ولكنى مهتم فقط بأن أصف، ولعل أبسط طريق لوصف الفرق بين النوعين من السعادة هو القول بأن نوعاً منهما متاح لآى إنسان بينما النوع الآخر متاح للذين يمكنهم القراءة والكتابة فقط. فعندما كنت صبيّاً عرفت رجل كان يتفجر سعادةً وكان عمله هو حفر الآبار، ولقد كان طويلاً جداً وله عضلات غير معقولة، ولم يكن يستطيع القراءة أو الكتابة، وعندما سُمح له فى عام ١٨٨٥ بالإدلاء بصوته فى انتخابات البرلمان علم لأول مرة بوجود مثل هذه المؤسسات. لم تعتمد سعادته على مصادر فكرية، ولم تتركز على الاعتقاد فى القانون الطبيعى، أو كمال الأنواع أو الملكية العامة للمنافع العامة أو الانتصار الحتمى للسببيين أو لآى من الطوائف الأخرى، وهى الأمور التى يعتبرها المفكرون ضرورية لاستمتاعهم بالحياة، كانت سعادته تعتمد على القوة البدنية، والكفاية من العمل، وفى التغلب على العقبات غير المنيعة فى صورة صخرة.

كانت سعادة البستاني من نفس هذا النوع، فقد كان يشن حرباً فى فصل معين من فصول السنة على الأرانب التى يتحدث عنها كما يتحدث مفتشو اسكتلانديارد عن البلاشفة. فهو يعتبرهم غامضين، مدبرين وشرسين، ومن رأيه أنه لا يمكن مواجهتهم إلا بوسائل مكررة تعدل مكرهم.

وكأبطال فالهالا الذين يقضون كل يوم فى صيد ذكر الخنزير البرى ويقتلون فى المساء ولكنه يعود للحياة مرة أخرى - بمعجزة - فى صباح اليوم التالى. يذبح البستاني عدوه يوماً دون أن يخشى من أن يختفى هذا العدو فى اليوم التالى، ورغم قد تجاوز السبعين بمراحل، فقد كان يعمل طوال اليوم ويقود دراجته فى المساء لمسافة ستة عشر ميلاً من التلال ذهاباً وعودة إلى عمله ولم ينضب معين مرجه فقد كانت الأرانب توفره له دائماً.

(٣)

ستقول إن هذه المتع البسيطة غير متاحة لبشر رفيعى القدر مثلنا، فأية فرحة قد نحسها عندما نشن حرباً على مخلوقات تافهة مثل الأرانب؟ ولكن هذا الجدل بالنسبة لى يعد ضعيفاً. فالأرنب أضخم كثيراً من البكتريا العضوية المسببة للحمى الصفراء، ولكن شخصاً رفيع القدر قد يجد سعادة فى محاربة هذه البكتريا، والمتع الماثلة تماماً لتلك الخاصة بالبستاني فيما يتعلق بمحتواها العاطفى متاحة لمعظم

الناس المتعلمين تعليمًا راقياً، والفرق الذى أحدثه التعليم ينحصر فيما يختص بالأنشطة التى يمكن عن طريقها الحصول على هذه المتع .

فمتع الإنجاز تتطلب صعوبات تجعل النجاح يبدو فى البداية أمراً مشكوكاً فيه رغم أنه عادة ما يتم الوصول إليه فى النهاية، ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى ألا يكون التقدير المبالغ فيه لقدرات الفرد مصدراً للسعادة. فالشخص الذى يقلل من تقديره لنفسه يدهش نفسه بالنجاح دائماً بينما الشخص الذى يبالغ فى تقدير نفسه يندهش بنفس القدر من الفشل، الطراز الأول من الدهشة تمتع بينما الطراز الثانى فغير ممتع؛ لذا فمن الحكمة ألا يكون المرء مغروراً بلا مبرر ولكنه يجب ألا يكون مسرفاً فى تواضعه لدرجة ألا يكون مقداماً.

(٤)

أكثر القطاعات المتعلمة تعليمًا راقياً فى المجتمع إحساساً بالسعادة هم رجال العلم. فكثير من رجال العلم البارزين بسطاء عاطفياً ويحصلون من عملهم على إشباع يكون عميقاً لدرجة أنهم يستطيعون أن يجدوا متعة فى الطعام وحتى فى الزواج. والفنانون والأدباء يعتبرون أنه من المؤكد ألا يكونوا سعداء فى زواجهم بينما رجال العلم فعادة ما يظلوا قادرين على الاستمتاع بنعمة الحياة العائلية قديمة الطراز. والسبب فى ذلك يرجع إلى الانشغال التام للأجزاء العليا من ذكائهم بعملهم وأنها لا تتدخل فى مناطق ليس لها فيها وظائف تقوم

بها. وهم سعداء فى عملهم لأن العلم فى العالم الحديث تقدمى وقوى، وهم لا يشكّون فى أهميته ولا العامة يشكّون. وبالتالي فلا حاجة بهم للعواطف المعقدة لأن العواطف الأيسر لا تواجه أية معوقات، والتعقيد فى العواطف كالزبد على صفحة النهر، ينتج عن العوائق التى توقف التيارات المتدفقة بنعومة، ولكن طالما كانت الطاقات الحيوية غير معاقة، فإنها لا تنتج موجات على اسطح ولا تكون قوتها واضحة لمن لا يلاحظها.

(٥)

وتتحقق كل شروط السعادة فى حياة رجل العلم، فلديه النشاط الذى يستغل طاقاته بكاملها، ويصل إلى نتائج تبدو مهمة ليس له فقط ولكن للجمهور العام حتى لو لم يتمكن من فهمها بأدنى درجة، وهو فى ذلك يعد أكثر حظًا من الفنان، فعندما لا يفهم أفراد الجمهور لوحة أو قصيدة، يقررون أنها لوحة أو قصيدة رديئة، أما عندما لا يفهمون النظرية النسبية فإنهم يستتجون (صوابًا) أن تعليمهم لم يكن كافيًا، ولذلك كان أينشتين مكرمًا بينما ترك أفضل الرسامين للموت جوعًا على أسطح المنازل، وكان أينشتين سعيدًا بينما الرسامون تعساء.

(٦)

وقليل جداً من الناس يمكنهم أن يصبحوا سعداء بصورة طبيعية
فى حياة تشتمل على الإثبات المستمر للذات فى مواجهة ارتياب جموع
البشر، ما لم يكن فى قدرتهم حصر أنفسهم فى إطار شلة معينة
ونسيان العالم الخارجى البارد. ورجل العلم ليس بحاجة إلى شلة.
حيث يرى الجميع فيه رأياً طيباً ما عدا زملائه. وعلى النقيض من
ذلك، يجد الفنان نفسه فى الموقف المؤلم الذى يحتم عليه الاختيار بين
أن يكون عمتهاً أو أن يكون محققاً. فإذا كانت قدراته من الطراز
الممتاز فمن المؤكد أنه سيجلب على نفسه إحدى هاتين النكبتين،
الأولى إذا استخدم قدراته، والأخيرة إذا لم يستخدمها. ولكن الحال
لم يكن كذلك دائماً وفى كل مكان، فقد كانت هناك أزمان كان فيها
الانطباع عن الفنانين الجيدين طيباً حتى وهم صغار. فجوليوس الثانى
رغم أنه ربما أساء معاملة مايكل أنجلو، لم يفترض مطلقاً أنه غير قادر
على رسم اللوحات، والمليونير الحديث رغم أنه قد يغدق بالثروة على
الفنانين كبار السن بعد أن يكونوا قد فقدوا قدراتهم، لا يتخيل مطلقاً
أن أعمالهم تعد بنفس أهمية عمله. ولعل مثل هذه الظروف على
علاقة بحقيقة أن الفنانين هم فى المتوسط أقل سعادة من رجال العلم.

(٧)

أعتقد أنه يجب التسليم بأن أكثر الشباب ذكاءً في الدول الغربية يميلون لمعاناة طراز التعاسة الذى يؤدي إليه عدم التوظيف المناسب لأفضل مواهبهم، والحال ليس كذلك في الدول الشرقية. فالشباب الأذكياء في يومنا هذا ربما كانوا أكثر سعادة في روسيا عنهم في أى مكان آخر من العالم. فلديهم هناك عالم جديد ليخلقوه، وإيماننا متحمس سيتم هذا الخلق وفقاً له. فقد تم إعدام كبار السن، أو تجويعهم حتى الموت، أو نفيهم أو تطهيرهم بكيفية ما، بحيث لا يستطيعون إجبار الشباب على الاختيار بين العمل الضار واللاعمل كما يحدث في كل دولة غربية. وقد تبدو عقيدة الشاب الروسى فجأة في نظر الغربيين المتحذلقين، ولكن ما الذى يمكن قوله ضدها؟ هو يخلق عالماً جديداً، والعالم الجديد متفق مع ذوقه، وعند خلق العالم الجديد، فمن المؤكد تقريباً أن يصبح الإنسان الروسى العادى أسعد حالاً عما كان قبل الثورة. قد لا يكون المفكر الغربى المتحذلق سعيداً في مثل هذا العالم ولكن ليس عليه أن يعيش فيه. وبالتالي فعقيدة روسيا الشابة لها مبرراتها وفقاً لأى اختبار عملى، وإدانتها على أساس أنها فجأة لا يمكن تبريرها إلا على أسس نظرية.

(٨)

فى الهند والصين واليابان تتعارض الظروف الخارجية ذات الطبيعة السياسية مع سعادة الشباب المثقف وإن لم توجد عقبات داخلية على غرار تلك الموجودة فى الغرب، فهناك أنشطة تبدو مهمة للشباب وطالما كانت هذه الأنشطة ناجحة، كان الشباب سعيداً، فهم يشعرون بأن لهم دوراً مهماً يلعبونه فى الحياة العامة وأن الأهداف التى ينشدونها ليس من المستحيل تحقيقها رغم صعوبتها. واللامبالاة التى يجدها المرء شائعة بين أرقى المتعلمين تعليماً عالياً من شباب الرجال والنساء فى الغرب تنتج عن توفيقه بين الراحة والعجز، فالعجز يجعل الناس يحسون بأن لا شئ يستحق العمل، والراحة تجعل ألم هذا الإحساس يمكن تحمله بالكاد. فعبر الشرق كله، يستطيع طالب الجامعة أن يأمل فى أن يكون له تأثير أكبر على رأى العام عما يمكنه أن يحصل عليه فى الغرب الحديث، ولكن تقل فرصته جداً عما فى الغرب فى تأمين دخل كاف. ولأنه ليس بعاجز أو مستريح، يصبح مصلحاً أو ثورياً وليس لا مبالياً. فسعادة المصلح أو الثورى تعتمد على مسار الأحداث العامة، ولكن ربما يستمتع بسعادة حقيقية - حتى عند إعدامه - عما يتوافر للامبال المستريح. وأنا أتذكر شاباً صينياً جاء لزيارة مدرستى وكان ذاهباً إلى وطنه لإنشاء مدرسة مماثلة فى جزء رجعى من الصين، وكان يتوقع أن تكون النتيجة هى قطع رقبتة، ورغم ذلك كان يتمتع بسعادة أحسست تجاهها بالحسد.

(٩)

أنا لا أرغب فى القول أن مثل هذا الطراز المحلق عالياً من السعادة هو المستطاع فقط، فهذا الطراز متاح للأقلية فحسب، لأنه يتطلب نوعاً من القدرة واتساع الاهتمامات لا يمكن أن يكون شديدي الشيوع. وليس العلماء الأفذاذ فقط هم الذين يستمدون المتعة من العمل، ولا رجال الدولة القيايين فقط هم الذين يستمدون المتعة من دفاعهم عن قضية ما. فمتعة العمل متاحة لكل فرد يستطيع تنمية مهارة متخصصة بشرط أن يستطيع الحصول على الإشباع من ممارسة مهارته دون الرغبة فى الحصول على الاستحسان العام.

(١٠)

لقد عرفت رجلاً فقد القدرة على استعمال قدميه فى شبابه المبكر ولكنه ظل سعيداً سعادة صافية عبر حياته الطويلة ووصل إلى ذلك بكتابة عمل يقع فى خمسة أجزاء عن مرض لفحة الورد، وعرفت أنه كان الخبير الأول فيه. ولم يكن لى متعة التعرف على أى عدد كبير من علماء الأصداف ولكنى علمت من أولئك الذين يعرفونهم أن دراسة الأصداف توفر الرضا للذين ينشغلون بها. عرفت مرة رجلاً كان أفضل جامع لأحرف الطباعة فى العالم، وكان ينشده كل الذين وهبوا أنفسهم لاختراع أشكال فنية وكان يستقى سعادته بالدرجة

الكبرى ليس من الاحترام الخالص الذى يحسه تجاهه أشخاص لا يولون احترامهم بسهولة لأحد عما كان يستقيه من السرور الطبيعى عند ممارسته لصنعتة ، وهذا السرور ليس ببعيد عن الذى يحصل عليه الراقص الجيد من الرقص .

وعرفت أيضاً جامعى أحرف طباعة كانوا خبراء فى تكوين أشكال رياضية ، أو نقوش نسطورية أو الخط المسمارى (الآشورى) أو أى شئ غير مألوف وصعب ، ولم اكتشف ما إذا كانت الحياة الخاصة لهؤلاء الرجال سعيدة أم لا ، ولكن خلال ساعات عملهم كانت غريزة البناء عندهم مكتملة الإشباع .

(١١)

ومن المعتاد القول إن مدى متعة الصانع فى أدائه للعمل المهارى أصبح أقل فى عصر الآلة الحالى عما كان عليه قبلاً . ولست على يقين مطلقاً من أن ذلك صحيحاً . فمن الصحيح أن العامل الماهر يعمل حالياً فى أمور تختلف تماماً عن تلك التى كانت تستأثر باهتمام الحرفيين فى الصعور الوسطى ، ولكن الصانع الماهر لا يزال يعد مهماً جداً وضرورياً للغاية فى اقتصاد الآلة ، فهناك الذين يصنعون الأجهزة العلمية والآلات الدقيقة ، وهناك المصممون وفتو الطائرات وسائقو السيارات الخاصة ، وأولئك المضيفون لآخرين ومهتهم هى تطوير المهارة لأى مدى تقريباً . فالعامل الزراعى والفلاح فى المجتمعات

البداية نسبياً لا تقترب سعادتهم من سعادة من سعادة من يعمل سائناً لسيارة أو قائداً لآلة، فى حدود ما أمكنى ملاحظته شخصياً. فصحيح أن علم الفلاح الذى يزرع أرضه الخاصة متباين، فهو يحرق ويحصد ويحصد ولكنه واقع تحت رحمة الطبيعة ومدرک تماماً لاعتماده عليها بينما الذى يعمل فى الميكانيكيات الحديثة يدرك قوته ويكتسب الإحساس بأن الإنسان هو السيد وليس عبداً لقوى الطبيعة.

وصحيح بالطبع أن العمل غير مشوق بدرجة كبيرة لقطاع عريض من ذوى العقول الآلية الذين يكررون بعض العمليات الميكانيكية مرات ومرات بأدنى تنوع ممكن، ولكن كلما زاد عدم تشويق العمل حدة، كلما زادت إمكانية أن يوكل أداؤه إلى الآلة. والهدف النهائي للإنتاج الآلى والذى من الصحيح أننا لا زلنا حتى الآن بعيدين جداً عنه هو الوصول إلى نظام يتم فيه عمل كل شئ غير مشوق بواسطة الآلات بينما يتم استبقاء الإنسان للأعمال التى تشتمل على التنوع والإبداع. وفى مثل هذا العالم سيكون العمل أقل إضجاراً وأقل كآبة عما كان عليه منذ وقت دخول الزراعة. فعندما بدأ البشر الزراعة قرروا الاستسلام للرتابة والضجر لكى يقللوا مخاطر الموت جوعاً. فعندما كان الإنسان يحصل على طعامه بالصيد، كان العمل ممتعاً، كما يلاحظ من حقيقة أن الأثرياء لا يزالون ينشدون هذه الحرفة السلفية من أجل التسلية. ولكن بدخول الزراعة، دخل البشر إلى مرحلة طويلة من الدناءة والبؤس والجنون ولم يتخلصوا منها إلا الآن نتيجة الأداء الخير للآلة.

وقد يكون طيباً جداً أن يتحدث العاطفيون عن الاتصال بالأرض وعن الحكمة الناضجة لفلاحى توماس هاردى الفلاسفة، ولكن الرغبة الوحيدة لكل شاب صغير فى الريف هو أن يجد عملاً فى المدن حيث يكون فى استطاعته الهرب من استعباد الريح والطقس وعزلة أمسيات الشتاء المظلمة إلى المناخ الإنسانى الموثوق فيه للمصنع والسينما. فالزراعة والتعاون عنصران ضروريان لسعادة الإنسان العادى والحصول عليهما فى الصناعة يكون أكثر كمالاً بكثير عنه فى الزراعة.

(١٢)

ويعد الإيمان بقضية ما من مصادر السعادة لأعداء كبيرة من الناس. أنا لا أفكر فقط فى الثوريين أو الاشتراكيين أو الوطنيين فى الدول المقهورة ومن على شاكلتهم ولكنى أفكر أيضاً فى كثير من المعتقدات الأقل تواضعاً. فمن عرفت من الناس الذين يؤمنون بأن الإنجليز هم القبائل العشر التائهة كانوا جميعاً تقريباً سعداء بينما كانت سعادة الذين يعتقدون أن الإنجليز هم قبيلتنا إفرام ومانسح فقط، لا تعرف حدوداً. وأنا لا أقترح أن يتبنى القارئ هذه العقيدة حيث إنى لا يمكن أن أحبذ أية سعادة قائمة على ما أرى أنها عقائد زائفة. ولنفس السبب لا يمكننى أن أدفع بالقارئ إلى الاعتقاد بأن البشر يجب أن يعيشوا كلية على الجوز رغم أنه فى حدود ملاحظاتى فإن مثل هذه المعتقدات تكفل دائماً السعادة الكاملة. ولكن من السهل إيجاد قضية

ليست وهمية بأى درجة وتتوافر لدى المهتمين بمثل هذه القضية اهتماماً حقيقياً وظيفية يؤدونها فى أوقات فراغهم وترياقاً كاملاً للإحساس بخواء الحياة.

(١٣)

والاستغراق فى هواية ما ليس بالأمر البعيد جداً عن الولاء لقضية غامضة، فأحد أبرز علماء الرياضيات الأحياء يقسم وقته بالتساوى بين الرياضيات وجمع الطوابع. وأتصور أن المهمة الأخيرة توفر له السلوى فى الأوقات التى لا يستطيع فيها إحراز أى تقدم فى المهمة الأولى، فصعوبة إثبات الفروض فى نظرية الأعداد ليست هى الأسى الوحيد الذى مكن لجمع الطوابع علاجه، ولا الطوابع هى أشياء الوحيدة التى يمكن جمعها. فلتنظر إلى النشوة العميقة المتاحة للخيال عندما يفكر المرء فى الخزف القديم، علب النشوق، العملات الرومانية، رءوس السهام، والأدوات الحجرية. وصحيح أن كثيرين منا متعالون جداً عن مثل هذه المتع البسيطة، فكلنا جربناها فى صبانا، ولكننا اعتبرناها لسبب ما غير جدير بالرجل الناضج، وهذا خطأ واضح، فأية متعة لا تؤدى إلى أى ضرر للغير يجب تقديرها.

(١٤)

وبالنسبة لى، فأنا أجمع الأنهار: فأنا استشعر المتعة من أننى أبحرت عبر نهر الفولجا وتتبع مسار نهر اليانج وأتحسر كثيراً على

أننى لم أشاهد نهر الأمازون أو الأوينوكو. فمهما كانت هذه العواطف بسيطة فأنا غير خجلان منها. أو فلتنظر إلى السرور الحماسى لأحد هواة البيسبول، فهو ينقلب إلى جريدته بشغف ويوفر له الراديو الإثارة الشديدة لمشاعره، وأن أذكر مقابلتى لأول مرة لأحد أدباء المقدمة بأمريكا والذي اعتقدت من كتبه أنه مفعم بالاككتاب، ولكن حدث فى تلك اللحظات أن كانت نتائج مباريات البيسبول الحاسمة تذاع فى الراديو، فنسينى الرجل وصوخ بفرحة لأن فريقه المفضل أحرز النصر، ومنذ تلك الحادثة أصبحت قادراً على قراءة كتبه دون أن أحس بالاككتاب نتيجة سوء طباعة.

(١٥)

وليس التقلبات والهوايات - فى كثير ، وربما أغلب الحالات - مصدراً للسعادة الأصلية، وإنما وسائل للهروب من الواقع والنسيان - للحظات - لبعض الألم الذى تصعب مواجهته . أما السعادة الأصلية فتعتمد أكثر من أى شئ آخر على ما يسمى بالاهتمام الودى بالأشخاص وبالأشياء .

فلاهتمام الودى بالأشخاص شكل من أشكال المحبة ولكنه ليس بالشكل المثبت والمستحوذ والذى يتطلب دائماً الاستجابة الملقطة . فهذا الشكل الأخير كثيراً جداً ما يكون مصدراً للتعاسة . أما الطراز الذى يؤدى إلى السعادة، فهو الطراز الذى يحب مراقبة الناس ويجد المتعة

فى تتبع صفاتهم الفردية، ويرغب فى توفير مجال لاهتمامات وسرور أولئك الذين يصبح على علاقة بهم دونما أن يطلب اكتساب سلطة عليهم أو تحقيق إعجابهم الحماسى به . فالشخص الذى يكون سلوكه تجاه الآخرين من هذا النوع بصورة طبيعية سوف يكون مصدرًا للسعادة ومستقبلًا للركة المتبادلة ، وعلاقاته بالآخرين سواء كانت سطحية أو قوية، فإنها سترضى كلاً من اهتماماته ومشاعره، فلن يحس بالمرارة من الجحود، لأنه نادراً ما يعانیه ولن يلاحظه عند حدوثه، وستكون الأمزجة التى من الممكن أن تثير أعصاب رجل آخر إلى درجة الحق، بالنسبة له مصدرًا للدهشة الهادئة، وسوف يصل دونما مجهود إلى نتائج يجدها شخص آخر بعد كفاح طويل غير ممكنة . فلأنه سعيد فى نفسه فسيكون رقيقاً ممتعاً وسيزيد ذلك بالتالى من سعادته . ولكن يجب أن يكون كل ذلك طبيعياً وألا ينبثق من فكرة التضحية بالذات التى يحتمها الإحساس بالواجب . فالإحساس بالواجب يكون مفيداً فى العمل ولكنه يكون عدائياً فى العلاقات الشخصية . فالناس يرغبون فى أن يكونوا محبوبين وليسوا محتملين باستسلام صبور، وربما كان حب كثير من الناس - تلقائياً وبدون مجهود - أعظم مصادر السعادة الشخصية .

(١١)

ولقد تكلمت فى الفقرة الأخيرة على ما أسميته بالاهتمام الودى بالأشياء . وقد تبدو هذه الجملة مصطنعة، فقد يقال : إنه من المستحيل

أن تحس بالود تجاه الأشياء . ومع ذلك فهناك شيء شبيهة بالمحبة فى نوع الشغف الذى يبدية الجيولوجى فى الصخور، أو عالم الحفريات فى الخرائب . هذا الشغف يجب أن يكون عنصراً رئيسياً فى سلوكنا تجاه الأفراد أو المجتمعات، فمن الممكن أن يكون شغفك بالأشياء عدائياً وليس ودياً . فقد يجمع شخص ما حقائق تتعلق بمواطن العنكبوت لأنه يكره العنكبوت ويود أن يعيش فى المكان الذى يوجد فيه القليل منه . هذا الطراز من الاهتمام لن يوفر نفس الاشباع الذى يحصل عليه الجيولوجى من الصخور . فالشغف بالأشياء غير الشخصية رغم أنه قد يكون أقل قيمة كمكون من مكونات السعادة اليومية عن السلوك الودى تجاه رفاقنا من المخلوقات إلا أنه رغم ذلك مهم جداً . فالعالم واسع وقدراتنا الذاتية محدودة، فإذا كانت كل سعادتنا مرتبطة كلية بظروفنا الشخصية فمن الصعب ألا نطلب من الحياة أكثر مما لديها لتعطينه . وأن تطلب الكثير جداً هو الطريق المؤكد لخصولك على أقل من المتاح، فالفرد الذى يمكنه نسيان الأمور التى تقلقه عن طريق الشغف الأصيل فى مجلس ترنت مثلاً أو تاريخ حياة النجوم، سيجد عند العودة من رحلته إلى العالم غير الشخصى أنه قد اكتسب توازناً وهدوءاً يمكنانه من التعامل مع الأمور المقلقة بأفضل طريقة، وسيكون فى نفس الوقت قد جرب سعادة حقيقية حتى وإن كانت وقتية .

(١٧)

سر السعادة هو الآتى : اجعل اهتماماتك واسعة قدر الإمكان ،
واجعل ردود أفعالك ودودة لا عدائية بأقصى درجة ممكنة تجاه الأشياء
والأشخاص الذين يهتمونك .

وسوف نوسع من هذا الحصر المبدئى لإمكانية السعادة فى
الفصول التالية مصحوباً باقتراحات للطرق التى يمكن بها الهروب من
المصادر النفسية للتعاسة .

الفصل الحادى عشر

التلذذ

(1)

أود فى هذا الفصل أن أتعرض لما يبدو لى من أكثر علامات الإنسان السعيد وضوحاً وعمومية ألا وهو التلذذ. لعل أفضل طريقة لفهم ما هو المقصود بالتلذذ، النظر إلى الطرق المختلفة لسلوك البشر عند تناولهم لوجبة طعام. فهناك من تعد الوجبة بالنسبة إليهم أمراً مضجراً، فمهما كان الطعام ممتازاً يحسون أنه غير مشوق، فقد سبق أن تناولوا طعاماً ممتازاً من قبل، ربما فى كل وجبة تناولوها ولم يجربوا معنى أن يظلوا بلا طعام إلى أن يصبح الجوع إحساساً مُضْماً. ولكنهم وصلوا إلى اعتبار وجبات الطعام أحداثاً تقليدية تملئها عادات المجتمع الذى يعيشون فيه. وككل أمر آخر، تعد الوجبات أمراً مملاً، ولكن لا جدوى من إثارة ضجة حول ذلك، حيث لا شىء آخر سيكون أقل إضجاراً. وهناك المقعدون الذين يأكلون من منطلق الإحساس بالواجب، لأن الطبيب أخبرهم بضرورة الحصول على القليل من

القوت كى يحتفظوا بقوتهم. وهناك الأبيقوريون، الذين يبدءون الوجبة مستبشرين، ولكنهم لا يجدون أن شيئاً قد تم طهوه جيداً كما ينبغي. ثم هناك الشرهون الذين ينكبون على طعامهم بجشع شديد ويأكلون كثيراً جداً فيصبحوا بُدْءاً مشخرين. وأخيراً هناك الذين يبدءون طعامهم بشهية عظيمة ويكونون مسرورين بطعامهم ويأكلون إلى أن يحصلوا على كفايتهم فيتوقفون، والذين يجلسون أمام وليمة الحياة لديهم سلوكيات مشابهة تجاه الأشياء الطيبة التي توفرها.

(٢)

الإنسان السعيد يناظر الطراز الأخير من الآكلين السابق استعراضهم، والجوع بالنسبة للطعام يمثله التلذذ بالنسبة للحياة. فالرجل الذى تضعره وجباته، يناظر ضحية التعاسة البيرونية، والمقعد الذى يأكل من منطلق إحساسه بالواجب يناظر الزاهد، والشره يناظر الشهوانى. أما الأبيقورى فنظير للقنوط الذى يستنكر نصف متع الحياة لأنها ليست بديدة بالدرجة الكافية، ومن الغريب أن كل هذه الطرز ربما باستثناء الشره يحتقرون الإنسان ذا الشهية الصحية ويعتبرون أنفسهم أرفع منه قدرًا. فاستمتعك بالطعام لأنك جائع يبدو لهم أمراً سوقيًا وكذلك استمتعك بالحياة لأنها توفر عديدًا من المشاهد المشوقة المتنوعة والمذاقات المدهشة، ومن علياء زوال وهمهم ينظرون بازدراء إلى أولئك الذين يحتقرونهم على أنهم نفوس وضيفة. بالنسبة لى،

فأنا غير متعاطف بالمرّة مع هذه النظرة، فكل زوال للمتعة هو مرض بالنسبة لى، قد تجعله بعض الظروف حتمياً ولكنه رغم ذلك يجب أن يعالج عند حدوثه بالسرعة الممكنة، لا أن يتم التعامل معه على أنه صورة رفيعة من الحكمة.

(٣)

لنفرض أن شخصاً يحب الفراولة وآخر لا يحبها، فبأى منطق يكون الأخير أرفع قدرًا؟ ليس هناك تنظير أو دليل على أن الفراولة طيبة أو غير طيبة، فهى للشخص الذى يحبها طيبة ولمن لا يحبها غير طيبة، لكن لدى الشخص الذى يحبها سروراً لا يحسه الذى لا يحبها. وإلى هذا المدى تكون حياته أكثر إمتاعاً، ويكون أكثر تلاؤماً مع العالم الذى يجب على الاثنين معاً أن يعيشا فيه. وما يصدق على هذا الأمر التافه يصدق أيضاً على الأمور الأكثر أهمية، فالشخص الذى يستمتع بمشاهدة كرة القدم هو إلى هذا الحد يفوق الإنسان الذى لا يفعل، والشخص الذى يستمتع بالقراءة يفوق الذى لا يفعل، حيث إن فرص القراءة أكثر توفراً من فرص مشاهدة كرة القدم. فكلما كثرت الأمور التى يهتم بها الشخص كلما كثرت فرص كونه سعيداً وقلّت فرص كونه تحت رحمة الحياة، لأنه إذا فقد أمراً يمكنه الاهتمام بآخر، فالحياة أقصر من أن يتوافر بها الاهتمام بكل شيء ولكنه من الخير أن نهتم بأمور كثيرة بالدرجة التى تمليها الضرورة للملء أوقاتنا.

فنحن ميالون بطبيعتنا إلى مرض الأنطوائى الذى ينقلب بعيداً عن المشاهد المتنوعة التى ينشرها العالم أمامه إلى التأمل فى خواء داخله فحسب، ولكن علينا ألا نتصور أن هناك أى شئ عظيم فى تعاسة الانطوائى .

(٤)

لقد كان هناك - فى زمن ما - آلتان لصنع السجق، صنعتا بروعة لتحويل الخنازير إلى ألد سجق. إحدى الآلتين احتفظت بتلذذها بالخنازير وأنتجت الكثير جداً من السجق، ولكن الأخرى قالت «ما الخنزير بالنسبة لى؟ إن عملى أهم بكثير وأكثر روعة عن أى خنزير» ورفضت الخنزير وعكفت على دراسة محتواها الداخلى. وعندما فقدت طعامها الطبيعى توقف داخلها عن العمل وكلما زادت دراستها لدخلها كلما بدا لها أكثر خواءً وغباءً، ووصلت كل الأجهزة الرائعة التى تتم عن طريقها عملية التحول اللذيذة إلى مرحلة التوقف التام وأصبحت الآلة فى حيرة من تحديد ما يمكنها عمله. هذه الآلة الثانية من آلات السجق تشبه الرجل الذى فقد قدرته على التلذذ، بينما الآلة الأولى فتشبه الرجل الذى احتفظ بها. العقل آلة غريبة يمكنها جمع المواد المقدمة إليها بطرق مدهشة جداً، ولكنه يقف عاجزاً إذا لم تأته مواد من العالم الخارجى ويختلف عن آلة السجق فى أنه يجب عليه الحصول على مواده الخاصة بنفسه حيث إن الأحداث تصبح خبرات

فقط عبر الاهتمام الذى تبديه بها، فإذا لم تثر فينا الاهتمام فإننا لا نحصل على شئ منها، فالشخص إذن الذى يوجه اهتماماته إلى داخله لا يجد شيئاً جديراً بالملاحظة بينما من يوجه اهتماماته إلى الخارج يمكنه أن يجد فى الداخل فى تلك اللحظات النادرة التى يختبر فيها نفسه أكثر التشكيلات تنوعاً من المكونات التى تم تقطيعها وتجميعها فى شكل جميل وبتاء .

(٥)

وأشكال التلذذ لا يمكن حصرها، فقد نتذكر أن شرلوك هولمز التقط قبة وجدها ملقاة فى الطريق وبعد النظر إليها للحظة أشار إلى أن صاحبها قد تدهور به الحال فى الدنيا نتيجة شربه الخمر وأن زوجته لم تعد مغرمة به كما اعتادت أن تكون. ولا يمكن أن تكون الحياة مملة لشخص توفر له الأشياء العارضة ثروة من الاهتمامات. فكر فى الأشياء المختلفة التى يمكن ملاحظتها فى جولة ريفية. فقد يهتم شخص بالطيور وآخر بالنباتات وثالث فى جيولوجية المنطقة ورابع فى الزراعة وهكذا. وأى من هذه الأشياء يكون مشوقاً إذا ما أثار اهتمامك. وبفرض بقاء باقى الأشياء متساوية، فالشخص الذى يكون مهتماً بأى منها هو شخص أفضل تلاؤماً مع العالم من الشخص الذى لا يهتم .

(١)

ما أشد تباين سلوكيات الناس تجاه رفاقهم من البشر بشكل غير عادى . فقد يفشل شخص ما تماماً عبر رحلة قطار طويلة فى ملاحظة رفاقه من المسافرين ، بينما يكون شخص آخر قد جمع وحلل طباعهم وقام بعمل تخمينى ثاقب عن ظروفهم ، وربما حتى يكتشف معظم التاريخ الخفى لعدد منهم ، فالناس يختلفون بنفس الدرجة فيما يحسون به تجاه الآخرين وفيما يستخلصونه عنهم ، فبعض الناس يجدون كل شخص تقريباً مملاً ، بينما البعض الآخر يُنشئ - بسرعة وسهولة - مشاعر صداقة فى اتجاه أولئك الذين تجمعهم بهم أية صلة ما لم يكن هناك سبب محدد للإحساس بالعكس .

(٧)

ولنأخذ موضوع السفر مرة أخرى فى الاعتبار ، فبعض الأشخاص يسافرون عبر عديد من الدول ، فيذهبون دائماً إلى أحسن الفنادق ويأكلون نفس الطعام الذى يتناولونه فى الوطن ، ويقابلون نفس الأغنياء العاطلين الذين قد يقابلونهم فى الوطن ويتناقشون فى نفس الموضوعات التى يتحاورون فيها على مائدة الغذاء الخاصة بهم . وعندما يعودون يكون إحساسهم الوحيد هو الارتياح من انتهاء ملل التنقل المكلف . وبعض الناس أينما ذهبوا شاهدوا ما يعد مميّزاً

للمنطقة ، يتعرفون على الناس الممثلين لخصائص سكان المنطقة ويلاحظون ما يمكن أن يكون مهماً تاريخياً أو اجتماعياً ، ويأكلون الطعام المميز للدولة التي يزورونها ويتعلمون سلوكياتها ولغتها ويعودون إلى الوطن بذخيرة جديدة من الأفكار الممتعة ليستعيدونها فى أمسيات الشتاء .

(٨)

فى كل هذه المواقف المختلفة يكون للشخص الذى لديه متعه التلذذ ميزة على الشخص الذى لا يملكها . فحتى التجارب غير السارة قد تكون نافعة له ، فأنا سعيد لأننى شملت جمهرة من الصينيين وشملت قرية بصقلية رغم أننى لا أسطيع ادعاء أن سعادتى كانت كبيرة جداً فى تلك اللحظات . والأشخاص المغامرون يستمتعون بحطام السفن ، حركات العصيان ، الزلازل ، الحرائق ، وكل طرز التجارب غير السارة طالما لم تصل إلى حد إتلاف الصحة . فهم يقولون لأنفسهم فى أحد الزلازل ، مثلاً : « هكذا إذن يكون الزلزال » ، ويسرهم أن يتسع إدراكهم للعالم بهذا العنصر .

وقد لا يكون صحيحاً القول بأن مثل هؤلاء الناس ليسوا تحت رحمة القدر ، حيث إنهم إذا فقدوا صحتهم فمن المرجح جداً أن يفقدوا قدرتهم على التلذذ فى نفس الوقت رغم أن ذلك ليس مؤكداً بأية حال ، فقد عرفت أشخاصاً ماتوا بعد سنوات من العذاب البطيء

ولكنهم احتفظوا بقدرتهم على التلذذ حتى آخر لحظة تقريباً. فبعض طرز اعتلال الصحة قد تدمر القدرة على التلذذ، وبعضها لا يفعل، وأنا لا أعرف ما إذا كان علماء الكيمياء الحيوية قد أصبحوا الآن قادرين على التفرقة بين هذه الطرز. ربما عندما يتقدم علم الكيمياء الحيوية أكثر ستمكن من أخذ أفراس توفر لمشاعرنا الاهتمام بكل شيء، ولكن حتى يجيء ذلك اليوم فنحن مضطرون إلى الاعتماد على ملاحظات الحس المشترك للحياة كي نحكم على المسببات التي تمكن بعض الأشخاص من الاهتمام بكل شئ بينما تضطر الآخرين إلى عدم الاهتمام بأى شيء.

(٩)

وأحيانا ما يكون التلذذ عاماً، وأحياناً أخرى متخصصاً، وقد يكون شديد التخصص حقاً. فالذين قرأوا بورو قد يتذكرون شخصية ظهرت فى رواية رومانى راى، فقد فقد زوجته التى كان شديد الإخلاص لها وأحس لفترة أن الحياة أصبحت جرداء تماماً. ولكنه أصبح مهتماً بالنقوش الصينية على أباريق وصناديق الشاي، ومستعيناً بالنحو الفرنسى- الصينى بعد أن تعلم الفرنسية لهذا الغرض، تمكن تدريجياً من فك طلاسمها واكتسب بذلك شغفاً جديداً بالحياة رغم أنه لم يستعمل معرفته بالصينية مطلقاً فى أى أغراض أخرى. ولقد عرفت أشخاصاً استغرقتهم بالكامل محاولتهم التعرف الهرطقة للإدارة وآخرين كان شغلهم الرئيسى يكمن فى مراجعة الأصول والطبعات

الأولى له هويـز . من المستحيل تمامـاً التخمين مقدماً بما سيثير اهتمام إنسان، ولكن معظم الناس بمقدورهم الاهتمام بشدة بشئ أو بآخر ، وما أن يستثار اهتمامهم حتى تصبح حياتهم خالية من الضجر .

(١٠)

الاهتمامات شديدة التخصص تعد مصدراً أقل إشباعاً للسعادة على التلذذ العام بالحياة، حيث أنها تملأ بالكاد الوقت الكامل لفرد ما، ودائماً يوجد خطر أن يأتى الوقت الذى يعرف فيه الشخص كل ما يمكن معرفته عن الأمر الخاص الذى أصبح هوايته .

ويجب تذكر أنه من بين الطرز المختلفة بالوليمة كان الشخص الشره والذى لم تكن على استعداد لمدحه . وقد يعتقد القارئ أن الشخص الذى لديه القدرة على التلذذ والذى كنا نمتدحه لا يختلف بأية طريقة محددة عن الإنسان الشره . وقد حان وقت جعل التفرقة بين الطرازين أكثر تحديداً .

(١١)

فالقدمات كما يعرف الجميع اعتبروا الاعتدال إحدى الفضائل الأساسية، وتحت تأثير الرومانتيكية والثورة الفرنسية هجر الكثيرون هذه النظرة ، وانصب الإعجاب على التقدير المبالغ فيه للعواطف حتى

ولو كانت من الطراز المدمر والمضاد للمجتمع كما فى حالة أبطال لورد بيرون. من الواضح أن القدماء كانوا رغم ذلك فى الطريق الصحيح. فى الحياة الطيبة يجب أن يكون هناك توازن بين مختلف الأنشطة، فلا يجب القيام بأحدها إلى الدرجة التى تجعل الأنشطة الأخرى مستحيلة. فالشره يضحى بكل المتع الأخرى من أجل متعة الأكل وبفعله هذا يقلل من السعادة الكلية فى حياته، وكثير من الشهوات الأخرى بجانب الأكل قد تمارس بتطرف مماثل.

فالإمبراطورة جوزفين كانت شرهة فيما يتعلق بالملابس. كان نابليون فى البداية يدفع فواتير الحائك، رغم تزايد معارضته الدائمة، وأخيراً أخبرها أنها يجب أن تتعلم الاعتدال وأنه فى المستقبل سيدفع الفواتير إذا كانت مبالغها تبدو معقولة. وعندما جاءت فاتورة الحائك التالية، استبدت بها الحيرة الشديدة للحظات ولكنها فى الحال أعدت لنفسها مخططاً: ذهبت إلى وزير الحرب وطلبت منه دفع فاتورتها من الأموال المخصصة للحرب، ولأنه كان يعلم أنها تملك القدرة على فصله، قام بالدفع وفقدت فرنسا جنوا نتيجة ذلك. هذا ما تقوله بعض الكتب على الأقل رغم أنى غير مستعد للوقوف شاهداً على مدى صحة هذه القصة. ولكن بالنسبة لغرضنا يستوى فى الكفاءة أن تكون هذه القصة صحيحة أو مبالغ فيها، حيث إنها تكفى لإيضاح المدى الذى قد تدفع إليه شهوة الملابس بامرأة كان لديها فرصة الاندماج فيها.

ومدمنو الخمر والمصابون بالإفراط فى الشبق الجنسى أمثلة واضحة
لنفس الشيء. فكل مذاقاتنا ورغباتنا يجب أن يتم توفيقها فى الإطار
العام للحياة. فإذا ما كانت ستصبح مصدراً للسعادة فيجب أن تتوافق
مع الصحة وأن تكون مصحوبة بالود لمن تحب وبالا احترام للمجتمع
الذى نعيش فيه. فبعض الشهوات يمكن الانغماس فيها إلى أى مدى
تقريباً دون تجاوز الحدود بينما البعض الآخر لا يمكن معه ذلك.
فالشخص الذى يحب الشطرنج مثلاً، إذا حدث أن كان عزباً ولديه
دخل مستقل، ليس بحاجة إلى أن يحد من شهوته بأية درجة بينما إذا
كان لديه زوجة وأبناء وليس لديه دخل مستقل، فسيكون عليه أن يحد
منها بشدة. ومدمن الخمر والشَّرْه للطعام، حتى إذا لم يكن لهما أى
روابط اجتماعية، يعدان غير راشدين من وجهة نظر احترام الذات،
لأن هذا الانغماس يتعارض مع الصحة ويؤدى إلى ساعات من البؤس
مقابل دقائق من السرور. فهناك أمور معينة تشكل إطاراً يجب أن
نعيش بداخله أى شهوة مفردة إذا لم تكن ستصبح مصدراً للبؤس.
هذه الأشياء هى الصحة، والامتلاك الكامل لقدرات الذات، وداخل
كاف للإنفاق على الضروريات والواجبات الاجتماعية شديدة الأهمية
كتلك الخاصة بالزوجة والأبناء.

(١٢)

فالشخص الذى يضحى بهذه الأشياء من أجل الشطرنج يكون
بالضرورة سيئاً بنفس درجة مدمن الخمر، والسبب الوحيد فى عدم

إدانتنا له بشدة هو أنه أقل شيوعاً بدرجة كبيرة، وأن الشخص الذى من المحتمل أن ينغمس تماماً فى مثل هذه اللعبة العقلية لابد وأن تكون له قدرات نادرة بدرجة ما. وتغطى الوصفة الإغريقية للاعتدال كل هذه الحالات، فالشخص الذى يحب الشطرنج لدرجة أنه يتطلع عبر يوم عمله إلى المباراة التى سيلعبها فى المساء يعد محظوظاً. ولكن الشخص الذى يترك عمله لكى يلعب الشطرنج طوال اليوم يكون قد فقد فضيلة الاعتدال. فمن المسجل أن تولستوى فى أيام صباه وعدم الإنتاج الأدبى، مُنح جائزة الصليب العسكرى لشجاعته فى الميدان ولكن عندما حان وقت تقليده الجائزة كان منشغلاً بمباراة فى الشطرنج لدرجة جعلته يقرر عدم الذهاب، ولا نستطيع أن نجد عيباً فى تولستوى بهذا الخصوص، حيث إنه ربما كان لا مبالياً بفوزه بوسام عسكرى أم لا، ولكن بالنسبة لرجال أقل منه شأنًا ربما يعد مثل هذا السلوك حماقة.

(١٣)

وكتحديد للمبدأ الذى تم وضعه الآن، يجب التسليم بأن بعض الأعمال تعد شديدة النبل لكى يتم تبرير التضحية بكل شىء آخر من أجلها، فالإنسان الذى يفقد حياته فى الدفاع عن وطنه لا يلام إذا ترك زوجته وأبناءه مفلسين. والشخص الذى يشغل فى تجارب يأمل منها الوصول إلى اكتشاف علمى عظيم أو إلى اختراع، لا يلام على الفقد

الذى أرغم أسرته على تحمله شريطة أن تتوج فى النهاية بالنجاح. أما إذا لم ينجح مطلقاً فى الوصول إلى الاكتشاف أو الاختراع اللذين حاول القيام بهما، فالرأى العام سيدينه على أساس أنه مهووس والذى يبدو ظلماً لأنه لا يمكن لأحد أن يتأكد من نجاحه مسبقاً فى مثل هذه الأعمال. خلال الألف عام الأولى من العصر المسيحى كان الشخص الذى يهجر عائلته من أجل الحياة المقدسة يُمتدح رغم أنه فى أيامنا الحالية سيؤخذ عليه واجبه فى أن يؤمن لأفراد عائلته حياتهم.

(١٤)

أعتقد أن هناك فرقاً نفسياً عميقاً دائماً بين الإنسان الشره والإنسان ذى الشهية الصحية، فالشخص الذى تتطرف فيه إحدى الرغبات على حساب كل الرغبات الأخرى عادة ما يكون شخصاً ذا مشكلة عميقة يبحث عن مهرب من شبح. وفى حالة مدمن الخمر يكون ذلك واضحاً: فالناس تشرب لتنسى، فإذا لم يكن لديهم أشباح فى حياتهم لما وجدوا السكر أكثر إرضاء من الصحو. وكما قال الرجل الصينى الأسطورى: «أنا لا أشرب الخمر للخمر، أنا أشرب الخمر لأسكر». - ويميز ذلك كل الشرايات المتطرفة أحادية الاتجاه، فليست السعادة فى الشيء الذى يتم اللجوء إليه دائماً فى النسيان. وهناك رغم ذلك فرق كبير جداً بين اللجوء إلى النسيان بطريقة المخمور أو بإعمال القدرات التى تعد مرغوبة فى ذاتها. فصديق بورو الذى علّم نفسه اللغة

الصينية لكى يصبح قادراً على تحمُّل فَقْد زوجته كان ينشد النسيان ولكنه لجأ إليه بممارسة نشاط ليس له اثار ضارة، ولكنه على العكس أدى إلى تحسين ذكائه ومعرفته. ولا يمكن قول أى شيء ضد أشكال الهروب التى هى من هذا الطراز. ولكن الأمر على نقيض ذلك مع الشخص الذى ينشد النسيان بشرب الخمر أو بالمقامرة أو بأية صورة أخرى من صور الإثارة عديمة الجدوى. صحيح أن هناك حالات تقف على الحافة، فماذا نقول عن الشخص الذى يجازف بجنون فى الطائرات أو على قمم الجبال لأن الحياة أصبحت مملة بالنسبة له؟ فإذا كانت مجازفاته تخدم أى غرض عام فقد نعجب بها وإن لم تكن فيجب أن نضعه فوق المقامرة والسكير بدرجة طفيفة.

(١٥)

التلذذ الطبيعى ليس هو الطراز الذى يعد فى الحقيقة بحثاً عن النسيان، بل هو جزء من التكوين الطبيعى للبشر ما لم يكن قد تم تدميره نتيجة لظروف سيئة، فالأطفال الصغار يهتمون بكل شيء يرونه أو يسمعون، فالعالم ملئ بالمفاجآت بالنسبة لهم، وهم منشغلون دائماً وبحماسة فى طلب المعرفة، ليست بالطبع المعرفة المدرسية ولكن الطراز الذى يتكون من التآلف مع الأشياء التى تسترعى انتباههم. والحيوانات حتى عندما تكون بالغة تحتفظ بقدرتها على التلذذ شريطة أن تكون بصحة جيدة، فالقطعة فى غرفة غير مألوفة لها لن تهدأ حتى

تشتمل كل ركن فيها لربما وجدت رائحة فأر في مكان ما، والشخص الذى لم يتم إحباطه قط بشكل جوهري سوف يحتفظ بشغفه الطبيعي بالعالم الخارجى، وطالما احتفظ به فسيجد الحياة ممتعة ما لم تكن حرته قد انتقصت بلا مبرر. وفقدان القدرة على التلذذ فى المجتمع المتمدين يعود بدرجة كبيرة جدًا إلى تقييد الحرية والذى يعد ضروريًا لطريقتنا فى الحياة. فالتوحش يصيد عندما يكون جائعًا ، وبفعله هذا يطبع باعثًا مباشرًا، والشخص الذى يذهب إلى عمله كل صباح فى ساعة محددة يحثه نفس الباعث وهو الحاجة إلى تأمين معيشته، ولكن فى حالته لا يعمل الباعث بطريقة مباشرة وفى نفس اللحظة التى يتم فيها الإحساس به، فهو يعمل بطريقة غير مباشرة عبر التجريدات والمعتقدات والخيارات. ولحظة أن يتجه الشخص إلى عمله لا يكون شاعرًا بالجوع لأنه يكون قد انتهى فى التو من إفطاره. هو يعرف فقط أن الجوع سوف يعود وأن ذهابه إلى عمله هو الطريق لإشباع هذا الجوع المستقبلى.

البواعث غير منتظمة بينما العادات فى المجتمعات المتمدينة فلا بد لها أن تكون منتظمة. وبين المتوحشين تكون الأعمال الجماعية - فى حدود وجودها - تلقائية ومندفة. فعندما تذهب قبيلة إلى الحرب، توقف طبلة الحرب الحماس الحربي وتلهم إثارة القطيع كل فرد بالنشاط الضرورى. ولا يمكن إدارة الأعمال الحديثة بهذه الطريقة. فعندما يتحتم أن ينطلق القطار فى لحظة معينة يكون من المستحيل أن يتم حث

البوابين وسائقى القاطرة ورجل الإشارات بالموسيقا البربرية. فكل منهم يجب أن يؤدي عمله لأنه ببساطة يجب أن يؤدي، فيمكن القول بأن باعثهم غير مباشر: فليس لديهم باعث تجاه هذا النشاط، ولكن تجاه الفائدة النهائية للنشاط.

ويعتور الكثير جداً من الحياة الاجتماعية هذا النقص، فالتناس يتحدثون مع بعضهم البعض ليس للرغبة فى فعل ذلك ولكن لفائدة نهائية وهى ما ياملون الحصول عليه من التعاون. ففى كل لحظة من الحياة يحيط بالإنسان المتمدين محددات لدوافعه. فإذا حدث وأحس بالسرور فيجب ألا يغنى أو يرقص فى الطريق، بينما إذا حدث أن أحس بالحزن ألا يجلس فى البهو باكياً حتى لا يعيق أقدام المارين. ففى صباه تكون حريته مقيدة فى المدرسة وفى حياته البالغة تكون مقيدة خلال ساعات العمل. ويجعل كل ذلك الاحتفاظ بمتعة التلذذ أمراً صعباً، فالتقييد المستمر يميل لإحداث الإجهاد والملل. ورغم ذلك، فمن المستحيل أن يوجد مجتمع متمدين دون درجة كبيرة من التقييد للدوافع التلقائية، حيث إن الدوافع التلقائية سوف تؤدي إلى أبسط صور التعاون الاجتماعى فحسب، وليست الطرز المعقدة جداً التى تتطلبها التنظيم الاقتصادى الحديث. ولكى يمكن الارتفاع فوق هذه العقبات التى تواجه القدرة على التلذذ يحتاج المرء إلى الصحة والطاقة فائقة التوافر أو بدلاً من ذلك إذا كان جيد الحظ، إلى عمل يجده مشيراً فى ذاته. فالصحة كما توضح الإحصاءات استمرت فى

التحسن فى كل الدول المتقدمة خلال المئة سنة الماضية ولكن الطاقة
فهى أصعب فى قياسها، وأنا لا أشك فى أن القوة البدنية فى أوقات
الصحة هى على نفس الدرجة العظيمة التى كانت عليها مثلاً.

والمشكلة هنا هى إلى حد كبير اجتماعية، وأنا لا أود مناقشتها
فى هذا الكتاب الحالى. ولكن للمشكلة رغم ذلك جوانب نفسية
ناقشناها بالفعل عندما تعرضنا لمناقشة الإعياء، فبعض الناس يحتفظون
بقدرتهم على التلذذ بالرغم من معوقات الحياة المتدنية، وكثير من
الأشخاص يفعلون ذلك إذا لم تكن بهم تناقضات نفسية داخلية يضع
عليها جزء كبير من الطاقة. فالتلذذ يتطلب طاقة أكبر من التى تكفى
للعمل الضرورى وهذا بدوره يتطلب أن تعمل الآلة النفسية بنعومة.
ولسوف أتحدث عن المسببات التى تزيد من نعومة هذا العمل فى
فصول لاحقة.

(١٦)

بالنسبة للنساء، فقد تقلصت لديهن القدرة على التلذذ بدرجة
كبيرة جداً نتيجة القصور الخاطئ لمعنى الوقار، رغم أن هذا يعد حالياً
أقل كثيراً عن ذى قبل، فقد كان يعتقد أنه من غير المرغوب فيه أن
تُظهر النساء أى اهتمام واضح بالرجال أو أن يُظهرن الكثير من المرح
فى الأماكن العامة. وعندما يتعلمن ألا يبدن اهتماماً بالرجال فهن
يتعلمن عادة ألا يبدن اهتماماً بشيء أو على أية حال بشيء سوى

طراز معين من السلوك الصحيح . وتعليم السلوك الخاص بعدم النشاط والانسحاب من مواجهة الحياة من الواضح أنه تعليمٌ أمرٍ شديد التعارض مع التلذذ، وتشجيعٌ لطراز معين من الانغماس فى الذات الذى يميز النساء شديداً الوقار خاصة إذا كن غير متعلمات . فليس لديهن الاهتمام بالرياضة الذى يديه الإنسان المتوسط، ولا تعنيهن السياسة فى قليل أو كثير ويتميز سلوكهن تجاه الرجال بالترفع المتكلف وتجاه النساء بالعداء المستتر الذى يقوم على الاعتقاد بأن الأخريات أقل منهن وقاراً . ويتباهين بأنهن يحتفظن بأنفسهن لأنفسهن أى أن افتقارهن إلى الاهتمام برفاقهن من المخلوقات يظهر لهن فى ضياء الفضيلة، لهذا بالطبع لا يجب لومهن، فهن يتقبلن فقط التعاليم الأخلاقية التى استمرت آلاف السنين فيما يتعلق بالنساء . وهن ضحايا - يستوجبن الرثاء - لنظام من القهر لم يدركن مدى ظلمه . فلمثل هاته النساء يبدو كل ما ليس بكريم طيباً وكل ما هو كريم شراً . ففى محيط مجتمعهم الخاص يفعلن كل ما بوسعهن لقتل السرور، وفى السياسة يعشن التشريعات القمعية .

لحسن الحظ يصبح هذا الطراز من النساء أقل شيوعاً باستمرار وإن كان لا يزال أكثر انتشاراً عما يعتقد أولئك الذين يعيشون فى أوساط متحررة . وأنا أوصى أى شخص يشك فى صحة هذه الجملة أن يأخذ جولة فى عدد من البيوت المعروضة للإيجار للبحث عن مأوى، وأن

يلاحظ مالكات هذه البيوت اللائى سيقابلهن خلال بحثه ؛ سيجد أنهن يعشن معتقدات فى امتياز الإناث ، وهو ما يشتمل كمكون رئيسى على تدمير كل تلذذ بالحياة، وسيجد أن عقولهن وقلوبهن قد تقزمت وتوقفت عن النمو نتيجة لذلك . والإدراك الأصح هو ألا فرق هناك بين امتياز الذكور وامتياز الإناث، أو على أية حال لا يوجد فرق على النحو الذى تقرره التقاليد، فالتلذذ هو سر السعادة وطيب العيش للرجال والنساء .

الفصل الثانى عشر

الحُب

(١)

أحد المسببات الرئيسية لانعدام القدرة على التلذذ هو إحساس المرء بأنه غير محبوب بينما على العكس يزيد إحساس المرء بأنه محبوب من قدرته على التلذذ أكثر من أى شئ آخر، وقد يكون لدى المرء الإحساس بأنه غير محبوب لأسباب عدة. فقد يعتقد فى نفسه أنه شخص فظيع لا يمكن لأحد أن يحبه، وربما كان عليه فى طفولته أن يعود نفسه على استقبال حب أقل من ذلك الذى يقع من نصيب غيره من الأطفال، أو ربما كان فى الحقيقة شخص لا يحبه أحد. ولكن حتى فى هذه الحالة الأخيرة ربما كان السبب يكمن فى الافتقار إلى الثقة بالنفس والذى يرجع إلى سوء الحظ المبكر. الشخص الذى يحس بأنه غير محبوب قد يقوم بسلوكيات متباينة نتيجة هذا الإحساس. فقد يقوم بجهود مستميتة للفوز بالحب، ربما بواسطة أعمال غير عادية من الإحسان، ومن المرجح جداً ألا يكون ناجحاً فى ذلك حيث إن دوافع

الإحسان يستشعرها بسهولة أولئك الذين هم هدف له، والطبيعة الإنسانية مبنية بكيفية تجعلها أكثر استعداداً لمنح الحب لمن هم أقل طلباً له. فالشخص الذى يسعى لشراء الحب بالأعمال الخيرة تتبدد أوهامه عندما يعرف مدى عقوق البشر، ولا يدور بخلفه على الإطلاق أن الحب الذى يحاول شراؤه أكبر كثيراً فى قيمته عن المنافع المادية التى يقدمها ثمنًا له. رغم ذلك فإن إحساسه بأن الأمر كذلك يشكل أساس سلوكياته .

وشخص آخر عندما يدرك أنه غير محبوب قد ينشد الانتقال من العالم سواء بإثارة الحروب أو الثورات أو بقلم يغمسه فى مداد المرارة مثلما فعل الأديب دين سويقت. ويعد ذلك رد فعل بطولى لسوء الحظ يتطلب قوة فى الشخصية تكون كافية لأن يضع الشخص نفسه ضد العالم بأسره. وقليل من الأشخاص يمكنهم الوصول إلى مثل هذه الذرى، أما الأغلب الأعم من كل من الرجال والنساء، إذا أحسوا أنهم غير محبوبين فإنهم يغرقون فى يأس مدعن لا تخففه سوى الومضات العارضة من الحسد والحقد. وكقاعدة، تصبح حياة مثل هؤلاء الناس شديدة التمرکز حول الذات ويعطيهم غياب الحب إحساساً بعدم الأمان يحاولون غريزياً أن يهربوا منه بالسماح للعادة أن تسيّد حياتهم تماماً، فالذين يجعلون من أنفسهم عبيداً للروتين الذى لا يتغير يحثهم بصفة عامة الخوف من العالم الخارجى البارد والإحساس بأنهم لن يصطدموا به إذا ما ساروا على نفس النهج الذى ساروا عليه فى الأيام السابقة.

(٢)

الذين يواجهون الحياة بإحساس الأمان هم أسعد من أولئك الذين يواجهونها بإحساس عدم الأمان، طالما كان إحساسهم بالأمان لا يؤدي بهم إلى كارثة. وفي كثير جداً من الحالات، وليس جميعها، قد يساعد الإحساس بالأمان الشخص على الهرب من الأخطار التي قد يستسلم لها غيره. فإذا كنت تسير فوق خندق على لوح ضيق، فمن المرجح جداً أن تسقط إذا أحسست بالخوف عما لو لم تفعل، فالرجل الذي لا يخاف قد تقابله بالطبع كارثة مفاجئة، ولكنه من الأرجح أن يمر بلا خدوش عبر كثير من المواقف من المواقف الصعبة التي تؤدي بالجبان إلى سوء المصير، وهذا النوع المفيد من الثقة بالنفس له بالطبع صور لا يمكن حصرها. فأحد الأشخاص يكون واثقاً من نفسه في الجبال، وآخر في البحر، وثالث في الهواء. ولكن الثقة في النفس في مواجهة الحياة عامة تتأتى أكثر من أى شيء آخر من اعتياد استقبال النوع الصحيح من الحب بالقدر الذي يكون المرء بحاجة إليه، وهذه العادة من عادات العقل والتي تعتبر مصدراً للتلذذ هي ما أرغب في الحديث عنه في الفصل الحالى.

(٣)

إن ما يسبب هذا الإحساس بالأمان هو الحب الذى يتم استقباله لا الذى يتم منحه، رغم أنه ينشأ أكثر من أى شيء آخر من الحب

الذى يكون متبادلاً. وعلى وجه التحديد، ليس للحب وحده هذا التأثير، ولكن الإعجاب أيضًا، فالناس الذين يكون شغلهم الشاغل هو تحقيق الإعجاب العام مثل الممثلين والوعاظ والخطباء والسياسيين يصلون إلى أن يصبحوا أكثر وأكثر اعتماداً على الثناء. فعندما يحصلون على مكافآتهم المستحقة من الاستحسان العام تمتلئ حياتهم بالتلذذ وعندما لا يحصلون عليها يصبحون ساخطين وذاتيين. والنوايا الطيبة المنتشرة فى كثرة من الناس توفر لهم ما توفره للآخرين من محبة هى الأكثر تركيزاً فى قلة من الناس. فالطفل الذى يكون أبواه شغوفين به يقبل حبهم كقانون طبيعى. هو لا يفكر كثيراً فيه رغم أنه ذو أهمية عظمى لسعادته. فهو يفكر فى العالم وفى المغامرات التى ستأتى فى طريقه عندما يكبر، ولكن وراء هذه الاهتمامات الخارجية يمكن إحساسه بأن حب أبويه سوف يحميه من الكوارث.

والطفل الذى يُسحب منه حب أبويه لأى سبب كان، من الأرجح أن يصبح جباناً وغير مغامر يملؤه الخوف والرثاء لحاله، ولا يصبح قادراً على مواجهة الحياة بمزاج مرح مستكشف. وقد يبدأ مثل هذا الطفل فى عمر مبكر فى التأمل بطريقة تثير الدهشة فى الحياة والموت وأقدار الإنسان ويصبح انطوائياً، متهوساً فى البداية، ولكنه فى النهاية ينشد السلوى الوهمية من بعض طرز الفلسفة أو التدين. فالعالم مكان مفعم بالأشياء المختلطة، يحتوى على أشياء ممتعة وأخرى غير ممتعة بسياق عشوائى، والرغبة فى استخلاص نظام أو شكل

منطقتى منه هى فى الأساس نتيجة للخوف وفى حقيقتها نوع من الأجورافوبيا أى الخوف من الوجود فى الأماكن المفتوحة. فبين الجدران الأربع لمكتبته يحس الطالب الجبان أنه آمن، فإذا أمكنه إقناع نفسه بأن الكون منظم بنفس الدرجة فسيحس بأنه سيكون آمناً بنفس الدرجة إذا ما غامر بالخروج إلى الشارع. مثل هذا الشخص، لو كان قد حصل على حب أكثر لكان خوفه من العالم الحقيقى أقل، ولم يكن عليه أن يخترع عالماً مثاليًا ليحل محل العالم الحقيقى فى مخيلته.

(٤)

وليس لجميع صور الحب مثل هذا الأثر فى تشجيع المغامرة، فالحب الذى يؤدى إلى ذلك يجب أن يكون قويًا وليس جبانًا، وأن يطلب الامتياز بدرجة أكبر حتى من الأمان فى جانب من يتجه إليه، رغم كونه بالطبع ليس لا مثاليًا بالأمان. فالأم أو المربية الجبابة التى تحذر الأطفال باستمرار من الكوارث التى قد تحدث، والتى تعتقد أن كل كلب سيعقر وأن كل بقرة ثور، قد تنتج فيهم جنبًا يعادل جنبها، وقد تسبب لهم الإحساس بأنهم ليسوا آمنين على الإطلاق إلا فى جوارها المباشر. فبالنسبة للأم المستحوذة بلا مبرر قد يكون مثل هذا الإحساس فى الطفل مرغوبًا، فقد ترغب فى اعتماده عليها أكثر من رغبتها فى أن يكون قادرًا على مجاراة العالم. وفى مثل هذه الحالة ربما يكون طفلها أسوأ حالاً فى المدى الطويل عما كان سيصبح عليه إذا لم يكن محبوبًا على الإطلاق.

وعادات العقل التى تتشكل فى السنوات المبكرة من الأرجح أنها ستواجه طوال العمر. فكثير من الناس عندما يقعون فى الحب إنما يبحثون عن ملجأ صغير يلجأون إليه بعيداً عن العالم يكونون فيه متأكدين من الإعجاب بهم حينما لا يكونون مستحقين الإعجاب وأنهم سيُمتدحون عندما يكونون لا يستحقون المديح. فالييت يمثل لكثير من الناس ملجأ من الحقيقة، فمخاوفهم وجبنهم هى التى تجعلهم يستمتعون بالرفقة التى تجعل هذه المشاعر هادئة، وهم ينشدون من زوجاتهم ما حصلوا عليه قبلاً من أم غير حكيمة ولكنهم يكونون مشدوهين إذا ما اعتبرتهم زوجاتهم أطفالاً كباراً.

(٥)

وتحديد أفضل طرز الحب ليس بالأمر السهل على الإطلاق، حيث من الواضح أنه سيحتوى على بعض عناصر الحماية فيه. فنحن نُبالى لما يجرح الذين نحبههم. وأنا أعتقد رغم ذلك أن الخوف من الكوارث على عكس التعاطف مع الكارثة التى حدثت بالفعل، يجب أن يلعب دوراً صغيراً ما أمكن فى مشاعر الحب. فالخوف على الآخرين هو أفضل قليلاً من الخوف على أنفسنا. وأكثر من ذلك، أنه من المعتاد جداً أن يكون تمويهاً للاستحواذ. ويكون من المأمول فيه عند إثارة مخاوف الآخرين الحصول على سلطة كاملة عليهم، وهذا بالطبع أحد أسباب حب الرجال للنساء الجبانات؛ لأنه

بحمايتهم يصلون إلى امتلاكهن . وكمية الجزع التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان ولا تكون مدمرة له تعتمد على شخصيته ، فالشخص الصلب المغامر يمكنه تحمل كثيرًا منه دونما تلف بينما الشخص الجبان يجب ألا يتوقع سوى القليل من ذلك ، والحب الذى يستقبل ، له وظيفة مزدوجة ، فقد تكلمنا عنه الآن بالنسبة لعلاقته بالأمان ولكن فى الحياة الناضجة يكون له غرض بيولوجى أكثر إلحاحًا وهو الأبوة . فعدم القدرة على الإحساس بالحب الجنسى يعد كارثة مروعة لأى رجل أو امرأة لأنه يحرمه أو يحرمها من أكبر المتع التى يمكن للحياة أن تقدمها . وهذا الحرمان من المؤكد تقريبًا أن يدمر القدرة على التلذذ عاجلاً أو آجلاً ويؤدى إلى قلب الداخل للخارج . وكثيراً جداً ما أدت المآسى السابقة التى حدثت فى مرحلة الطفولة إلى عيوب فى الشخصية تعد هى سبب الفشل فى الحصول على الحب فى السنوات اللاحقة ، وربما كان ذلك صحيحاً بدرجة أكبر بالنسبة للرجال عنه بالنسبة للنساء ، حيث إنه بصورة عامة تميل النساء لأن تحب الرجال لشخصيتهم بينما يميل الرجال لحب النساء لمظهرهن . وفى هذا الخصوص يجب القول بأن الرجال يظهرون أنفسهم أدنى من النساء لأن الصفات التى يجدها الرجال ممتعة فى النساء هى فى جملتها أقل تفضيلاً عن تلك التى تجدها النساء ممتعة فى الرجال . وأنا لست متأكداً على الإطلاق رغم ذلك من أن اكتساب الشخصية الجيدة أسهل من اكتساب المظهر الطيب ، وعلى أية حال ، فإن الخطوات الضرورية للأخير مفهومة بدرجة أفضل وأسهل فى نشدانها للنساء من الخطوات الضرورية للأول بالنسبة للرجال .

(١)

تحدثنا إلى الآن عن الحب الذى يكون الشخص موضوعاً له، وأرغب الآن فى الحديث عن الحب الذى يعطيه الإنسان، وهذا أيضاً ذو طرازين مختلفين، أحدهما ربما كان أكثر التعبيرات أهمية للاستمتاع بالحياة بينما الآخر فتعبير عن الخوف. الطراز الأول يبدو لى مثيراً للإعجاب كلية بينما الأخير فهو - فى أحسن الأحوال - يعد نوعاً من المواسة. فإن كنت تبصر فى سفينة فى يوم بديع على امتداد شواطئ جميلة، فأنت تعجب بالشاطئ وتحس بالسرور منه. هذا السرور يشق كلية من النظر إلى الخارج وليس له علاقة بأى حاجة ملحة تعتورك. فإذا تحطمت سفيتك وسبحت إلى الشاطئ فأنت تكتسب حباً من طراز جديد للشاطئ، فهو يمثل الأمان فى مواجهة الأمواج ويصبح مدى جماله أو قبحه أمراً غير مهم. وأفضل طراز من الحب يناظر إحساس الشخص الذى سفينه آمنة والطراز الأقل جودة يناظر ذلك الخاص بسباح السفينة المحطمة

الطراز الأول من طرازي الحب هذين يعد ممكناً فقط ما دام الشخص يحس بالأمان أو أن يكون لا مبالياً بمثل هذه المخاطر إذا ما أحدثت به.

والطراز الأخير هو على العكس يسببه الإحساس بعدم الأمان وهذا الإحساس أكثر ذاتية وتمحوراً حول الذات بكثير من الآخر حيث

إن الشخص المحبوب يتم تقديره نتيجة لخدمات قدمها وليس نتيجة لخصائص داخلية . وأنا لا أرغب فى أن أعنى أن هذا الطراز من الحب ليس له دور شرعى يلعبه فى الحياة . ففى الحقيقة يحتوى كل حب قريباً على شئ من الطرازين كليهما فى توفيقه ما ، وطالما كان الحب يداوى بالفعل الإحساس بعدم الأمان ، فإنه يحرر الإنسان ويجعله قادراً على الإحساس مرة أخرى بالاهتمام بالعالم وهو ما يتشوه فى لحظات الخطر والخوف . ولكن عند التعرف على الجزء الذى يلعبه مثل هذا الحب فى الحياة فيجب أن نؤكد على أنه أقل امتيازاً من الطراز الآخر لأنه يعتمد على الخوف والخوف شر . ولأنه أيضاً أكثر تمحوراً حول الذات ، ففى أفضل طرز الحب يأمل الشخص فى سعادة جديدة وليس فى الهرب من تعاسة قديمة .

(٧)

وأفضل طرز الحب هو الذى يتم فيه تبادل منح الحياة ، فكل طرز يستقبل الحب بفرحة ويمنحه بدون مجهود ، وكل طرز يجد الدنيا بكاملها أكثر تشويقاً نتيجة لوجود هذه السعادة المتبادلة . ويوجد رغم ذلك طراز آخر لا يعد غير شائع على الإطلاق وفيه يمتص الشخص حيوية الآخر ويستقبل ما يمنحه الآخر ولكنه لا يعطى شيئاً فى المقابل . وبعض الناس موفورى الحيوية يتمون إلى هذا الطراز مصاص الدماء ، فهم يستخلصون الحيوية من أحد الضحايا تلو الآخر ، وبينما هم يزدهرون ويصبحون مشوقين ، يصبح أولئك الذين يعيشون عليهم شاحبين واهين وبلداء . مثل هؤلاء الناس يستعملون الآخرين كوسائل

لغاياتهم الخاصة ولا يعدونهم أبدًا غايات في حد ذاتهم، وهم في الحقيقة لا يبالون بأولئك الذين يعتقدون للحظة أنهم يحبونهم، فهم يهتمون فقط فيما ينبه أنشطتهم الخاصة وربما بشكل غير شخصي بالمرّة، وينبع ذلك بوضوح من عيب ما في طبيعتهم ولكنه عيب ليس من السهل تشخيصه أو علاجه. وهذه تعد من الخصائص التي غالبًا ما ترتبط بالطموحات العظيمة، وجذورها يجب القول إنها تكمن في النظرة أحادية الجانب بلا داعي فيما يختص بمسببات السعادة الإنسانية.

(٨)

وبعد الحب بمدلول الاهتمام الحقيقي المتبادل لفردين أحدهما في الآخر، ليس كوسيلة لخير كل منهما فحسب، وإنما كتوليفة تشتمل على أمر طيب بصفة عامة، واحدًا من أهم عناصر السعادة الحقيقية. والشخص الذي تتحوصل ذاته داخل جدران فولاذية من المستحيل توسعتها يفقد بذلك أفضل ما يمكن للحياة أن تقدمه مهما كان ناجحًا في عمله. فالطموح الذي يستبعد الحب من مجاله الخاص هو بصفة عامة ناتج من نواتج طراز معين من الغضب أو الحقد على السلالة البشرية أنتجت التعاسة في الشباب والظلم في الحياة اللاحقة أو أى من المسببات التي تؤدي إلى هوس الاضطهاد. فالذات شديدة القوة عبارة عن سجن يجب على المرء أن يهرب منه إذا أراد أن يستمتع بالعالم استمتاعًا كاملاً والقدرة على الحب الحقيقي تعد من علامات الإنسان

الذى تحرر من سجن الذات، واستقبالك للحب ليس كافياً، فالحب الذى يستقبل يجب أن يحرر الحب الذى سيمنح وعندما يتواجد كلاهما بمعايير متساوية، هنا فقط يصل الحب إلى ما أسمى حالاته.

(٩)

والعقبات النفسية والاجتماعية التى تعيق ازدهار الحب المتبادل هى شرور مستطيرة عانى منها العالم ولا يزال. فالناس يتحسبون فى إظهار الإعجاب لخوفهم من أن يكون فى الموضع الخطأ، وهم يتحسبون فى منح الحب خوفاً من أن يعانون، سواءً من الشخص الذى يمنحونه هذا الحب، أو من العالم العذول. فالحذر أمر تحتّمه الأخلاق وتحتّمه الحكمة الحياتية، ونتيجة ذلك يتم تثييط الكرم والمغامرة فى الحب. ويميل كل ذلك إلى إحداث الجبن والغضب فى مواجهة البشر، حيث إن الكثيرين من الناس يفتقدون عبر الحياة ما يعد بحق حاجة أساسية، ويفقد تسع من كل عشرة من الناس وضعا لا يمكن الاستغناء عنه من السلوك السعيد المنتشر تجاه العالم. ولا يجب افتراض أن من يُطلق عليهم لا أخلاقيين يفوقون فى هذا الخصوص من ليسوا كذلك. فمن المعتاد جداً فى العلاقات الجنسية ألا يوجد ما يمكن أن يسمى بالحب الحقيقى، وليس من المستبعد وجود مشاعر عدوانية أساسية. فكلتا الطرفين يحاول ألا يمنح نفسه أو نفسها للآخر، وكلتا الطرفين يحاول الاحتفاظ بتفرده الأساسى، ويبقى كل طرف كاملاً، وبالتالي يصبح

غير مشمر. وفى مثل هذه الحالات لا توجد قيمة جوهرية، وأنا لا أقول إن مثل هذه الحالات يجب تجنبها بعناية، حيث إن الخطرات الضرورية لهذه النهاية من المرجح أن تتداخل أيضاً مع المناسبات التى يمكن أن ينمو فيها حب أكثر قيمة وعمقا. ولكن أقول إن العلاقات الجنسية الوحيدة التى لها قيمة حقيقية هى تلك التى ليس فيها تكتم، والتى تندمج فيها شخصية كل من الطرفين فى شخصية جديدة جامعة. ومن بين كل طرز الحذر، ربما كان الحذر فى الحب هو الأشد فتكاً بالسعادة الحقيقية.

الفصل الثالث عشر

الأسرة

(1)

من بين كل المؤسسات التى آلت إلينا من الماضى لم تتشتت أو تحيد عن طريقها مؤسسة كالأسرة، فحب الوالدين لأبنائهما وحب الأبناء لوالديهم بمقدوره أن يكون واحداً من أعظم مصادر السعادة، ولكن فى الحقيقة علاقات الوالدين بالأبناء تعد مصدراً للتعاسة فى تسع حالات من كل عشر لكلا الطرفين، وفى تسع وتسعين حالة من كل مائة لأحد الطرفين على الأقل. هذا الفشل للأسرة فى توفير الإشباع الأساسى الذى من المفروض أنها قادرة على توفيره يعتبر من أعمق مسببات السخط المنتشر فى عصرنا هذا، فالفرد البالغ الذى يود أن تكون له علاقة طيبة بأبنائه أو أن يوفر لهم حياة سعيدة، يجب أن يتعمق فى التفكير فى معنى الأبوة، وبعد هذا التفكير يجب أن يسلك سلوكاً حكيمًا. وموضوع الأسرة أكبر كثيراً من أن نتناوله فى هذا الكتاب إلا فى حدود علاقته بمشكلتنا الخاصة ألا وهى «انتصار

السعادة». وحتى فى حدود علاقته بهذه المشكلة لا نستطيع أن نتناوله إلا فى حدود ضيقة جداً لأن مسببات التعاسة الأسرية فى هذا الزمن تعد شديدة التنوع نفسياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. فقيما يختص بالقطاع المتيسر من المجتمع، يترافق مسببات يجعلان النساء يشعرون بأن أمومتهم أصبحت عبئاً أثقل كثيراً عما كان عليه فى أى وقت مضى. هذان المسببان أحدهما فتح مجال العمل أمام المرأة والثانى هو انقراض الخدمة المنزلية. وفى الأيام القديمة كانت الأوضاع التى لا يمكن احتماؤها للمرأة العانس هى التى تدفع بالنساء إلى الزواج. فالعانس كان عليها أن تعيش فى المنزل فى تبعية اقتصادية فى البداية على أبيها ثم على شقيق غير متحمس، ولم يكن لديها أية مهنة تملأ أيامها ولا أية حرية لتمتع نفسها خارج الجدران التى تؤويها بمنزل الأسرة. لم تكن لديها الفرصة ولا الرغبة فى المغامرة الجنسية التى كانت تعتقد أنها أمراً منكراً فيما عدا فى إطار الزوجية. فإذا فقدت رغم كل الاحتياطات عفتها عبر حيلة أحد فاتها، فإن حالها كان مما يرثى له إلى أقصى درجة. وقد تم تصوير هذه الحالة بدقة بالغة فى رواية «كاهن واكفيلد»:

كان همها الوحيد هو أن تستر ذنبها
وأن تخفى عارها عن كل عين
وإن يوبتها عن حبیبها
واعترضها لفؤاده... هو بأن تموت.

(٢)

والعانس المحدثة لا تعتبر الموت ضرورياً فى مثل هذه الظروف . فإذا كانت ذات تعليم جيد فلن تكون هناك صعوبة فى أن توفر لنفسها معيشة مريحة ، وتكون بذلك قد أصبحت مستقلة عن موافقة الوالدين . ومنذ أن فقد الوالدان السلطة الاقتصادية على بناتها أصبحت أكثر حذراً فى التعبير عن عدم الرضا عن أخلاقهن . فلا فائدة هناك من تعنيف شخص لن يبقى أمامك لكى تعنفه . والمرأة الشابة غير المتزوجة من الطبقة المهنية تستطيع فى هذه الأيام أن تستمتع بحياة مرضية تماماً طالما كان بمقدورها أن تتحرر من الرغبة فى أن يكون لديها أطفال شريطة ألا تكون دون المتوسط فى الذكاء والمظهر . ولكن إذا غمرتها هذه الرغبة تكون مرغمة على الزواج وتكون مرغمة تقريباً على ترك عملها وتغرق بذلك إلى مستوى أدنى من الراحة عن ذلك الذى اعتادته لأن دخل زوجها من المرجح جداً ألا يكون أكبر من ذلك الذى كانت تكسبه ويكون عليها توفير الحياة لأسرة بدلاً من امرأة واحدة . وبعد أن كانت مستمتعة بالاستقلال تجد أنه من المرير بالنسبة لها أن تلجأ إلى غيرها لتحصل على كل قرش من النفقات الضرورية . لكل هذه الأسباب تتردد مثل هاته النساء فى الدخول إلى عالم الأمومة .

(٣)

والمرأة التى تجازف - رغم ذلك - تجد نفسها بالمقارنة بنساء الأجيال السابقة تواجه مشكلة جديدة مرعبة وهى ندرة وسوء الخدمة المنزلية، ونتيجة لذلك تصبح مقيدة بمنزلها مرغمة على أن تؤدى بنفسها الآلاف من المهام التافهة التى لا تستحق رقدراتها أو تدريبها، ولكنها إذا لم تؤديها بنفسها فستدمر مزاجها بتعنيف الشغالات اللاتى يقمن بها. فيما يختص بالرعاية البدنية لأطفالها، إذا كان فوق طاقتها أن تصل إلى الإدراك الجيد لمثل هذه الأمور فإنها تجد أنه من المستحيل دون المجازفة الشديدة بوقوع كارثة أن تأتمن المربيات على الأطفال أو حتى أن تترك للآخرين أبسط الاحتياطات المتعلقة بالنظافة والصحة، إلا إذا كان بمقدورها الاستعانة بمربية تدرت تدريباً مكلفاً فى بعض المعاهد. وعندما تثقلها أعباء التفاصيل الصغيرة على هذا النحو فإنها تكون محظوظة فعلاً إذا لم تفقد وبسرعة كل جاذبيتها وثلاثة أرباع ذكائها. ومن الشائع جداً أن تصبح مثل هاته النساء - نتيجة محض أداء الواجبات الضرورية - متعبات لأزواجهن ومصدر إزعاج لأطفالهن. وعند حلول المساء وعودة زوجها من عمله تكون المرأة التى تتحدث عن مشاكلها اليومية مملّة، والمرأة التى لا تفعل تكون تائهة العقل. وبالنسبة لأطفالها، تكون التضحيات التى قامت بها من أجل الحصول عليهم حاضرة فى عقلها لدرجة أنها من المؤكد أن تطلب مكافأة أكبر من المرغوب أن تتوقعه، بينما العادة المستمرة فى عنايتها

بالتفاصيل الصغيرة تجعلها نكدة وضيقة الأفق، ويعد هذا أخبث أنواع الظلم التى عليها أن تعانيه، فبأدائها لواجبها تجاه أسرتها تفقد حُبهم، بينما إذا كانت قد أهملت أداء واجبها وظلت مرحة وفاتنة فلربما كانوا سيحبونها (★) .

(٤)

هذه المتاعب هى فى الأساس اقتصادية، وكذلك أيضًا مشكلة أخرى سيئة بنفس الدرجة، وأقصدها بالصعوبات الخاصة بالإسكان والنتيجة عن تركيز البشر فى المدن الكبيرة. ففي العصور الوسطى كانت المدن ريفًا على الصورة التى عليها الريف الآن. فلا يزال الأطفال يغنون نشيد الحضانة:

عند برج بول تقف الشجرة
ملينة بالتفاح كما يكون الامتلاء
والصبيّة الصغار لمدينة لندن
هرعوا بالعصى لإسقاطه

(★) عرّجت هذه المشكلة بالكامل من ناحية أثرها على الطبقات المهنية بعمق متميز وبناءً فى كتاب « الانسحاب من الأبوة » للكاتبة جين إيلنج . (المؤلف) .

ثم هُرعوا من سياج إلى سياج
حتى وصلوا إلى جسر لندن.

وقد اختفى برج بول ، ولست أدري تاريخ اختفاء الأسبجة التي كانت بين كنيسة سان بول وجسر لندن. ولقد مر الكثير من القرون على الوقت الذى كان فى استطاعة صبية لندن الصغار أن يستمتعوا بمثل هذه المسرات التى يشير إليها النشيد. ولكن إلى زمن ليس ببعيد جداً، كان معظم السكان يعيشون فى الريف ولم تكن المدن شديدة الاتساع، وكان من السهل الخروج منها، ولم يكن من غير الشائع أن تجد حدائق متصلة بكثير من المنازل بها. أما الآن فيوجد فى إنجلترا أكثرية ساحقة من السكان الحضريين بالمقابلة بالريفيين. وفى أمريكا لا تزال مثل هذه الأكثرية ضئيلة ولكنها تتزايد بمعدل سريع جداً.

والمدن مثل لندن ونيويورك ضخمة جداً لدرجة أن الوقت اللازم لمغادرة أى منهما طويل جداً. والذين يعيشون فى المدن يجب عليهم عادة أن يقنعوا بشقة لا ترتبط بها بوصفة مربعة من الأرض، ويجب فيها أن يَقْتَنعَ الناس ذوو الدخول المتوسطة بالحد الأدنى المطلق من الفراغ. فإذا كانوا أطفالاً صغاراً تكون الحياة فى شقة أمراً صعباً، فلا مكان هناك ليلعبوا فيه، ولا مكان ليلجأ إليه الوالدان من الضجة التى يثيرها الأطفال. وبالتبعية يميل المهنيون أكثر إلى الإقامة فى الأحياء، ويعد ذلك مرغوباً من غير شك من وجهة نظر الأطفال، ولكنه يضيف كثيراً إلى الإعياء فى حياة الرجل ويقلل كثيراً من الدور الذى يمكن أن يلعبه

فى الأسرة . . ولىس قصى هنا مناقشة مثل هذه المشكلاا الاقاصاءى الكبىرة؁ لأنها تقع خارج المشكلاا اللى نحن بصءءها وهى؁ ما الذى يمكن الفرد أن فعله هنا والآن لىءء السعاة .

وقء اقءربنا من هذه المشكلاا أكثر عىء مرورنا على الصعوباء النفسىة اللى ءوءء ءالىا فى علاقاء الوالءىن بالأطفال وهى فى الءقىقة جزء من المشكلاا اللى نءمء عن الءىمقراطىة . ففى الأزماى القءىمة كان هناك الساءة والعىىء؁ وكان الساءة هم الذىن يءءءون ما يجب عمله؁ وكانوا بصفة عامة يءبون عىءهم؁ ءىء إن عىءهم هم ءءام سعاةءهم؁ وربما كان العىىء يءرهون ساءءهم رغم أن ذلك لم يءءو بالعمومىة اللى ءعلءنا النظرىة الءىمقراطىة نعتقءها . ولكن ءىى إذا كانوا يءرهون ساءءهم؁ فلم يكن ساءءهم يعلمون بهذه الءقىقة وكان الساءة على أى ءال سعاء . وبالقبول العام للنظرىة الءىمقراطىة ءغير ذلك كله؁ فالعىىء الذىن كانوا مءعنىن سابقا امتنعوا عن الإءعان والساءة الذىن كانوا لا يعءورهم الشك فى ءقوقهم قبالا أصبءوا مرءءىن وءىر مءاكءىن؁ ونشا الاءءكاك وأءى إلى ءالعاسة فى كلا الجانبىن؁ وأنا لا أقول ذلك كله كءءل ضء الءىمقراطىة؁ لأن المشاكل اللى نحن بصءءها لا مفر من وقوعها فى أى ءءول مهم؁ ولكن من ءىر المءءى ءض النظر عن ءقىقة أنه رغم أن هذا ءءول ىءءم؁ إلا أنه يءعل العالم أقل ارءىاءا .

(٥)

والتغير فى العلاقة بين الوالدين والأبناء يعد مثلاً مميّزاً للانتشار العام للديمقراطية، فلم يعد الآباء واثقين من حقوقهم تجاه أبنائهم، ولم يعد الأبناء يحسون أنهم مدينون بالاحترام للوالدين، وفضيلة الطاعة التى كانت تؤدى من قبل دون سؤال أصبحت غير مناسبة للعصر، وذلك صحيح. ولقد أفرع التحليل الوالدين المتعلمين خوفاً من الضرر الذى يمكن أن يحدثه دون دراية لأبنائهم. فإذا قاما بتقبيلهم فربما أوجدوا عقدة أوديب، وإذا لم يفعلوا فقد يحدثوا سخط الغيرة. وإذا أمروا الأبناء بفعل أمور معينة فقد يؤديان بذلك إلى نشأة الإحساس بالإثم، وإذا لم يفعلوا يكتسب الأبناء عادات يعتقد الوالدان أنها غير مرغوبة. فعندما يمتص طفلهم إبهامه يستخلصون من ذلك كل الاستنتاجات المخيفة ويقعان فى حيرة شديدة فيما يتعلق بكيفية إيقافه عن فعل ذلك. والأبوة التى كان من المعتاد أن تكون ممارسة منتصرة للسلطة أصبحت جبانة قلقه، وملينة بالشكوك الواعية، فالمتع القديمة البسيطة ضاعت. ويتضح ذلك بالذات نتيجة أنه نظراً للحرية الجديدة للنساء غير المتزوجات تضطر الأم للتضحية أكثر كثيراً عن ذى قبل عندما تفكر فى الأمومة. فى مثل هذه الأحوال تطلب الأمهات ذوات الضمائر الحية القليل جداً من أبنائهن، بينما تطلب الأمهات عديمات الضمير الكثير جداً. فالأمهات ذوات الضمائر يكبحن عواطفهن الطبيعية ويصبحن خجولات، بينما الأمهات عديمات الضمير فيشندن

من أطفالهن تعويضاً عن المتع التى عليهن الإفلاع عنها. ففى حالة يتم تجويع عواطف الطفل، وفى الأخرى يتم تنبيهها أكثر من اللازم، ولا تتوافر فى أى من الحالتين أية صورة من صور السعادة البسيطة الطبيعية التى من الممكن للأسرة أن توفرها وهى فى أفضل حالاتها.

(٦)

فى ضوء كل هذه المتاعب، هل يعد مستغرباً أن ينخفض معدل المواليد؟ لقد وصل انخفاض معدل المواليد فى الأمة بأسرها، إلى نقطة تشير إلى أن الأمة فى سبيلها إلى الانقراض قريباً. وإن كانت هذه النقطة قد تم تجاوزها منذ زمن بعيد بالنسبة للطبقات المسورة، ليس فى دولة واحدة فحسب، إنما فى كل الدول الشديدة التمدن تقريباً. ولا توجد الكثير من الإحصاءات المتاحة عن معدل المواليد بين المسورين مادياً، ولكن من الممكن الاستشهاد بحقيقتين من كتاب «چين إيلن» المشار إليه، فيبدو أن خصوبة النساء العاملات فى استوكهلم بين الأعوام ١٩١٩ إلى ١٩٢٢ كانت الثلث فقط من تلك الخاصة بالمجتمع بأسره، وأنه بالنسبة للأربعة آلاف خريج لكلية «ولسلى» بالولايات المتحدة الأمريكية، ففى الفترة ١٨٩٦ - ١٩١٣ كان العدد الكلى للأطفال ثلاثة آلاف، بينما اللازم لمنع التضائل الفعلى للسلسلة هو ثمانية آلاف طفل، لا يموت أحدهم صغيراً. وما من شك فى أن المدنية التى أنتجت السلاسل البيضاء لها هذه الخاصة

المميزة، وهى أن الرجال والنساء يصيبهم العقم بنفس درجة امتصاصهم للمدنية. فالأكثر تمدناً هو الأكثر عقماً، والأقل تمدناً هو الأعلى خصوبة، وبين الاثنين توجد تدرجات مستمرة. وحالياً، تضمحل أكثر القطاعات ذكاءً فى الدول الغربية، وخلال القليل من السنوات، فسوف تتضاءل الأمم الغربية كلها فى العدد، فيما عدا المدد الذى سيأتيها عبر الهجرة من المناطق الأقل تمدناً. وما أن يكتسب المهاجرون التمدن المميز للدولة التى تتبناهم، فسيصبحون بالتبعية عقيمين نسبياً. وإنه لمن الواضح ألا تكون المدنية التى لها هذه الخاصية مستقرة، وما لم يتم حثها على التكاثر العدى فستضمحل، إن عاجلاً أم آجلاً، وتترك المكان لمدينة أخرى يكون فيها حافز الأبوة لا يزال محتفظاً بقوة كافية تمنع الأمة من الاضمحلال.

(٧)

ويحاول الأخلاقيون الرسميون فى كل دولة من الدول الغربية معالجة هذه المشكلة عن طريق الوسائل التحذيرية والعاطفية. فمن ناحية يقولون إنه من واجب اثنين متزوجين أن يكون لهما من الأطفال العدد الذى يشاءه الله دوغما النظر إلى الفرصة التى ستكون لهذا الطفل من الصحة والسعادة. ومن الناحية الأخرى يعشق رجال اللاهوت الشرثرة عن المتع المقدسة للأمم، زاعمين أن الأسر الكبيرة من الأطفال المرضى والفقراء تعد من مصادر السعادة. وتنضم الدولة إلى

ذلك بزعمها أن المحصول الوفير من عليق المدافع يعد ضرورياً، وإلا فكيف ستعمل بكفاءة كل هذه الأسلحة الرائعة والعبقرية فى إحداث الدمار ما لم تكن هناك أمم كافية لتدميرها؟

ومن الغريب أن الشخص الذى يكون والدًا حتى لو قبل هذه المزاعم على أنها تنطبق على الآخرين، يصم أذنيه تمامًا عن أنها قد تنطبق عليه أيضا. وسيكولوجية اللاهوتيين الوطنيين مخطئة. فقد ينجح اللاهوتيون طالما كانوا ناجحين فى التهديد بنيران الجحيم، ولكن حاليًا لا يأخذ مثل هذا التهديد بجدية سوى أقلية من الناس. ولا يكفى أى تهديد أقل من ذلك لضبط السلوك فى أمر خاص جدًا مثل ذلك. وفيما يختص بالدولة، فمزاعمها شديدة الشراسة. فقد يوافق الناس على أن يكون الآخرون هم عليق المدافع، ولكن لا يجذبهم منظر استخدام أبنائهم على هذا النحو. وكل ما يمكن للدولة عمله إذن، هو أن تسعى للإبقاء على الفقراء فى جهالة، وهو مجهود غير ناجح فى حد ذاته، كما توضح الإحصاءات، إلا فى أكثر الدول الغربية تخلفًا. فقليل جدًا من الرجال أو النساء يقبلون أن يكون لديهم أطفال نتيجة الإحساس بالواجب القومى، حتى لو كان وجود مثل هذا الواجب القومى أوضح كثيرًا مما هو عليه، فعندما يرزق الرجال والنساء بالأطفال، فإنهم يفعلون ذلك إما لأنهم يؤمنون بأن الأطفال سوف يضيفون إلى سعادتهم، أو لأنهم لا يعرفون كيف يمنعون مجيئهم. والسبب الأخير لا يزال يعمل بقوة كبيرة، وإن كانت قوته

تضمحل بثبات. وليس بوسع الدولة ولا الكنيسة عمل شئ بهذا الخصوص يمكن عن طريقه منع هذا الاضمحلال من الاستمرار. فمن الضروري إذن إذا أرادت السلالات البيضاء البقاء أن تصبح الوالدية مرة أخرى قادرة على إنتاج السعادة للوالدين.

(٨)

عندما ينظر المرء إلى الطبيعة الإنسانية بعيداً عن ملاسبات الزمن الحالى، اعتقد أنه من الواضح أن الوالدية قادرة نفسياً على توفير أعظم وأكثر الطرز بقاءً من السعادة التى يمكن للحياة تقديمها. وهذا بلا شك أكثر صدقاً بالنسبة للنساء عن الرجال، ولكنه صحيح أيضاً بالنسبة للرجال عما يفترضه أغلب المحدثين. فقد كان ذلك أمراً مسلماً به فى كل الأدب السابق لعصرنا الحالى تقريباً. فقد اهتمت **حجوية** (*) بأبنائها أكثر من اهتمامها ببريام، كما كان ماك دف أشد اهتماماً بأبنائه من زوجته. وفى التوراة كان كل من الرجال والنساء شديدي الاهتمام بترك نسل، وقد استمر هذا السلوك فى الصين واليابان إلى وقتنا هذا. سيقال إن هذه الرغبة ترجع إلى عبادة الأسلاف، وأعتقد رغم ذلك أن العكس هو الصحيح، أى أن عبادة الأسلاف هى انعكاس للاهتمام الذى يبيده الناس فى بقاء أسرهم. ونعود إلى النسوة العاملات اللاتى تعرضنا لهن منذ لحظة. فمن الواضح أن الدافع لإنجاب الأطفال لا بد

(*) **حجوية** هى زوجة بريام آخر مملوك طروادة الذى حكم خلال حصارها، وقُتل عند فتح المدينة وأبناؤها هم هكتور وإبريس وكاسندرا (المترجم) .

وأنة شديد القوة، حيث إنه إذا لم يكن كذلك، فلن تقوم واحدة منهم بالتضحية المطلوبة لكي ترضى هذا الدافع. وبالنسبة لى شخصياً، كانت سعادة الأبوة أعظم من أى سعادة أخرى عرفتها.

وأعتقد أن الظروف عندما تؤدي بالرجال والنساء إلى الاستغناء عن هذه السعادة، فستظل إحدى الحاجات الضرورية غير مشبعة، وسيُنتج ذلك السخط وتور الهمة، ويبقى السبب فيهما غير معروف. ولكي تكون سعيداً فى هذه الدنيا، وخاصة عندما ينقضى الشباب، فمن الضروري أن يحس المرء أنه ليس فرداً منعزلاً سوف ينقضى عمره سريعاً، ولكن أن يحس بأنه جزء من تيار الحياة الذى يتدفق من الجرثومة الأولى إلى المستقبل البعيد غير المعلوم. ويشتمل ذلك بلا شك على نظرة شديدة التمدين والعقلانية، كعاطفة قوية يتم التعبير عنها بمدلولات ثابتة. ولكن التعبير عنها كعاطفة غريزية مبهمة يعد بدائياً وطبيعياً، وغياب ذلك هو الذى يعد شديد التمدين. وقد يتمكن الشخص الذى بمقدوره القيام ببعض الإنجازات العظيمة والفائقة التى ترك طابعها على العصور المستقبلية إشباع هذه الرغبة من خلال عمله، ولكن بالنسبة للرجال والنساء الذين لا يملكون موهبة استثنائية، يكون الطريق الوحيد لإشباع هذه الرغبة هو الأبناء. والذين سمحوا لدوافعهم الباعثة على التناسل أن تنقرض، يكونون بذلك قد فصلوا أنفسهم عن تيار الحياة، ويجازفون بفعلهم هذا مجازفة خطيرة فى أن تجف فروعهم، ويضع الموت بالنسبة لهم نهاية لكل شىء ما لم يكونوا

لا ذاتين بصورة غير عادية . فالعالم الذى سيأتى بعدهم لا يهتمهم فى شيء ، ولهذا تبدو لهم أعمالهم تافهة وغير مهمة .

أما بالنسبة للرجل أو المرأة الذى يكون له أو لها أبناء وأحفاد يحبهم وتحبهم حباً طبيعياً ، يكون المستقبل مهماً على الأقل فى حدود حياتهم ليس فقط من خلال المدلول الأخلاقى أو نتيجة جهود التخيل وإنما بشكل طبيعى وغريزى ، والشخص الذى تمتد اهتماماته إلى هذا المدى وراء حياته الشخصية من المرجح أن يستطيع أن يجعلها تمتد أكثر . وسوف يستقى الرضا ، كسيدنا إبراهيم ، من أن نسله سوف يرث الأرض الموعودة حتى وإن لم يحدث ذلك لعدد كبير من الأجيال ، وينقذه هذا الإحساس من الشعور بعدم الجدوى وهو الذى سيميت كل عواطفه .

(٩)

أساس الأسرة يكمن بالطبع فى حقيقة أن الوالدين يحسان بطراز خاص من الحب تجاه أبنائهما يختلف عن ذلك الذى يحسانه تجاه أحدهما الآخر أو تجاه الغير من الأطفال . فصحيح أن بعض الآباء والأمهات يحسون بقليل من الحب الأبوى أو لا يحسونه بالمرّة ، وصحيح أيضاً أن بعض النساء بمقدورهن الإحساس بالحب تجاه أطفال ليسوا أبنائهن ويكون بنفس القوة التى كانوا سيحسونها تجاه أبنائهن . ورغم ذلك ، تبقى الحقيقة العريضة وهى أن الحب الأبوى هو

طراز خاص من الإحساس يحسه الشخص الطبيعي تجاه «أبنائه أو أبنائها وليس تجاه أى إنسان آخر. ولقد ورثنا هذه العاطفة عن أسلافنا من الحيوانات وفى هذا الخصوص لم يكن فرويد فيما يبدو لى بيولوجيًا بدرجة كافية فى نظريته، لأن أى فرد يراقب إحدى أمهات الحيوانات مع صغارها يمكنه أن يلاحظ أن سلوكها تجاههم يأخذ شكلاً مختلفاً تماماً عن سلوكها تجاه الذكر الذى لها معه علاقات جنسية. هذا الشكل نفسه المختلف والغريزى يوجد بين البشر وإن كان بصورة متحورة وأقل تحديداً. ولولا هذه العاطفة الخاصة لما كان هنالك ما يمكن قوله عن الأسرة كإحدى المؤسسات لأن الأطفال من الممكن تركهم لرعاية المحترفين بنفس الدرجة.

وكما هو عليه الحال، فإن الحب الخاص الذى يمكنه الوالدان لأبنائهما، شريطة ألا تكون غرائزهم مختزلة، له قيمة لكل من الوالدين والأبناء. فقيمة حب الوالدين لأبنائهما تكمن بدرجة كبيرة فى حقيقة أنها يمكن الاعتماد عليها أكثر من أى حب آخر. فأصدقاء المرء يحبونه لمزاياه الخاصة، وعاشقوه يحبونه لفتنته الخاصة، فإذا تقلصت المزايا أو الفتنة فقد يختفى الأصدقاء والأحباء. ولكن فى مثل هذه الأوقات السيئة يكون الوالدين هما من يمكن الاعتماد عليه فى المرض وحتى فى العار إذا كان الوالدان من الطراز الصحيح. فجميعنا يحس بالبهجة عند إعجاب الآخرين بمزاينا ولكن أغلبنا متواضع فى قلبه بدرجة كافية ليشعر بأن مثل هذا الإعجاب مزعزع. الوالدان

يحبوننا لأننا أبناءهما، وهذه حقيقة غير قابلة للتبدل بحيث إننا نحس بالأمان معهما أكثر من أى شخص آخر. قد يبدو ذلك عديم الأهمية فى أوقات النجاح، ولكنه فى أوقات الفشل يوفر المواساة والأمان اللذين لا يمكن أن يوجدوا فى أى مكان آخر.

(١٠)

فى كل العلاقات الإنسانية من السهل جداً تحقيق السعادة لطرف واحد ولكن من الأكثر صعوبة أن تتوافر السعادة للطرفين كليهما. فالسَّجان قد ينعم بحراسته للسجين وصاحب العمل قد يتمتع ضرب الموظف على جبهته والحاكم قد يستمتع بأن يحكم رعاياه بقبضة حازمة، والأب الرجعى يستمتع بلا شك فى أن يغرس الفضيلة فى ابنه مستعيناً بالعصى. وما تلك سوى متع وحيدة الجانب، فالطرف الآخر من العلاقة يكون الموقف بالنسبة له أقل قبولاً. وقد أصبحنا ندرك أن هناك شيئاً غير مُرضٍ فى تلك المسرات وحيدة الجانب. فنحن نعتقد أن العلاقة الإنسانية الجيدة يجب أن تكون مرضية لكلا الطرفين، وينطبق ذلك فعلياً بدرجة كبيرة على العلاقات بين الوالدين وأبنائهما بحيث تكون النتيجة أن يحصل الوالدان على متعة أقل كثيراً من وجود الأبناء عما كانوا يفعلون سابقاً بينما يعانى الأبناء بالتالى بدرجة أقل على أيدى والديهم عما كان يحدث فى الأجيال السابقة. ولا أعتقد أن هناك سبباً حقيقياً فى أن يحصل الوالدان على سعادة أقل من

أبنائهما عما كانوا يفعلون فى الأزمان السابقة رغم أن ذلك بلا شك هو الوضع الحالى . ولا أعتقد أيضا أن هناك أى سبب فى أن يفشل الوالدان فى زيادة سعادة أبنائهما ولكن ذلك يتطلب كما تتطلب - كل العلاقات المتعادلة التى يهدف إليها العالم الحديث - ذوقًا خاصًا ورقة خاصة واحترامًا خاصًا للشخصيات الأخرى ، وهو ما لا تشجع عليه إطلاقًا مشاكسات الحياة العادية .

ولنتظر إلى سعادة الأبوة فى البداية من مدلولها الحيوى ثم فيما ستصبح عليه فى والد يحثه مثل هذا السلوك تجاه غيره من الشخصيات وهو ما اعتبرناه ضروريًا فى عالم يؤمن بالمساواة . الجذور البدائية لمسرات الأبوة ذات شقين ، ففى جانب يوجد الإحساس بأن جزءًا من جسم الفرد قد امتد خارجًا وأنه سيظل عمره بعد موت باقى الجسم وربما سيتمد خارجًا بدوره جزءًا منه بنفس الطريقة وبالتالى يتوفر الخلود للسلالة . وفى الجانب الآخر يكون هناك امتزاج حميم للقوة مع الرقة ، فالمخلوق الجديد يكون بلا حول ولا قوة ويكون هناك الدافع لمنحه ما يحتاجه ويرضى هذا الدافع ليس حب الأب للطفل فحسب ، بل رغبة الأب فى السلطة أيضًا . فطالما ظل الإحساس أن الطفل لا حول له ولا قوة لا يكون الحب الذى يتم منحه له متصفًا بعدم الأنانية لأنه فى طبيعته حماية للأجزاء الضعيفة من الذات . ولكن يحدث التناقض بين حب السلطة الأبوى والرغبة فى مصلحة الطفل منذ مرحلة مبكرة من عمر الطفل ، فرغم أن السلطة على الطفل هى إلى

حد معين أمر تمليه طبيعة الأشياء، إلا أنه من المرغوب فيه أن يتعلم الطفل بالسرعة الممكنة كيف يكون مستقلاً في كثير من الأمور ما أمكن ذلك، وهو ما لا يسر باعث السلطة في الوالد. ومعظم الآباء لا يدركون هذا التناقض ويظلون على طغيانهم إلى أن يصبح الأبناء في موقف التمرد ورغم ذلك فقد يدرك آخرون ذلك ويجدون أنفسهم بالتالي فريسة للعواطف المتناقضة وتضيق في هذا التناقض سعادتهم الأبوية. فبعد كل الرعاية التي منحها للابن يجد ان - لكمدهما - أنه قد أصبح مخلقاً تماماً عما كان يأملان، فقد كانا يودان أن يكون جندياً فيجد ان أنه قد أصبح مسالماً كارهاً للحرب أو مثل حالة تولستوى، كانا يودان أن يكون مسالماً فإذا به يلتحق بجماعة المئات السود وهما لا يحسان بالصعوبة في مثل هذه التطورات الأخيرة فحسب، فأنت إن أطعمت طفلاً بمقدوره أن يطعم نفسه فأنت بذلك تفضل حب السلطة على خير الطفل، رغم ما قد يبدو لك من أنك كنت رقيقاً لتوفير المشقة عنه. وإذا جعلته يدرك بوضوح الأخطار المحدقة به فقد تكون مدفوعاً لذلك برغبتك في أن يظل معتمداً عليك. وإذا منحته حباً واضحاً تتوقع له استجابة فأنت بذلك تحاول أن تثبت به عن طريق عواطفه.

ويؤدي الدافع الاستحواذى عبر آلاف الطرق الكبيرة والصغيرة بالوالدين إلى الضياع إلا إذا كانا شديدي اليقظة أو أنقياء القلب جداً. فالوالدين المحدثين نتيجة إدراكهما لهذه المخاطر يفقدان الثقة أحياناً عند

التعامل مع أبنائهما ويصبحان أقل قدرة حتى فى أن يكونا نافعين لهما عما لو كانا قد سمحا بوقوع بعض الأخطاء التلقائية، حيث إنه لا شىء يسبب القلق الكبير فى عقل كانعدام التأكد والثقة فى النفس فى جانب أحد البالغين. الأفضل من أن تكون حريصاً هو بالتالى أن تكون نقياً فى قلبك. فالوالد الذى يرغب حقاً فى خير الطفل أكثر من رغبته فى سلطته أو سلطتها عليه لا يحتاج إلى كتب فى التحليل النفسى كى تقول له ما يجب وما لا يجب فعله، ولكن سوف يرشده دافعه إلى الطريق القويم. وفى هذه الحالة تكون علاقة الوالدين بالطفل متناغمة من البداية للنهاية ولا تؤدى إلى تمرد الطفل أو إحساس الوالدين بالإحباط. ويتطلب ذلك من الوالدين منذ البداية احترام شخصية الطفل، وهو الاحترام الذى يجب ألا يكون مجرد مسألة مبدأ سواء كان أخلاقياً أو فكرياً ولكن الاحترام الذى يكون محسوساً بعمق وباقتناع مبهم لدرجة يصبح معها الاستحواذ والقهر أمرين مستحيلين تماماً. ومثل هذا السلوك لا يعد مرغوباً تجاه الأطفال فقط، فهو ضرورى جداً فى الزواج وفى الصداقة أيضاً رغم أنه يكون أقل صعوبة فى الصداقة. وسوف يتخلل ذلك العلاقات السياسية بين مجموعات البشر فى عالم جيد رغم أن ذلك يعد أملاً بعيداً أكثر من أى شىء بالنسبة للأطفال نتيجة لأن عجزهم وصغر حجمهم وضعف قوتهم يجعلون النفوس الوضيعة تحتقرهم.

(11)

ولكى نعود مرة أخرى إلى المشكلات التى يعنى بها هذا الكتاب، فإن السعادة الكاملة للأبوة فى العالم الحديث يحصل عليها فقط الذين يستطيعون أن يحسوا إحساساً عميقاً بالاحترام تجاه الطفل وهو ما كنت عنه أتحذّر. حيث إنه لن تكون هناك ضوابط مرهقة على حُبهم للسلطة ولن تكون هناك حاجة للخوف من مراة انكشاف الوهم الذى يحس به الوالدان الظالمان عندما يكتسب أبنائهم الحرية. ويكون للوالدين اللذين لهما مثل هذا السلوك سعادة أكبر فى أبوتهم عما كان ممكناً على الإطلاق للوالدين الظالمين فى ذروة سلطتها الأبوية. فالحب الذى تظهره الرقة من كل الميول تجاه الطغيان يمنح سروراً أكثر روعة وأكثر دقة على تحويل معدن الحياة اليومية الخام إلى الذهب الخالص للنشوة الصوفية عن أية عاطفة ممكنة للشخص الذى لا ينفك يحارب ويصارع للاحتفاظ بسطوته فى هذا العالم المراوغ.

وأنا حين أربط قيمة عظمتى بالعاطفة الأبوية لا أستخلص استدلالاً عادة ما يتم استخلاصه على أن الأمهات يجب عليهم القيام بأنفسهن بعمل الكثير جداً لأبنائهن فقد كان الاقتناع الخاص بذلك طيباً جداً فى الأيام التى لم يكن فيها شىء قد عُرف بعد عن العناية بالأبناء سوى الأمور البسيطة وغير العلمية التى كانت تمررها عجائز النساء إلى الصغيرات. أما الآن فيوجد الكثير مما يتعلق بالأطفال يقوم به على

خير وجه أولئك الذين قاموا بدراسة خاصة عن بعض أقسام هذا الموضوع. فما يتعلق بالجزء من تدريبهم الذى يسمى تعليمًا يعد أمراً معترف به. فالأم ليس من المتوقع منها أن تعلم ابنها حساب التفاضل مهما كانت درجة حبه لها. فإلى المدى الذى يتعلق بإكتساب التعليم من الكتب فمن المعترف به أن الأطفال يمكنهم اكتسابه بطريقة أفضل من الذين يملكونه عنه من الأم التى لا تمتلكه. ولكن فيما يتعلق بكثير من الأقسام الأخرى الخاصة بالعناية بالأطفال فلا يعد ذلك أمراً مسلماً به؛ لأن الخبرة المطلوبة ليست متوافرة.

وبدون شك فإن بعض الأشياء تؤدى بطريقة أفضل عن طريق الأم ولكن كلما كبر الطفل فستزيد عدد الأمور التى يؤديها غيرها له بطريقة أفضل. فإذا تحقق ذلك بصورة عامة فسيوفر على الأمهات الكثير من العمل المرهق لعدم امتلاكهن الاقتدار المهنى لمثل هذه الأعمال. فالمرأة التى أكتسبت أى نوع من المهارة يجب أن تكون حرة فى أن تستمر فى ممارسة هذه المهارة بالرغم من أمومتها من أجل نفسها ومن أجل المجتمع. وقد لا تكون قادرة على فعل ذلك فى الأشهر الأخيرة من الحمل وأثناء الرضاعة ولكن الطفل فوق عمر التسعة أشهر يجب ألا يشكل عائقاً لا يمكن تجاوزه بالنسبة لأنشطة الأم المهنية. فأينما طلب المجتمع من الأم التضحية من أجل الطفل بما يتجاوز المنطق، فإن الأم سوف تتوقع من الطفل تعويضات تفوق ما لها الحق فيها، ما لم تكن قديسة بطريقة غير عادية. والأم التى تسمى مضحية بذاتها بطريقة تقليدية هى فى الغالبية الغالبة من الحالات أنانية بطريقة

غير عادية تجاه أطفالها حيث إنه رغم أهمية الأمومة كعنصر الحياة إلا أنها لن تكون مشبعة إذا عوملت على أنها الحياة بكاملها والوالدة التى لم يتم إشباعها من المرجح أن تصبح والدة شديدة التثبيت عاطفياً. فمن المهم بالتالى لصالح الأبناء بنفس درجة صالح الأم ألا تقطعها الأمومة عن سائر الاهتمامات والمساعى الأخرى. فإذا كانت لديها مهنة حثيثة لرعاية الأطفال وكمٌ من المعرفة يمكنها من العناية الكافية بأطفالها، فيجب أن تستغل مهارتها على نطاق واسع ويجب أن تشغل مهنيها فى العناية ببعض مجموعات الأطفال التى من المتوقع أن تشتمل على أطفالها هى.

ومن السليم أن يكون للوالدين رأى فى كيفية العناية بأطفالها وفيمن يقومون بذلك شريطة أن تتوافر فيهم المتطلبات الدنيا التى تصر عليها الدولة وطالما كانوا لا يخرجون عن مستويات الأشخاص المؤهلين. ولكن يجب ألا يكون هناك عُرْف يطلب من كل أم أن تؤدى بنفسها ما يمكن أن تؤديه أخريات بطريقة أفضل. فالأمهات اللاتى يشعرن بالحيرة وعدم الاقتدار فى مواجهة أطفالهن كما هو الحال الكثير من الأمهات، يجب ألا يتردد فى أن يكلن رعاية أطفالهن إلى نساء لديهن الأهلية لهذا العمل وقمن بأداء التدريب الضرورى لذلك. فلا توجد غرائز مرسله من السماء تعلم النساء فعل الأمور الصحيحة لأطفالهن. وعندما يتجاوز الاهتمام الزائد حداً معيناً فإنه يكون تمويها للاستحواذ، فكثير من الأطفال قد دُمروا نفسياً نتيجة التعامل الجاهل

والعاطفى لأمھاتھم . ولقد كان دائماً من المعترف به أن الآباء لا يمكن توقع أن يفعلوا الكثير لأطفالھم ورغم ذلك يكون لدى الأطفال حباً لأبائھم يعادل نفس حبھم لأمھاتھم . وعلاقة الأم بالطفل فى المستقبل سوف تشبه أكثر وأكثر علاقته الحالية بالأب إذا ما تحررت حياة النساء من العبودية غير الضرورية ، وسُمح للأطفال بالاستفادة من المعرفة العلمية التى تتراكم فيما يختص بالعناية بعقولھم وإحساسھم فى السنوات المبكرة .

الفصل الرابع عشر

العمل

(١)

لعل ما إذا كان يجب اعتبار العمل من بين مسببات السعادة أو من مسببات التعاسة، أمراً يحتمل الوجهين. فمن المؤكد أن الكثير من نوعيات العمل تعد شديدة الإنهاك، ودائماً ما يكون العمل الزائد عن الحد مؤلماً جداً، ورغم ذلك أعتقد أن أشد صور العمل كآبة هي بالنسبة لمعظم البشر أقل إيلاًماً من البطالة شريطة ألا يكون العمل مفرطاً في زيادته. ففي العمل تتواجد كل المستويات من محض التخلص من الملل إلى أقصى الاستمتاع عمقاً وفقاً لطبيعة العمل وقدرات العامل. فمعظم العمل الذي يجب على أغلبية الناس أدائه ليس مشوقاً في ذاته وإن كان حتى مثل هذا العمل له بعض المزايا العظيمة. فهو أولاً يملأ العديد من ساعات اليوم دونما الحاجة إلى أن يقرر المرء ما يجب عليه أن يفعله. وإذا ترك أغلب الناس أحراراً في ملء أوقاتهم وفقاً لاختيارهم فسيتحiron في التفكير في شيء متع

بدرجة كافية ليستحق عمله . ومهما كان العمل الذى سيقرون القيام به فسيؤرقهم الإحساس بأن شيئاً آخر ربما كان أكثر إمتاعاً . وتعد إمكانية ملء وقت الفراغ بذكاء من آخر ما أنتجته المدنية وفى الوقت الراهن لم يصل إلى هذا المستوى سوى القليل جداً من البشر . فممارسة الاختيار هو فوق ذلك مرهق فى ذاته . وباستثناء الأشخاص ذوى المبادرة غير العادية فإنه من المقبول قبولاً مرضياً أن يقال لك ما يجب عليك عمله فى كل ساعة من ساعات اليوم بشرط ألا تكون الأوامر صارمة بدرجة كبيرة . فمعظم الأغنياء العاطلين يعانون مللاً فظيماً لتحررهم من ضرورة الكدح وقد يجدون فى بعض الأوقات تفريجاً لذلك بالقيام باصطياد الحيوانات الضخمة فى إفريقيا أو بالطيران حول العالم ولكن مثل هذه المتع تعد محدودة خاصة بعد انقضاء الشباب ، وعلى ذلك فالأغنياء الأكثر ذكاءً يعملون بجدية كما لو كانوا فقراء بينما تشغل ثريات النساء أنفسهن بعدد لا حصر له من الترهات التى يعتقندن اعتقاداً جازماً فى أهميتها التى يهتز لها الكون .

(٢)

فالعمل إذن يعد مرغوباً أولاً وفى البداية كوقاية من الملل ؛ لأن الملل الذى يشعر به الشخص عند أدائه عملاً ضرورياً وإن كان غير مُسلٍّ لا يعد شيئاً بالمقارنة بالملل الذى يحس به عندما يكون لديه شئ يفعل به أيامه . ويرتبط بهذه الميزة من مزايا العمل ميزة أخرى وهى أنها تجعل أيام العطلة أكثر بهجة عندما تأتى . ومن المرجح أن يجد الشخص لذة أكبر كثيراً فى وقت الراحة عما يمكن للرجل العاطل أن يجده شريطة ألا يكون عليه أن يعمل بشدة تؤدى إلى تلف صحته .

والميزة الثانية لمعظم نوعيات العمل مدفوع الأجر وبعض طرز العمل غير مدفوع الأجر هو أنه يوفر فرصاً للنجاح ومجالاً للطموح. وفى معظم الأعمال يقاس النجاح بالدخل، وطالما ظل مجتمعنا الرأسمالى باقياً فسيظل ذلك حتمياً، وفيما يختص بأفضل الأعمال فقط لا يعد هذا المعيار هو الطبيعي الذي يجب تطبيقه. ورغبة الناس فى أن يزيدوا من دخلهم تماثل الرغبة فى النجاح فيما يتعلق بما يوفره الدخل الأعلى من وسائل إضافية للراحة. فمهما كان العمل كثيباً فسيكون محتملاً إذا كان الوسيلة لبناء سمعة سواء فى العالم على إتساعه أو فى محيط الفرد الخاص. واستمرارية الهدف يعد من أهم المكونات الضرورية للسعادة على المدى الطويل، وبالنسبة لمعظم الناس يتأتى ذلك أساساً من العمل. وفى هذا الخصوص تكون النساء اللاتى تشغل الأعمال المنزلية حياتهن أقل حظاً من الرجال أو من النساء اللاتى يعملن خارج المنزل، وربة البيت لا تتلقى أجراً وليست لديها وسيلة لتحسين نفسها ويعتبرها زوجها أمراً مسلماً به (فهو لا يرى فعلياً أية أهمية لما تفعله) وتكون قيمتها بالنسبة له لا علاقة لها بالعمل المنزلى وإنما بخصائص أخرى مختلفة تماماً. ولا ينطبق ذلك بالطبع على النساء اللاتى يكن ميسورات بدرجة تكفى لامتلاك منازل جميلة وحدائق بديعة وأن يصبحن مثاراً لحسد جيرانهم. ولكن مثل هاته النساء قليلات نسبياً، ولا يوفر العمل المنزلى للأغلبية الساحقة إشباعاً بنفس الدرجة التى يوفرها العمل - على اختلاف نوعياته - للرجال وللنساء العاملات.

(٣)

معظم نوعيات العمل توفر ميزة قتل الوقت وتوفر منفذاً - مهما كان متواضعاً - للطموح، وتكون كافية لجعل حتى الشخص الذى يعتبر عمله كئيلاً أسعد فى المتوسط من الشخص الذى بلا عمل على الإطلاق، ولكن عندما يكون العمل مشوقاً يكون بمقدوره أن يمنح الإشباع بدرجة أعلى جداً من مجرد تفريج الملل. ويمكن ترتيب نوعيات الأعمال التى بها بعض التشويق ترتيباً هرمياً، وسوف أبدأ بالطرز المشوقة بدرجة متوسطة منتهياً بالطرز التى تستحق أن تمتص كل طاقة الشخص العظيم. هناك عنصران رئيسيان يجعلان العمل مشوقاً: الأول ممارسة المهارة والثانى التشييد.

(٤)

فكل شخص اكتسب مهارة غير عادية يستمتع بممارستها إلى أن تصبح جزءاً من طبعه أو إلى أن يصبح غير قادر على تحسين أدائه أكثر من ذلك. وهذا الدافع من دوافع الأداء يبدأ مبكراً فى الطفولة: فالصبي الذى يستطيع الوقوف على رأسه يتكاسل عن الوقوف على قدميه. والكثير من طرز العمل يمنح نفس السعادة التى تستمد من المباريات المهارية. فعمل المحامى أو السياسى يجب أن يحتوى بصورة أنيقة جداً على الكثير من السرور المستمد من لعبة البريدج. فهنا

بالطبع لا تتوافر ممارسة المهارة فحسب، ولكن التغلب على خصم ماهر أيضاً. وحتى إذا غاب هذا العنصر التنافسى فإن ممارسة المهارات الصعبة يكون أمراً ممتعاً. فالرجل الذى يمكنه القيام بحركات بهلوانية فى طائرة يجد أن سروره يكون عظيماً لدرجة أنه يكون على استعداد للمجازفة بحياته من أجله. وأنا أتصور أن الجراح القدير يستمد الإشباع من الدقة الرائعة للعمليات التى يجريها رغم الظروف المؤلة التى يتم فيها عمله. ونفس الطراز من السرور، وإن كان أقل حدة، يمكن أن يستمد من طرز عديدة أكثر تواضعاً من العمل، فقد سمعت حتى عن سباكين يستمتعون بعملهم رغم أنى لم يسعدنى الحظ أبداً بمقابلة واحد منهم.

وكل نوعيات العمل الماهر يمكن أن تكون ممتعة شريطة أن تكون المهارة المطلوبة إما متنوعة أو من الممكن تحسينها إلى مدى غير محدود، فإذا غابت هذه الشروط فلن تصبح هذه الأعمال مشوقة عندما يصل الشخص إلى أقصى درجة مهارة ممكنة. فالشخص الذى يجرى فى مسابقات الثلاثة أميال لن يصبح قادراً على الاستمتاع بهذا العمل عندما يتجاوز السن الذى يمكنه فيها تحطيم رقمه السابق. ولحسن الحظ هناك كمٌ كبير من العمل الذى تنجم فيه ظروف جديدة تحتاج إلى مهارات جديدة ويستطيع المرء الاستمرار فى التحسن على أى نحو إلى أن يصل إلى منتصف العمر. وفى بعض طرز العمل المهارى كالسياسة على سبيل المثال يبدو أن الرجال يكونون فى أفضل

أحوالهم وهم بين الستين والسبعين عاماً من العمر، والسبب هو أنه فى هذه الأشغال تكون الخبرة العريضة بالآخرين من الرجال أمراً ضرورياً. لهذا السبب فالسياسيون الناجحون يكونون أسعد عند عمر السبعين عن أى رجل آخر من نفس العمر ومنافسهم الوحيدون فى هذا الخصوص هم الرجال الذين يرأسون المؤسسات الضخمة.

(٥)

وهناك رغم ذلك عنصر آخر يتوافر فى أفضل نوعيات العمل ويكون حتى أكثر أهمية للسعادة من ممارسة المهارة ، وهذا هو عنصر التشييد. ففى بعض طرز العمل وليس فى أغلبها بأية حال يتم بناء شئ ما يظل كالأثر عندما يتم البناء، ويمكننا التمييز بين التشييد والهدم بالخاصية التالية: فى التشييد تكون المرحلة المبدئية للأمور اعتبارية نسبياً بينما تشتمل المرحلة النهائية على هدف وفى الهدم يكون العكس، المرحلة الأولية تشتمل على هدف بينما تكون المرحلة النهائية اعتبارية، أى أن كل ما ينتويه الهادم هو أن ينتج حالة من الأوضاع لا تشتمل على غرض محدد. وتنطبق هذه الخاصية بحرفية ووضوح فى تشييد وتدمير البنايات، ففى تشييد مبنى، يتم تنفيذ خطة موضوعة مسبقاً بينما فى هدمه لا يحدد أى شخص بدقة كيف ستكون المواد ملقاة بعد أن تتم عملية الهدم. فالهدم يكون بالطبع أمراً ضرورياً عادة كإجراء أولى للبناء اللاحق فى مثل هذه الحالة يكون الهدم جزءاً من كل ويكون الكل بناءً.

ولكن ليس من النادر أن يتكفل شخص ما بأنشطة يكون هدفها هداماً دونما اعتبار لأى بناء يمكن أن يتم بعد ذلك. وعادة سيخفى هذا الشخص ذلك عن نفسه بادعاء أنه لا يهدم إلا ليبنى جديداً. ولكن من الممكن بصفة عامة نزع قناع هذا الادعاء إذا كان ادعاءً، بسؤاله عما سيكونه هذا البناء اللاحق. ستجد أنه يتكلم بخصوص هذا الموضوع كلاماً غامضاً وبلا حماس، بينما يتكلم بدقة وتلذذ عن الهدم المبدأى، وينطبق ذلك على غير القليل من الثوريين والعسكريين وغيرهم من رسل العنف. فما يحثهم دون أن يعلموا عادة هو الحقد ويكون غرضهم الحقيقى هو هدم ما يكرهونه ويكونون لا مبالين نسبياً بالنسبة لما سيأتى بعد ذلك.

ولا أستطيع الآن أن أنكر أنه فى العمل الهدام - كما فى العمل البناء - قد تكون هناك سعادة ولكنها سعادة شرسة ربما تكون أكثر حدة فى لحظات معينة ولكنها أقل فى عمق إشباعها ؛ لأن الإشباع يكون قليلاً فى نتيجتها. فأنت تقتل عدوك، وعندما يموت تكون مهمتك قد انتهت ويخفت الإشباع الذى حصلت عليه من انتصارك خفوئاً سريعاً. والعمل البناء، من ناحية أخرى عندما يكتمل يكون من الممتع التأمل فيه وأكثر من ذلك أنه لن يكون أبداً مكتملاً بدرجة لا يمكن معها عمل شئ لتحسينه. وأكثر الأغراض إشباعاً هى التى تقود من نجاح بلا نهاية دون لاوصول إلى نهاية محددة. وسنجد فى هذا الخصوص أن البناء مصدر عظيم للسعادة عن الهدم، وربما كان من

الأصوب القول بأن أولئك الذين يجدون الإشباع فى البناء فإن إشباعهم يكون أعظم من الذى يجده عشاق الهدم فى الهدم، حيث إنك إذا ما امتلأت مرة بالكراهية فلن تستمد السعادة من البناء بالسهولة التى يستقيها منه شخص آخر.

هناك فى الوقت نفسه القليل من الأشياء التى من المرجح أن تعالج الحقد، مثل فرصة القيام بعمل بناء من طراز مهم.

(١)

والإشباع المستمد من النجاح فى الأعمال البناء الكبيرة يعد واحداً من المتع العظيمة التى بإمكان الحياة توفيرها رغم أنها لسوء الحظ متاحة بأكثر صورها سمواً للأشخاص ذوى القدرات الاستثنائية، ولا شئ يمكنه أن يسرق متعة الإنسان من إنجاز ناجح فى عمل ما إلا الدليل على أن كل عمله كان رديئاً. وهناك الكثير من صور هذا الإشباع، فالشخص الذى استطاع بواسطة نظام للرأى أن يجعل الأرض الجرداء تزهر كالوردة يستمتع بها صورة ملموسة جداً، وإنشاء إحدى المنظمات قد يكون عملاً فائق الأهمية، وكذلك يكون عمل القليل من رجال الدولة الذين وهبوا حياتهم لإنتاج النظام من الفوضى والذى كان لينين هو النموذج الصارخ لهم فى أيامنا. وأكثر الأمثلة وضوحاً هم الفنانون ورجال العلم. فشكسبير يقول عن شعره : «طالما كان الرجال يستطيعون التنفس والعيون بمقدورها الرؤية، فسيظل

هذا حياً». وما لا شك فيه أن هذه الفكرة قد واسته فى سوء حظه . وقد ظل معتقداً فى قصائده أن التفكير فى صديقه قد صالحه مع الحياة ولكننى لا أستطيع ألا أشك فى أن القصائد التى كتبها لصديقه كانت أكبر أثراً فى هذا الخصوص عن الصديق فى حد ذاته .

وعظماء الفنانين والأفذاذ من رجال العلم يقومون بعمل يعد فى ذاته مبهجاً، ويوفر لهم أثناء القيام به احترام أولئك الذين يكون لاحترامهم قيمة، مما يعطيهم أكثر طرز السلطة أصالة وهى السلطة على أفكار ومشاعر الناس، وتتوافر لديهم أيضاً أشد المبررات قوة فى أن يعتقدوا فى أنفسهم اعتقاداً طيباً. وهذه التشكيلة من الظروف المواتية يجب أن تكون كافية لجعل أى إنسان سعيداً. ولكن رغم ذلك فالحال ليس على هذا النحو، فما يكل أنجلو مثلاً كان رجلاً شديد التعاسة وظل معتقداً (وليس ذلك صحيحاً بالتأكيد) أنه لم يكن ليكد وينتج الأعمال الفنية إذا لم يكن عليه أن يدفع ديون أقاربه المعدمين. والقدرة على إنتاج فن عظيم من المعتاد جداً، وإن كان ليس دائماً أن يرتبط بالتعاسة المزاجية العظيمة والتى لولا السعادة التى يستمدّها الفنان من عمله لكانت قد قادتة إلى الانتحار. ولا نستطيع بالتالى أن نقول إنه حتى الأعمال العظيمة يجب أن تجعل الإنسان سعيداً، ولكن ما يمكننا أن نقوله هو أنها من الممكن أن تجعله أقل تعاسة. ورجال العلم هم أقل كثيراً من الفنانين فى تعاسة مزاجهم وفى الأغلب يكون الأشخاص الذين يقومون بأعمال عظيمة فى العلم سعداء، وتتأتى سعادتهم أساساً من عملهم.

(٧)

إحدى مسببات التعاسة بين المفكرين حالياً هو أن الكثيرين منهم خاصة أولئك الذين تكون موهبتهم أدبية لا يجدون فرصة للممارسة المستقلة لمواهبهم، ولكن عليهم تأجير أنفسهم للشركات الفنية التي يديرها أشخاص ماديون يصرون على إنتاج ما يعدونه هم أنفسهم هراء خبيثاً. فإذا أردت أن تستقصى من الصحفيين سواء فى إنجلترا أو أمريكا ما إذا كانوا يؤمنون بسياسة الصحيفة التي يعملون بها فستجد، كما أعتقد، أن أقلية ضئيلة هي التي تفعل بينما يمتنع الباقون مواهبهم من أجل العيش لأغراض يعتقدون أنها ضارة. مثل هذا العمل لا يمكن أن يوفر أى إشباع حقيقى، وخلال عملية تطويع نفسه للقيام به يجب أن يجعل الإنسان من نفسه ساخرًا بدرجة لا يستطيع معها بعد ذلك أن يستمد إشباعًا كاملاً من أى شيء مهما كان. ولا يمكننى إدانة الأشخاص الذين يقومون بعمل من هذه النوعية، حيث أن الموت جوعاً هو البديل شديد الخطورة. ولكننى أعتقد أنه أينما كان من الممكن القيام بعمل مشبع للدوافع البناءة للإنسان دونما أن يجوع تماماً، فالنصيحة الطيبة له من زاوية سعادته الخاصة أن يختار هذا العمل مفضلاً إياه عن عمل مرتفع الأجر ولكنه لا يستحق الأداء فى ذاته كما يبدو له. فبدون احترام النفس نادراً ما تكون السعادة الحقيقية أمراً ممكنًا والشخص الذى يحس بالتحجل من عمله يصعب عليه أن يصل إلى احترام نفسه.

(٨)

وإشباع العمل البناء رغم أنه قد يكون ميزة لأقلية كما هو عليه الحال من الممكن رغم ذلك أن يكون ميزة لأقلية كبيرة. فأى شخص يكون أستاذًا فى عمله يمكنه أن يشعر بهذا الإشباع وكذلك أى شخص يبدو له عمله مفيداً ويتطلب مهارة كبيرة. وإنتاج أطفال ممتازين يعد عملاً بناءً وصعباً وبمقدوره توفير إشباع عميق، وأية امرأة تصل إلى ذلك يمكنها أن تشعر أن العالم يحتوى نتيجة عملها على شئ له قيمة لم يكن ليحتويه دون عملها. ويختلف البشر بشدة فى الميل إلى النظر إلى حياتهم فى كليتها. فلبعض الأشخاص يكون فعل ذلك أمراً طبيعياً ويكون ضرورياً للسعادة أن يفعلوا ذلك بقدر من الرضا. وبالنسبة لآخرين تكون الحياة سلسلة من الأحداث المنفصلة بلا حركة موجهة وبلا ارتباط. وأعتقد أن الطراز الأول أكثر ترجيحاً فى الوصول إلى السعادة عن الطراز الأخير حيث أنهم سوف يبنون تدريجياً ، تلك الظروف التى منها يستمدون الرضا واحترام النفس بينما سوف تعصف رياح الظروف بالآخرين هنا وهناك دون أن يصلوا إلى مرفأ، وعادة النظر إلى الحياة ككل هى جزء ضرورى من كل من الحكمة والأخلاق الحقيقية، وأحد الأمور التى يجب تشجيعها فى عملية التعليم. والهدف الثابت ليس كافياً لجعل الحياة سعيدة ولكنه شرط لا غنى عنه للحياة السعيدة، والهدف الثابت يكون موجوداً أساساً فى العمل.

الفصل الخامس عشر

الاهتمامات غير الشخصية

(1)

أود في هذا الفصل أن أتعرض ليس للاهتمامات الرئيسية التي تبني حولها حياة الفرد، ولكن إلى تلك الاهتمامات الفردية التي تملأ وقت فراغه وتوفر لاسترخاء من توتر انشغالاته الأكثر جدية. وفي حياة الشخص المتوسط تحتل زوجته وأبناؤه وعمله ووضعه المالى الجزء الرئيسى من أفكاره الجادة المقلقة، وحتى إذا كانت له علاقات غرامية بالإضافة إلى علاقته الزوجية فليس من المحتمل أن تشغله فى ذاتها بعمق كما يشغله أثرها على حياته المنزلية والاهتمامات المتعلقة بعمله لا أعتبرها الآن اهتمامات غير شخصية. فرجل العلم على سبيل المثال، يجب أن يحافظ على أن يكون جنباً إلى جنب مع البحوث المتعلقة بتخصصه، وتكون لمشاعره تجاه مثل هذه البحوث ذلك الانتماء الدافئ والحيوية لأمر وثيق الأهمية لمهنته، ولكنه إذا قرأ بحثاً فى علم آخر مختلف تماماً لا يهتم به مهنيًا ، فإنه يقرأ بروح

مغايرة تمامًا، حيث تكون قراءته أقل عمقًا، أقل نقدًا وبلا شغف وحتى إذا اضطر إلى استخدام عقله كى يتتبع ما يقال فإن قراءته تكون رغم ذلك أقل شغفًا لأنها غير مرتبطة بمسئوليته. فإذا أثار الكتاب اهتمامه، فإن هذا الاهتمام يكون لا شخصيًا بمدلول لا يمكن ينطبق على الكتب التى تقع فى نطاق تخصصه. وهذه الاهتمامات التى تقع خارج نطاق الأنشطة الرئيسية لحياة الإنسان هى التى أود الحديث عنها فى هذا الفصل.

(٢)

أحد مصادر التعاسة والإعياء والشد العصبى هو انعدام القدرة على الاهتمام بأى شىء ليس له أهمية عملية فى حياة الفرد الخاصة، ونتيجة ذلك أن العقل الواعى لا يستريح من عدد قليل من أمور معينة كل منها ربما يشتمل على بعض القلق وبعض عناصر الانزعاج، ولا يتاح للعقل الواعى أن يستلقى مستريحًا على الإطلاق إلا أثناء النوم بينما تنضج أفكار تحت الوعى حكمتها تدريجيًا، وتكون النتيجة هى الاستثارة، انعدام الفطنة، الانفعال وفقدان حاسة التناسب. وكل هذه الأمور هى مسببات وآثار للإعياء. فكلما أصبح الإنسان أكثر تعبًا خبت اهتماماته الخارجية. وبينما هى تخبو يفقد هو تدريجيًا التفريغ الذى كانت توفره له ويصبح أشد تعبًا. وهذه الدائرة الحبيثة لن تنتهى إلا بالانهيار. والشىء المريح فى الاهتمامات الخارجية هو حقيقة أنها

لا تتطلب أى عمل . فصنع القرارات وممارسة إرادة الاختيار هى أن الأمور المسببة للإعياء خاصة إذا كان يجب القيام بها بسرعة وبدون معونة تحت الوعى . فالأشخاص الذين يحسون بضرورة «النوم على ذلك» قبل اتخاذ أى قرار مهم هم مصيبون تماماً .

ولكن العمليات العقلية تحت الواعية لا تعمل خلال النوم فقط ، بل تستطيع العمل أيضاً عندما يكون العقل الواعى للفرد مشغولاً بأمور أخرى فالشخص الذى يمكنه أن ينسى عمله عندما ينتهى ولا يتذكره إلا عندما يبدأ ثانية فى اليوم التالى من الأرجح أن يقوم بعمله أفضل كثيراً من الشخص الذى يظل قلقاً على عمله عبر الساعات الواقعة بين نهاية العمل وبدايته مرة أخرى ، ومن الأسهل جداً نسيان العمل فى الأوقات التى يجب فيها نسيانه عندما يكون لدى الشخص الكثير من الاهتمامات بخلاف عمله عما لو لم يكن لديه . ومن الضرورى بالرغم من ذلك ألا تتطلب تلك الاهتمامات نفس القدرات العقلية التى تم إرهاقها خلال عمل اليوم . فلا يجب أن تشتمل على الإرادة والقرار السريع ويجب ألا تشتمل على أى عنصر مالى مثل المقامرة ويجب كقاعدة ألا تكون مثيرة بدرجة تؤدى إلى الإعياء العاطفى ، وتشغل بذلك العقل تحت الواعى بنفس درجة شغلها للعقل الواعى .

(٣)

كثير من الأمور المسلية ينطبق عليه هذه الشروط ، فمشاهدة المباريات ، الذهاب إلى المسرح ولعب الجولف كلها أمور لا غبار عليها

فى هذا الخصوص . وبالنسبة لرجل له عقلية ذات ميل للكتب فإن قراءة موضوعات لا تتعلق بنشاطه المهنى يعد من الأمور المرضية جداً، فمهما كان الموضوع المثير للقلق هاما فيجب ألا يتم التفكير فيه خلال ساعات العمل بكاملها على الإطلاق .

(٤)

هناك فرق مهم بين الرجال والنساء فى هذا الخصوص، فالرجال على وجه الإجمال يجدون نسيان عملهم أسهل كثيراً من النساء . ففي حالة النساء اللاتى يكون عملهن فى المنزل يعد ذلك طبيعياً حيث لا يتوافر لهن تغيير المكان الذى يتوافر للرجل عند تركه للمكتب مما يساعده على اكتساب مزاج جديد . ولكن إذا لم أكن مخطئاً، فالنساء اللاتى يعملن خارج المنزل يختلفن عن الرجال فى هذا الخصوص تقريباً بنفس درجة اختلاف النساء القابعات بالمنزل، فهن يجدن أنه من الصعب جداً أن يصبحن مهتمات لأى شئ ليس له أهمية عملية بالنسبة لهن، فأغراضهن تتحكم فى أفكارهن وأنشطتهن، ونادراً ما يصبحن مندمجات فى بعض الاهتمامات غير المسئولة . أنا لا أنكر بالطبع وجود استثناءات، ولكنى أتحدث عما يبدو لى القاعدة الدائمة . ففي كلية للنساء مثلاً، نتحدث المدرسات فى الأمسيات عن العمل إذا لم يكن هناك رجالاً متواجدين بينما فى كلية للرجال لا يفعل الرجال ذلك . وهذه الخاصية تبدو للنساء على أنها درجة عالية من الوعى

بالمقارنة بالرجال، ولكنى لا أعتقد أن ذلك سيؤدى فى المدى الطويل إلى تحسين عملهن ولكنه يميل إلى إحداث ضيق فى الأفق يؤدى عادة إلى نوع من التعصب.

(٥)

كل الاهتمامات غير الشخصية، إذا تركنا أهميتها جانباً للاسترخاء، لها استخدامات أخرى عديدة، فهى أولاً تساعد الإنسان على الاحتفاظ بحاسة التناسب، فمن السهل جداً أن نصير مندمجين جداً فى سعيينا الخاص وفى وسطنا الخاص وفى طراز عملنا الخاص بدرجة ننسى معها كيف يشكل كل ذلك جزءاً شديداً الضالة من السعى الإنسانى وكيف أن كمّاً ضخماً من أمور الحياة لا يتأثر مطلقاً بما نفعله. وقد نتساءل: لماذا يجب على الشخص أن يتذكر ذلك؟ وهناك العديد من الإجابات، ففي المقام الأول، من الخير أن يكون لديك صورة حقيقية عن العالم تكون متوافقة مع الأنشطة الضرورية، فكل منا يتواجد فى الدنيا لزمان ليس طويلاً جداً، وخلال السنوات القليلة من حياته يجب عليه اكتساب ما عليه أن يعرفه عن هذا الكوكب الغريب وعن مكانه فى الكون. وإهمال الفرص المتاحة لنا للمعرفة، مهما كانت هذه المعرفة غير كاملة، يشبه الذهاب إلى المسرح وعدم الاستماع إلى المسرحية. فالعالم ملئ بالأمور المأساوية والكوميديّة، البطولية وغير المألوفة والمدهشة، والذين يفشلون فى الاهتمام بهذا

العرض الذى يوفره العالم يتنازلون عن أحد الامتيازات التى تقدمها لهم الحياة .

ومرة أخرى فإن حاسة التناسب لها قيمة عظيمة وتوفر السلوى فى أوقات معينة . فكلنا ميال إلى أن يستشار بلا مبرر وأن يكون مشدوداً بلا مبرر وأن يتأثر بأهمية الركن الصغير الذى نعيش فيه من العالم وبالهنية الصغيرة من الزمن الواقعة بين مولدنا ومماتنا . ولا شئ يعد مرغوباً فى مثل هذه الإثارة والتقدير المبالغ فيه لأهميتنا . فصحيح أن ذلك قد يجعلنا نعمل بجدية أكبر ولكنه لن يجعلنا نعمل بطريقة أفضل ، فالقليل من العمل الموجه لأهداف طيبة هو أفضل من كثير من العمل الموجه لأهداف سيئة . رغم أن الرسل المبشرين بالحياة المجتهدة يبدو أنهم يعتقدون العكس ، فالذين يهتمون كثيراً بعملهم يكونون باستمرار فى خطر الانزلاق إلى التعصب والذى يتكون أساساً من تذكر أمر أو اثنين من الأمور المرغوبة ونسيان الباقي بكامله ، وفى تأكيد أنه فى السعى فى سبيل هذا الأمر أو الأمرين فإن أى ضرر طارئ من نوعيات أخرى يعد أمراً قليل الأهمية ، ولا توجد وقاية ضد المزاج المتعصب أفضل من التصور الرحب لحياة الإنسان ومكانه فى الكون . وقد يبدو ذلك أمراً شديداً الجسامة لاستحضاره فى هذا السياق ولكن بعيداً عن هذا الاستخدام الخاص فإنه يعد فى حد ذاته أمراً عظيم القيمة .

(١)

أحد عيوب التعليم العالى الحديث أنه أصبح تدريبيًا بدرجة كبيرة بغرض اكتساب طرز معينة من المهارة وبدرجة ضئيلة جدًا توسعة للعقل والقلب وفقًا لأى حصر غير متحيز للعالم، فأنت تصبح مندمجًا مثلاً فى منافسة سياسية وتعمل بجهد لانتصار حزبك السياسى، إلى هنا والأمور طيبة، ولكن قد يحدث أثناء الصراع أن تلوح إحدى فرص الانتصار التى تتضمن استخدام طرق تم حسابها كى تزيد الكراهية والعنف والشك فى العالم. فقد تجد مثلاً أن أفضل الطرق للنصر هو إهانة دولة أجنبية معينة، فإذا كانت دائرة إدراكك العقلى قاصرة على الحاضر، أو إذا كنت تشربت مفهوم أن الكفاءة هى الأمر الوحيد الذى يعد مهماً فسوف تبني مثل هذه الوسائل المريبة. فخلال هذه الوسائل سوف تكون متصراً فى غرضك الآتى، بينما الأمور اللاحقة التى تترتب على ذلك قد تؤدى إلى الكوارث.

أما إذا كان بعقلك - كجزء من مكوناته المعتادة - العصور الماضية للإنسان وخروجه البطيء والجزئى من بربريته، وضآلة وجوده الكلى بالمقارنة بالأحقاب الفلكية، إذا صاغت مثل هذه الأفكار مشاعرك المعتادة، فلسوف تدرك أن المعركة الآتية التى انشغلت بها لا يمكن أن تكون بالأهمية التى تدفع إلى المجازفة بالخطو خلقاً تجاه الظلمات التى خرجنا منها ببطء. أكثر من ذلك، أنك إذا عانيت الهزيمة فى هدفك

الآتى فلسوف يدعمك نفس الإحساس بمرحلية ذلك بما يجعلك عازقاً عن استخدام أسلحة وضيعة. ولسوف يكون لديك وراء أنشطتك الآتية أهداف بعيدة تفتح ببطء لن تكون فيها فرداً منعزلاً بل من جيش كبير من أولئك الذين قادوا البشرية تجاه الوجود المتمدين. فإذا وصلت إلى هذه النظرة فلن تغادرك أبداً سعادة عميقة معينة مهما كان مصيرك الشخصى وسوف تصبح الحياة عشاءً رباتياً مع العظماء من كل الأجيال والموت الشخصى لن يعدو أن يكون حدثاً مهماً.

(٧)

وإذا كانت لى سلطة تنظيم التعليم العالى كما يجب أن أرغب، فيجب أن أنشد أن أستبدل بالديانات الأصلية القديمة التى لا تزال مغرية للقليل من الشباب ، وتجذب كقاعدة من هم أقل ذكاءً وأشد إظلاماً، شيئاً قد يكون من الصعب تسميته ديناً حيث لا يعدو أن يكون تركيزاً للانتباه على الحقائق المتينة جداً. ويجب أن أنشد أن أجعل الشباب الصغار مدركين بوضوح للماضى ومدركين بوضوح أن مستقبل الإنسان سوف يكون بكل الاحتمالات أطول كثيراً بدرجة لا يمكن قياسها من ماضيه، وأن يكونوا واعين بعمق لمدى ضالة الكوكب الذى نعيش عليه وحقيقة أن الحياة على هذا الكوكب ما هى إلا حدث مرحلى وفى الوقت نفسه - مع كل هذه الحقائق التى تميل لتأكيد عدم أهمية الفرد- يجب أن أقدم مجموعة أخرى مختلفة من الحقائق المصممة لكى تطبع فى عقول الشباب مدى العظمة التى بمقدور الفرد

أن يصل إليها، والمعرفة التى عبر كل أعماق الفضاء الكونى لا شيئاً معروف لنا يعدلها فى قيمتها، لقد كتب سبينوزا منذ وقت طويل عن عبودية الإنسان وحرية الإنسان. ولقد جعل أسلوبه ولغته من الصعب على الجميع إدراك فكرته فيما عدا طلاب الفلسفة ولكن جوهر ما أردت أن أوصله يختلف قليلاً عما قاله. فالإنسان الذى أدرك، مهما كان إدراكه هذا مرحلياً ومختصراً، ما يصنع عظمة النفس، لا يمكن بعد ذلك أن يصبح سعيداً إذا سمح لنفسه أن يكون ضئيلاً، لا ينشد سوى ذاته، منشغلاً بالهموم التافهة، خائفاً مما يختزنه القدر له. فالإنسان القادر على عظمة النفس سوف يرى نفسه والحياة والعالم بالصدق الذى تسمح به محدوديتنا البشرية، مدركاً ضآلة وصغر الحياة الإنسانية. وسوف يدرك أيضاً أن كل المعارف ذات القيمة والتى يحتويها الكون تتركز فى العقول المفردة، وسوف يرى أن الإنسان الذى يعكس عقله العالم كمرآة يصبح بمدلول ما عظيمًا كعظمة العالم. وبالتحرر من المخاوف التى تحدق بعبيد الظروف، سوف يشعر بسعادة عميقة، وعبر كل تقلبات حياته الخارجية سوف يظل فى أعماق وجوده إنساناً سعيداً.

(٨)

وبترك هذه التكهنات الواسعة جانباً والعودة إلى موضوعنا الأكثر إلحاحاً، وهو قيمة الاهتمامات غير الشخصية، فهناك جوانب أخرى

تجعلها ذات عون كبير فى اتجاه السعادة . فحتى فى الحياة الأكثر حظاً توجد أوقات تكون الأمور فيها على غير ما يرام ، فالقليل من الناس فيما عدا العُزَّاب لم يتشاحنوا مطلقاً مع زوجاتهم ، والقليل من الآباء والأمهات لم يشعر بالقلق الممض نتيجة مرض أبنائهم ، والقليل من رجال الأعمال أمكنه تجنب فترات الأزمات المالية ، والقليل من المهنيين لم يعرفوا أوقاتاً حملق الفشل فيها فى وجوههم . فى مثل هذه الأوقات تكون القدرة على الاهتمام بشئ بعيد عن سبب القلق من النعم الكبرى ، ففى مثل هذه الأوقات عندما لا يكون هناك رغم القلق شئ يمكن عمله ، فأحد الأشخاص سيلعب الشطرنج وسوف يقرأ آخر القصص البوليسية وسيصبح ثالث مندمجاً فى التنجيم الشائع وسوف يسلى رابع نفسه بالقراءة عن الحفريات الأثرية . كل من هؤلاء الأربعة حكيم فى مسلكه ، بينما الإنسان الذى لا يفعل شيئاً ؛ للإهواء عقله ويسمح لمشاكله أن تكتسب امبراطورية كاملة عليه ، يكون سلوكه غير حكيم ويجعل نفسه أقل صلاحية للتعامل مع مشاكله حين تحين لحظة العمل . وتنطبق اعتبارات مماثلة تماماً على الأسى الذى لا يمكن رأب صدعه مثل موت شخص ما محبوبٍ بعمق . فلن يتأتى أى خير لأى فرد إذا سمح لنفسه أن يفرق فى الأسى فى مثل هذه المناسبة ، فالحزن لا يمكن تجنبه ويجب توقع حدوثه ولكن يجب عمل كل ما يمكن لتقليله إلى الحد الأدنى ، وإنها لعاطفية محضة أن تنشد ، كما يفعل البعض ، إلى استخلاص أقصى قطرة بؤس من الفاجعة . ولا أنكر بالطبع أن الشخص قد يسحقه الأسى ، ولكن ما أقوله هو أن كل

شخص يجب أن يفعل كل ما يوسع للهروب من هذا المصير، ويجب أن ينشد أى إلهاء مهماً كان تافهاً، شريطة ألا يكون ضاراً فى حد ذاته أو محقراً للشأن، ومن بين تلك الأمور التى أعتبرها ضارة ومحقرة أضع السكّر والمخدرات حيث إن هدفهما هو تدمير الفكر على الأقل بالنسبة لتلك الفترة من الوقت، والسبيل القويم ليس تدمير الفكر ولكن توجيهه إلى قنوات جديدة أو بأية حال إلى قنوات بعيدة عن الفاجعة التى وقعت. ومن الصعب القيام بذلك إذا كانت الحياة مركزة - حتى تلك اللحظة - على القليل جداً من الاهتمامات وأن تصبح تلك الاهتمامات القليلة مطمورة فى الأسى. ولكى تتحمل الفاجعة جيداً عند وقوعها، فمن الحكمة أن تكون قد كونت فى أوقاتك الأسعد اهتمامات عريضة بحيث يجد العقل عند حلول الفاجعة أن مكاناً غير مشوش قد تهيأ له تتوافر فيه ارتباطات مغايرة وعواطف أخرى مختلفة عن تلك التى جعلت الحاضر من الصعب تحمله.

(٩)

الإنسان ذو الحيوية الملائمة والذى تتوافر لديه القدرة على الاستمتاع سوف يقهر كل الفواجع بأن يثبت بعد كل ضربة اهتماماً بالحياة لا يمكن أن يضيق لدرجة تجعل من الخسارة الواحدة أمراً مميتاً. وأن تنهزم بخسارة واحدة أو حتى بعدد من الخسائر ليس مما يستحق الإعجاب كإثبات لحساسيتك، وإنما هو أمر يجب الرثاء له لأنه فشل

للحيوية. وكل مشاعرنا تقع تحت رحمة القدر الذى قد يصيب بالموت من نجهم فى أية لحظة وبالتالي فمن الضروري ألا يكون لحياتنا تلك الحدة الضيقة التى تضع كل معنى وغرض لحياتنا تحت رحمة الأحداث.

لكل هذه الأسباب، سوف يهدف الإنسان الذى ينشد السعادة بحكمة إلى أن يمتلك عددًا من الاهتمامات المساعدة بالإضافة إلى الاهتمامات الرئيسة التى عليها تبنى حياته.

الفصل السادس عشر

المجهود والاستعفاء (*)

(1)

الوسط الذهبي مبدأ غير ذى بال، وأتذكر عندما كنت صغيراً أننى رفضته بازدراء وسخط لأن التطرفات البطولية كانت هى ما أعجب به فى تلك الأيام. والحقيقة ليست دائماً مشوقة. والكنير من الأمور يتم تصديقها لأنها مشوقة رغم أنه فى الواقع لا يوجد سوى القليل من الأدلة الأخرى فى صالحها. والوسط الذهبى هو حالة من هذه الحالات، فربما يكون مبدأ غير ذى بال ولكنه فى الكثير جداً من الأحوال مبدأ صحيح.

أحد الاعتبارات التى من الضرورى فيها المحافظة على الوسط الذهبى هو ما يتعلق بالتوازن بين المجهود والاستعفاء، ومبدأ المجهود

(*) استخدمت كلمة «الاستعفاء» كمرادف لكلمة Resignation فى الأصل الإنجليزى ، وتأتى بمعنى : التراجع ، أو عدم الميل لبذل الجهد .

بشّر به خبراء الكفاءة والمسيحيون مفتولوا العضلات، وكل من هاتين المدرستين المتعارضتين لديه جزء من الحقيقة وليس الحقيقة كلها، وأود فى هذا الفصل أن أحاول إيجاد التوازن بينهما وسوف أبدأ بالحالة التى هى فى صالح المجهود.

(٢)

السعادة ليست شيئاً يسقط فى الفم كالثمرة الناضجة نتيجة مجرد فعل الظروف الموائية إلا فى أندر الحالات، وهذا هو سبب تسميتى لهذا الكتاب «انتصار السعادة» لأنه فى عالم مفعم بالمصائب التى يمكن والتى لا يمكن تجنبها، بالمرض والمآزق النفسية، بالصراع والفقر وسوء القصد، يجب على الرجل أو المرأة ليصلا إلى السعادة أن يجد طرقاً لاستغلال المصائب العديدة للسعادة التى تقتحم حياة كل فرد وفى حالات نادرة معينة قد لا يتطلب الأمر مجهوداً كبيراً. فالشخص ذو الطبيعة السهلة الطيبة، الذى ورث ميراثاً ضخماً ويتمتع بصحة طيبة مصحوبة بأذواق بسيطة قد ينزلق عبر الحياة مرتاحاً ويتعجب عن أى شئ تثار كل هذه الضجة! والمرأة حسنة الشكل ذات المزاج الكسول إذا حدث وتزوجت رجلاً ميسوراً، وإذا لم تمنع بعد الزواج فى أن تصبح بدينة، فقد تستمتع أيضاً بنوع من الراحة الكسولة، شريطة أن يكون حظها طيباً بالنسبة لأطفالها. ولكن مثل هذه الحالات تعد استثناءات، فمعظم البشر ليسوا أغنياء، وكثير من الناس لم يولدوا

بطبيعة سمحة، ولدى الكثير من الأشخاص أهواء ليست سهلة مما يجعل الحياة المنظمة جيداً تبدو لهم عملة بدرجة لا يمكن تحملها، والصحة نعمة لا يمكن لأحد أن يتأكد من الاحتفاظ بها، والزواج ليس دائماً مصدرًا للنعمة، لكل هذه الأسباب، يجب أن تكون السعادة لمعظم الرجال والنساء إنجازاً وليس هبة من الآلهة. وفي هذا الإنجاز يجب أن يلعب المجهود دوراً كبيراً داخلياً وخارجياً. والمجهود الداخلي قد يشتمل على مجهود الاستعفاء الضروري وبالتالي فلننظر الآن إلى المجهود الخارجي فقط.

(٣)

فأى شخص، رجلاً كان أو امرأة، عليه أن يعمل ليعيش، تعد حاجته للمجهود المتعلق بذلك من الوضوح بدرجة لا تحتاج إلى تأكيد. فصحيح أن الفقير الهندي يستطيع العيش دوغماً بمجهود بمجرد تقديم قصصته لإحسانات المؤمنين، ولكن في الدول الغربية لا تنظر السلطات بعين الرضا إلى هذه الطريقة للحصول على دخل. أكثر من هذا أن المناخ يجعل هذا الأسلوب أقل إبهاجاً عنه في الدول الأدفأ والأكثر جفافاً، ففي فصل الشتاء على الأقل، سوف يكون القليل من الناس كسولين لدرجة تفضيل البطالة في العراء على العمل في الغرف التي تم تدفئتها، فالاستعفاء وحده بالتالي لا يشكل في الغرب طريقاً للثروة.

(٤)

ومن الضروري لسعادة نسبة مئوية كبيرة جداً من الرجال فى الدول الغربية أن يتوافر لهم أكثر مما يلزم لمجرد الحياة، لأنهم يرغبون فى الإحساس بأنهم ناجحون. وفى بعض الأشغال، مثل الباحث العلمى على سبيل المثال، من الممكن لرجال لا يكسبون دخلاً ضخماً أن يحصلوا على هذا الإحساس، ولكن فى أغلب الأشغال أصبح الدخل هو معيار النجاح. عند هذه النقطة نحن نلمس أمراً يعد فيه أحد عناصر الاستعفاء شيئاً مرغوباً فى معظم الحالات، حيث إنه فى عالم تنافسى يكون النجاح الملفت ممكناً لأقلية فقط، والزواج أمر قد يكون المجهود فيه ضرورياً أو غير ضرورى وفقاً للظروف، فعندما يكون أحد الجنسين فى الأقلية كما هو حال الرجال فى إنجلترا والنساء فى استراليا، فإن أفراد هذا الجنس عليهم كقاعدة عامة بذل القليل من الجهد للزواج إذا رغبوا، أما بالنسبة لأفراد الجنس الذى هو فى الأغلبية فالحال يكون معكوساً، فكم المجهود والتفكير المبذولين فى هذا الاتجاه من النساء اللاتى يشكلن الأغلبية يكون واضحاً لأي فرد يدرس الإعلانات فى مجلات النساء، والرجال عندما يكونون هم الأغلبية فمن الشائع أن يتبنوا أساليب أكثر استعراضية مثل المهارة فى استخدام المسدس، وهذا أمر طبعى، حيث إن وجود غالبية من الرجال غالباً ما يحدث عند الحدود الفاصلة للمدينة، ولا أدرى ما الذى كان سيفعله الرجال إذا ما أدى وباء يفرق بين الرجال والنساء إلى

أن يصبحوا أغلبية في إنجلترا، ربما كان عليهم العودة إلى أخلاقيات الشهامة لعصر قد مضى.

(٥)

وكمية المجهود التي تشتمل عليها تربية الأطفال تعد من الواضوح لدرجة أن أحداً لا ينكرها، فالأمم التي تؤمن بالاستعفاء وبما يسمى خطأ بالنظرة «الروحية» للحياة هي أمم تعاني من المعدلات العالية لوفيات المواليد فالطب والصحة والتطهير والغذاء المناسب كلها أمور لا يمكن الوصول إليها دونما أعمال مادية، فهي تتطلب طاقة وذكاءً يوجهان للبيئة المادية، وأولئك الذين يعتقدون أن المادة وهُم سوف يعتقدون نفس الاعتقاد في القاذورات، وبتفكيرهم هذا يتسببون في موت أطفالهم.

وإذا ما تحدثت بعمومية أكثر، فقد أقول إن ما يعد هدفاً طبيعياً ومشروعاً لكل شخص لم تضمحل فيه رغباته الطبيعية هو الحصول على سلطة من نوع ما، ونوع السلطة التي ينشدها الشخص يعتمد على شهواته السائدة، فأحد الأشخاص يرغب في السلطة على أفعال الناس، وآخر يرغب في السلطة على أفكارهم، وثالث يرغب في السلطة على عواطفهم، أحد الأشخاص يرغب في تغيير البيئة المادية ويرغب آخر في الإحساس بالسلطة التي تنأتى من التحكم الفكري، وكل طرز العمل العام تنطوى على الرغبة في سلطة من طراز ما، ما

لم يكن تقلد المنصب العام تحدوه الرغبة فى الشراء المستمد من الفساد. فالشخص الذى تحته معاناة إثارية تمامًا نتيجة مظاهر البؤس الإنسانى، سوف يرغب فى السلطة للتخفيف من هذا البؤس إذا كانت معاناته حقيقية.

والشخص الوحيد الذى لا ييالى بالسلطة على الإطلاق هو الشخص اللامبالى على الإطلاق بأقرانه من البشر. بعض طرز الرغبة فى السلطة تكون بالتالى مقبولة كجزء من الأجهزة المكونة من نوعيات الرجال الذين يمكن صنع مجتمع طيب منهم، وكل صور الرغبة فى السلطة ما لم يتم إعاقته تشتمل على طراز متلازم من المجهود، وبالنسبة لعقلية الغرب قد تبدو هذه النتيجة أمرًا معروفًا ولكن يوجد عدد غير قليل فى دول غربية يغازلون ما يسمى بـ«حكمة الشرق» فى نفس لحظة تخلى الشرق عنها، وما كنا نقوله ربما يبدو لهم أمرًا تساؤليًا. فإذا كان ذلك فمن الأفضل أننا قلناه.

(٦)

والاستعفاء رغم ذلك له دور ليلعبه فى «انتصار السعادة» وهو دور ليس أقل أهمية من الدور الذى يلعبه المجهود، فالشخص الحكيم، رغم أنه لن يقعد ساكنًا فى مواجهة الكوارث التى من الممكن منعها، لن يضيع وقتًا أو إحساسًا على الكوارث التى لا يمكن منعها، وحتى إذا كانت من الممكن منعها فسوف يستسلم لها إذا كان الوقت

والعمل اللازمين لتجنبها يتعارضان مع سعيه فى سبيل أغراض أكثر أهمية. ويتبرم كثير من الناس ويسخطون من كل أمر صغير يسير بطريقة خاطئة ويبددون بذلك الكثير من الطاقة التى يمكن توظيفها بأسلوب أكثر نفعاً. وحتى فى السعى من أجل أغراض مهمة فعلياً، فليس من الحكمة الاندماج العاطفى الشديد فى ذلك السعى بحيث تصبح فكرة إمكانية الفشل تهديداً مستمراً للسلام العقلى.

والمسيحية تعلم التسليم بإرادة الله، وحتى بالنسبة للذين لا يمكنهم قبول هذه الصياغة، فلا بد وأن شيئاً من هذا القبيل يتخلل كل أنشطتهم، والكفاءة فى أداء إحدى المهام العملية لا تتناسب مع العاطفة التى نضعها فيها، فأحياناً ما تكون العاطفة بالفعل عقبة فى سبيل الكفاءة، والسلوك المطلوب هو أن تفعل خير ما تستطيع تاركاً الأمر للقدر.

والاستعفاء طرازان، أحدهما متأصل فى اليأس، والآخر فى الأمل الذى لا يقهر. النوع الأول ردىء والثانى طيب. فالشخص الذى عانى من هزيمة جوهرية جعلته يتخلى عن الأمل فى القيام بأى إنجاز جدّى قد يتعلم استعفاء اليأس، وإذا فعل فسوف يهجر كل الأنشطة الجدية وربما موه على يأسه بالعبارات الدينية أو بمبدأ أن التأمل هو الغاية الحقيقية للإنسان. ولكن مهما كان نوع التمويه الذى يتبناه لإخفاء هزيمته الداخلية فيظل عديم النفع تماماً وتعيساً تعاسة أصيلة. والشخص الذى يقوم استعفاؤه على الأمل الذى لا يقهر يسلك سلوكاً مغايراً تماماً لذلك، فالأمل الذى لا يمكن قهره يجب أن يكون عظيماً

وغير شخصى . فمهما كانت أنشطتى الشخصية ، فقد يهزمنى الموت أو نوع خاص من المرض ، وقد يقهرنى أعدائى وقد أجد أننى قدر اتخذت مساراً غير حكيم لا يمكن أن يؤدى إلى النجاح .

وبألف طريقة وطريقة ، قد يكون فشل الآمال الشخصية جداً أمراً لا يمكن منعه . ولكن إذا كانت الأهداف الشخصية جزءاً من أهداف أكبر للبشرية ، فلن تكون الهزيمة المنكرة هى نفسها عندما يحدث الفشل . فرجل العلم الذى يرغب فى القيام باكتشافات عظيمة قد يفشل فى ذلك ، وربما كان عليه أن يترك عمله نتيجة اللوم الشديد ، ولكنه إذا رغب بعمق فى تقدم العلم وليس فى مجرد مشاركته الشخصية فى هذا الهدف ، فلن يحس بنفس اليأس الذى كان سيحسه الرجل الذى لبحوثه دوافع ذاتية بحته . والرجل الذى يعمل فى سبيل إصلاح يكون الاحتياج إليه شديداً ، يجد أن جهوده سوف تكون مصحوبة بحرب ، وربما أجبر على إدراك أن ما عمل من أجله لن يتحقق خلال فترة حياته ، ولكنه لا يحتاج نتيجة ذلك إلى الغرق فى اليأس التام ، شريطة أن يكون مهتماً بمستقبل الإنسانية بعيداً عن مشاركته الخاصة فى ذلك .

(٧)

الحالات التى كنا بصدددها هى التى كان الاسعفاء فيها أكثر صعوبة ، ولكن هناك عدداً آخر من الحالات التى يكون فيها أكثر سهولة ، فهناك الحالات التى تواجه فيها الأهداف الثانوية عائثاً بينما

الأهداف الرئيسية للحياة لا تزال تقدم آمالاً للنجاح، فالشخص المشغل مثلاً بعمل مهم يفشل فى القيام بالطراز المرغوب فيه من الاستعفاء إذا ما تشتت تركيزه نتيجة لتعاسته الزوجية. فإذا كان عمله مستحوذاً بحق، فيجب عليه النظر إلى هذه المتاعب العارضة بنفس الطريقة التى ينظر بها المرء إلى يوم مطير، أى على أنه إزعاج يكون من الغباء إثارة ضجة حوله.

(٨)

ولا يستطيع بعض الناس أن يتحملوا بصبر حتى تلك المشاكل الصغيرة التى يمكن أن تشكل إذا ما سمحنا لها بذلك جزءاً كبيراً من الحياة، فهم ساخطون عندما يفوتهم القطار، ويبدلهم الغضب إذا كان الغداء سيئاً الطهى ويغرقون فى اليأس إذا ما دخت المدفأة ويقسمون على الثأر من النظام الصناعى بكامله إذا لم تصل ملابسهم من مغسلة البخار. والطاقة التى يبدها مثل هؤلاء الناس فى المشاكل التافهة تكفى إذا تم توجيهها بحكمة لإقامة ومحو امبراطوريات. والرجل الحكيم يفشل فى اكتشاف الأثرية التى لم تنظفها شغالة المنزل، والبطاطس التى لم يطهها الطاهى، والهباب الذى لم تمسحه الممسحة. ولا أعنى أنه لا يأخذ أية خطوة لعلاج هذه الأمور، شريطة أن يكون لديه الوقت ليفعل ذلك، ما أعنيه فقط هو أن يتعامل مع هذه الأمور دونما عاطفة، فالانزعاج والغضب والتوتر كلها عواطف لا تخدم أى

غرض والذين يحسونها بقوة قد يقولون أنهم غير قادرين على تجاوزها، ولست متأكداً من أنه يمكن تجاوزها بأى شئ أقل من الاستعفاء الأصيل الذى كنا نتحدث عنه قبلاً، ونفس طراز التركيز على الآمال الكبيرة غير الشخصية الذى يساعد الإنسان على تحمل فشله الشخصى فى عمله أو المشاكل الخاصة بزواج غير سعيد، سوف يجعل من الممكن أيضاً لهذا الإنسان أن يكون صبوراً عندما يفوته القطار أو تسقط مظلته فى الطين. فإذا كان من ذوى المزاج الغاضب، فليست متأكداً من أن شيئاً أقل من هذا سوف يعالجه.

(٩)

الإنسان الذى تحرر من إمبراطورية القلق سوف يجد الحياة عملاً أكثر إبهاجاً بكثير عما اعتاده عندما كان مستثاراً باستمرار، والطبيعة الشخصية لمعارفه والتى كانت تجعله قبلاً يود الصراخ سوف تصبح الآن مجرد أمر مدهش. فعندما يقص السيد (أ) للمرة الثلاثمائة وسبع وأربعين النادرة الخاصة بأسقف تيسرا ديل فيوجو، فسيدهش نفسه بملاحظة عدد المرات ولن يحس بأى ميل لمحاولة غير مجدية لتحويل مجرى الحديث بنادرة من نوادره هو، وعندما ينقطع رباط حذائه وهو فى عجلة كى يلحق بقطار الصباح الباكر، فسيفكر، بعد بعض الأمور المناسبة من قبيل تحصيل الحاصل، أن الحدث الذى هو بصده ليس له أهمية قصوى فى تاريخ الأكوان. وعندما تقاطعه - وهو يتأهب للقيام

بتقديم عرض للزواج - زيارة من جار عمل، سيفكر فى أن كل البشر معرضون للكوارث باستثناء آدم وأنه حتى آدم كانت له أيضا متاعبه. ولا توجد حدود لما يمكن عمله لإيجاد السلوى من الفواجع الصغيرة عن طريق التشبيهات الشاذة والتوازيات الحكيمة. فكل رجل متمدين وكل امرأة متمدينة لديهم على ما أعتقد صورة ما عن نفسه، وينزعج إذا حدث أى شئ يبدو أنه يفسد هذه الصورة. وأفضل علاج هو ألا يكون لديك صورة واحدة إنما معرضاً كاملاً للصور تختار منه الصورة التى تناسب الحدث موضع السؤال. فإذا كانت بعض الصور مثيرة للضحك، فيكون ذلك أفضل، فليس من الحكمة أن ترى نفسك طوال الوقت كبطل من أبطال الفواجع العظيمة. ولا أقترح أن يرى الشخص نفسه باستمرار كمهريج فى مسرحية كوميدية، لأن من يفعلون ذلك يكونون أكثر إثارة للسخط، فالقليل من اللباقة يعد مطلوباً عند اختيار الدور الذى يناسب الموقف. وبالطبع إذا كان بإمكانك أن تنسى نفسك ولا تؤدى دوراً على الإطلاق فإن ذلك يعد مثيراً للإعجاب. ولكن إذا كان أداؤك للدور قد أصبح طبيعتك الثانية فعليك إدراك أن أداؤك مسجل، وبالتالي تجنب التكرار.

(١٠)

ويرى الكثيرون من ذوى النشاط أن أقل قدر من الاستعفاء وأخفَتَ وَمَضَاتِ خَفَّةِ الظل كفيلاً بتدمير الطاقة التى يؤدوى بها

أعمالهم والإصرار الذى به يصلون إلى النجاح، كما يعتقدون. وهؤلاء هم فى نظرى مخطئون، فالعمل الذى يستحق الأداء يمكن أن يؤدى بواسطة حتى أولئك الذين لا يخدعون أنفسهم سواءً بالنسبة لأهمية العمل أو السهولة التى يمكن بها أدائه. والذين لا يستطيعون القيام بعملهم إلا بالاستعانة بخداع النفس من الأفضل لهم أن يدرسوا أولاً كيف يتحملون الحقيقة قبل أن يستمروا فى أداء عملهم حيث أنه عاجلاً أو آجلاً سوف تجعل حاجتهم إلى أن تعضدهم الخرافات أن يصبح عملهم ضاراً بدلاً من أن يكون نافعاً. والقليل من الوقت الذى ينفق فى تعلم كيفية تقدير الحقائق لا يعتبر وقتاً ضائعاً واحتمال أن يكون العمل الذى سوف بعد ذلك ضاراً يقل كثيراً عنه بالنسبة للعمل الذى يؤدى بواسطة الذين يحتاجون إلى تضخيم دائم لأنفسهم كمنبه لطاقتهم، وتشتمل إرادة مواجهة حقيقة أنفسنا على نوع معين من الاستعفاء، هذا النوع رغم أنه يشتمل على ألم فى اللحظات الأولى، يوفر فى النهاية الحماية والحماية الوحيدة الممكنة بحق من خيبة الأمل وانقشاع الوهم اللذين يكون خادعاً نفسه عرضةً لهما. ولا شيء أكثر إعياءً ولا أكثر سخطاً من المجهود اليومي المبذول فى تصديق أشياء تصبح كل يوم أكثر لا معقولة. والقيام بذلك عن طريق هذا المجهود يعد شرطاً لا يمكن تجاوزه لسعادة آمنة ودائمة.

الفصل السابع عشر

الإنسان السعيد

(١)

من الواضح أن السعادة تعتمد جزئياً على ظروف خارجية وجزئياً على الشخص نفسه، وقد كنا مهتمين في هذا الكتاب بالجزء الذى يعتمد على الشخص نفسه وقادنا ذلك إلى وجهة النظر أنه فى حدود ما يخص هذا الجزء فإن وصفة السعادة تعد بسيطة جداً. ويعتقد الكثيرون ومنهم السيد كرتش الذى تحدثنا عنه فى فصل سابق أن السعادة مستحيلة دونما عقيدة ذات طابع دينى بشكل أو بآخر، ويعتقد الكثيرون الذين هم أنفسهم تعساء أن أحزانهم قد تفاقمت لأنها ذات مصادر فكرية بدرجة كبيرة، ولا أعتقد أن مثل هذه الأشياء تعد مسببات حقيقية لسعادتهم لسعادتهم أو لتعاسيتهم ولكنها مجرد أعراض. فالشخص غير السعيد، كقاعدة عامة، سوف يتبنى عقيدة غير سعيدة بينما الشخص السعيد سيتبنى عقيدة سعيدة، وكل منهما يرجع سعادته أو تعاسته إلى معتقداته بينما يكون المسبب الحقيقى هو

عكس ذلك، فلا غنى عن أمور معينة لسعادة معظم الناس وإن كانت أمور معينة لسعادة معظم الناس وإن كانت أمور بسيطة: الغذاء والمأوى، الصحة، الحب، العمل الناجح واحترام الفرد لقومه.

وتعد الأوبة لبعض الناس أمراً أساسياً أيضاً. وعندما تكون هذه الأشياء مفقودة، فإن الشخص الفريد فقط هو الذى بمقدوره أن يصل إلى السعادة، بينما إذا توافرت جميعها أو كان من الممكن الوصول إليها بمجهود جيد التوجيه، فإن الشخص الذى يظل تعيشاً يكون مصاباً ببعض الاختلالات النفسية التى قد تحتاج إذا كانت شديدة السوء إلى خدمات طبيب نفسى، ولكن يمكن علاجها فى الأحوال العادية بواسطة المريض نفسه شريطة أن يشرع فى ذلك بالطريقة السليمة، فإذا لم تكن الظروف الخارجية سيئة بالقطع، فباستطاعة الفرد أن يصل إلى السعادة شريطة أن تكون عواطفه واهتماماته موجهة للخارج وليس للداخل. ويجب أن يكون سعينا بالتالى فى مجال التعليم ومحاولات التكيف مع العالم هادفاً لتجنب العواطف التى تدور حول الذات واكتساب تلك الأحاسيس والاهتمامات التى ستمنع أفكارنا من أن تحوم دائماً حول أنفسنا.

وليس من طبيعة معظم الناس أن يكونوا سعداء فى السجن، وأن العواطف التى تغلقنا على أنفسنا تشكل واحداً من أسوأ أنواع السجن، وبعض تلك العواطف التى تعد شائعة بدرجة كبيرة هى: الخوف، الحسد، حاسة الإثم، الأسى على النفس والإعجاب

بالنفس، ففي كل هذه الأمور تكون رغباتنا مركزة على أنفسنا. فلا يوجد أى شغف حقيقى بالعالم الخارجى وإنما مجرد إهتمام به لربما يجرحنا بطريقة ما أو يفشل فى تغذية غرورنا. فالخوف هو السبب الرئيسى فى كون البشر غير راغبين على الإطلاق فى قبول الحقائق وفى أنهم شديداً الاشتياق لأن يلقوا أنفسهم فى عباءة الخرافة الدافئة، ولكن الأشواك تمزق العباءة الدافئة وتخترقها اللفحات الباردة عبر الشقوق ويعانى الشخص الذى أصبح معتاداً على دفئها من هذه اللفحات بدرجة أكبر كثيراً من الشخص الذى قام بتقسية نفسه بالنسبة لها منذ البداية، علاوة على ذلك، فالذين يخدعون أنفسهم يعرفون فى أعماقهم بصورة عامة أنهم يفعلون ذلك، ويعيشون فى حالة من الرعب خشية أن تفرض حادثة مكدرةً مدركاتٍ غير مستحبة عليهم.

(٢)

وأحد العيوب الكبيرة للعواطف التى تدور حول الذات هو أنها لا تقدم سوى القليل جداً من التنوع فى الحياة، فصحيح أن الشخص الذى يحب نفسه فقط لا يمكن اتهامه بتشتت مشاعره، ولكنه لا بد وأن يعانى فى النهاية مللاً غير محتمل من موضع ولائه الذى لا يتغير، والشخص الذى يعانى من حاسة الإثم يعانى من نوع معين من عشق الذات. ففي كل هذا الكون الواسع، فإن الشيء الوحيد الذى يبدو له شديد الأهمية هو أنه يجب أن يكون فاضلاً، وأنه لقصورٌ خطير فى

طرز معينة من الدين التقليدى أنها تشجع هذا النوع من الاستغراق فى الذات .

(٣)

الإنسان السعيد هو الإنسان الذى يحيا بموضوعية، الذى له عواطف حرة واهتمامات واسعة والذى يقوم بتزمين سعادته من خلال هذه الاهتمامات والعواطف ومن خلال أنها بالتالى ستجعله موضوعاً للاهتمامات والعواطف من قبل الآخرين . ومن المسببات القوية للسعادة أن تكون مستقبلاً للحب، ولكن الشخص الذى يطلب الحب ليس هو الشخص الذى يمنح الحب، وإجمالاً فإن الشخص الذى يستقبل الحب هو الذى يعطى الحب، ومن غير المجدى محاولة منح الحب كأمر محسوب بالطريقة التى يفرض بها الشخص مالاً بفائدة، لأن الحب المحسوب ليس حقيقياً ولن يحس الذى يستقبله بأنه كذلك .

(٤)

فما الذى يستطيع الإنسان أن يفعله إذا لم يكن سعيداً لأنه منغلق على ذاته؟ طالما استمر فى التفكير فى مسببات تعاسته فسوف يستمر الشخص فى كونه متمركزاً حول ذاته ولن يخرج من الدائرة الخبيثة . وإذا كان له أن يخرج منها فلا بد وأن يكون ذلك طريق الاهتمام الحقيقى وليس بالاهتمام المصطنع الذى يقوم به على أنه دواء .

ورغم أن هذه الصعوبة حقيقية، فيوجد رغم ذلك الكثير مما يمكن عمله إذا كان الفرد قد شخص مشكلته تشخيصاً سليماً. فإذا كانت مشكلته ترجع مثلاً إلى حاسة الإثم سواءً في الوعي أو اللاوعي، يمكنه أولاً أن يقنع عقله الواعي بعدم وجود مبررات لإحساسه بأنه آثم، ثم يتقدم بالأسلوب الذي تعرضنا له في فصل سابق ليزرع قناعاته الراشدة في عقله اللاوعي على أن يجعل نفسه مهتماً في هذه الأثناء ببعض الأنشطة المحايدة بدرجة كبيرة أو صغيرة. فإذا نجح في التخلص من حاسة الإثم، فمن المرجح أن تنبثق بعض الاهتمامات الموضوعية بحق تلقائياً.

أما إذا كانت مشكلته هي الأسى على النفس فيمكن التعامل معها بنفس الطريقة بعد أن يكون قد أقنع نفسه أولاً بأن شيئاً لا يعتبر سيئاً بطريقة غير عادية في ظروفه. وإذا كان الخوف هو مشكلته فليمارس بعض التدريبات المصممة لاكتساب الشجاعة. فالشجاعة في الحرب كانت معترفاً بها كفضيلة مهمة منذ أوقات لا يمكن تذكرها. وجزء كبير من تدريب الصبية وشباب الرجال كان موجهاً لإنتاج نوعية من الشخصية القادرة على عدم الخوف في المعركة. ولكن الشجاعة الخلقية والشجاعة الفكرية، فقد كانت دراستهما أقل كثيراً من ذلك وإن كانت لهما أساليبهما أيضاً.

اعترف لنفسك كل يوم بحقيقة مؤلة واحدة وستجد أن ذلك أمراً مفيداً كالعمل العطوف اليومي لصبيان الكشافة. علم نفسك الإحساس

بأن الحياة ستظل تستحق العيش حتى إذا لم تكن أنت، رغم أنك كذلك فعلاً، متفوقاً بطريقة لا يمكن قياسها على كل أصدقائك في الفضيلة والذكاء. والممارسات التي هي من هذا النوع عندما تطول لعدة سنوات سوف تجعلك في النهاية قادراً على قبول الحقائق دون إحجام وسوف تحررك بهذا العمل من امبراطورية الخوف الممتدة على اتساع كبير.

(٥)

ما ستكون عليه الاهتمامات الموضوعية التي ستنبثق فيك عند تغلبك على مرض الاستغراق في الذات يجب أن يترك للأفعال التلقائية لطبيعتك وللظروف الخارجية، لا تقل لنفسك مسبقاً : «يجب أن أكون سعيداً إذا استطعت أن أستغرق في جمع الطوابع» ثم تشرع عقب ذلك في جمع الطوابع حيث أنه قد يحدث أن تفشل تماماً في أن تجد جمع الطوابع أمراً مشوقاً. فالاهتمامات الحقيقية فقط هي التي يمكنك الانتفاع بها ولكنك من الممكن أن تكون واثقاً من أن الاهتمامات الموضوعية الحقيقية سوف تنمو حالما تكون قد تعلمت ألا تنغمس في ذاتك.

(٦)

الحياة السعيدة تماثل بدرجة غير عادية الحياة الطيبة. وقد بالغ الأخلاقيون المحترفون في قيمة إنكار الذات ويعلمهم هذا وضعوا

تركيزهم فى المكان الخطأ. فإنكار الذات الواعى يترك الإنسان مستغرقاً فى ذاته ومدرّكاً بوضوح لما ضحّى به ويفشل بالتالى عادة فى غرضه الحالى ويفشل باستمرار تقريباً فى غرضه النهائى .

(٧)

المطلوب ليس هو إنكار الذات ولكن طراز توجيه الاهتمام إلى الخارج الذى يقود تلقائياً وطبيعياً إلى نفس السلوك الذى يستطيعه فقط الشخص الذى يستغرقه تماماً السعى إلى فضيلته الخاصة عن طريق انغماسه فى إنكار ذاته . لقد كتبت فى هذا الكتاب كفرد يعشق اللذة وأعنى كفرد يعتبر أن السعادة هى الخير . ولكن السلوكيات التى يزيكها عاشق اللذة هى فى مجملها نفس التى يزيكها الأخلاقى العاقل . ويميل الأخلاقى رغم ذلك إلى التركيز على الفعل وليس على حالة العقل ، وإن كان ذلك لا يكون صحيحاً فى كل الأحوال وأثر الفعل على الفرد موضع الفعل يختلف اختلافاً واسعاً وفقاً لحالة عقله فى تلك اللحظة . فإذا رأيت طفلاً يغرق وأنقذته كنتيجة للدافع المباشر لتقديم المساعدة ، فلن تصبح نتيجة ذلك شيئاً من وجهة النظر الأخلاقية . أما إذا قلت لنفسك : «إنه من الفضيلة إغاثة العاجز ، وأنا أرغب فى أن أكون إنساناً فاضلاً ، وبالتالى فيجب أن أنقذ هذا الطفل» فسوف تصبح بذلك أسوأ مما كنت قبلاً . وما ينطبق على هذه الحالة الشاذة ينطبق على كثير من الحالات الأخرى الأقل وضوحاً .

(٨)

هناك فرق آخر دقة بدرجة ما بين السلوك الذى زكّيته تجاه الحياة وذلك الذى يزكّيه الأخلاقيون التقليديون، فالأخلاقي التقليدى على سبيل المثال سيقول : إن الحب يجب ألا يكون أنانيًا. وهو على صواب بمدلول معين وهو ألا يكون أنانيًا وراء نقطة معينة، ولكنه يجب بلا شك أن يكون بهذه الطبيعة ؛ لأن سعادة الفرد الخاصة ترتبط فى نجاحها به، فإذا أراد رجل أن يدعو سيدة للزواج منه على أساس أنه يرغب سعادتها بحرارة وفى نفس الوقت يرى أنها سوف توفر له فرصا مثالية للإقلاع عن حب نفسه، فأعتقد أنه من المشكوك فيه أنها سوف تكون سعيدة تمامًا، فمما لا شك فيه أننا يجب أن نرغب فى سعادة أولئك الذين نجيبهم ليس كبديل لحبنا لأنفسنا، وفى الحقيقة فإن كل التناقض بين الذات وباقى العالم الذى يوجد ضمناً فى مبدأ إنكار الذات يختفى حالما كان لدينا أى إهتمام حقيقى بالأفراد والأشياء الخارجة عن أنفسنا، فغير مثل هذه الاهتمامات يستطيع الإنسان أن يحس بنفسه كجزء من تيار الحياة وليس ككيان صلب منعزل ككرة البلياردو التى بمقدورها ألا يكون لها أية علاقة بالكيانات الأخرى إلا بالإصطدام.

والنعاسة تعتمد بكاملها على نوع ما من التفتت أو الافتقار إلى الاندماج. فهناك التفتت داخل الذات نتيجة الافتقار إلى التنسيق بين

العقل الواعى والعقل اللاواعى، وهناك الافتقار إلى الاندماج بين الذات والمجتمع عندما لا يكون الاثنان قد تم ربطهما معاً بقوة الاهتمامات الموضوعية والحب، والإنسان السعيد هو الذى لا يعانى من أى صور فشل الاندماج هذه، والذى تكون شخصيته لا هى منقسمة على نفسها أو آسفة تجاه الدنيا، مثل هذا الشخص يشعر بنفسه كمواطن عالمى، يتمتع بحرية بالمشهد الذى يقدمه العالم وبالمسرات التى يوفرها، ولا تؤرقه فكرة الموت لأنه يشعر بأنه ليس منفصلاً فى الحقيقة عن أولئك الذين سيأتون بعده، إن أعظم سرور من الممكن أن يوجد فى مثل هذا الاتحاد الغريزى العميق بتيار الحياة.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل



الحيوانات سعيدة طالما كانت بصحة جيدة ولديها ما يكفيها من الطعام، ورغم أن البشر يجب أن يكونوا كذلك، إلا أنهم في عالمنا الحديث ليسوا سعداء، على الأقل في الغالبية من الحالات؛ فإذا لم تكن سعيداً، فقد توافقني على أنك لست الاستثناء في ذلك، أما إذا كنت سعيداً فاسأل نفسك كم من أصدقائك سعداء؟ من الواضح أن المسببات النفسية للتعاسة عديدة ومختلفة، وإن كانت لها خصائص مشتركة؛ فالإنسان التعس هو الذي إذا ما حرم بعض المتع الطبيعية في شبابه، أصبح يولى هذه المتع أهمية أكثر من أى شىء آخر عندما يكبر، والإنسان السعيد هو الإنسان الذي يحيا بموضوعية، الذي له عواطف حرة واهتمامات واسعة، والتي تجعله موضوعاً للاهتمام والعواطف من قبل الآخرين، ومن المسببات القوية للسعادة أن تكون مستقبلاً للحب؛ فإن الشخص الذي يستقبل الحب هو الذي يعطى الحب.

وقد كتبت هذا الكتاب موقناً بأن الكثيرين من التعساء بإمكانهم أن يصبحوا سعداء عن طريق مجهود جيد التوجيه.

برتراند راسل